رواية رائعة .. هجاء وحشي على تشوهات العقول الفردية والجماعية.

The New York Times

أنتوني برجس

ANTHONY BURGESS

رواية

البرتقالة الآلية

A CLOCKWORK ORANGE

مكتبة 1203

ترجمة: احمد مصطفى صانعي

البرتقالة الآلية

A CLOCKWORK ORANGE

t.me/soramnqraa

14 6 23

CLOCK WORK ORANGE

Anthiny Burgess

■ اسم الكتاب: **البرتقالة الآلية**

■ المــؤلــف: **أنتوني بيرجيس**

■ ترجمة: **احمد مصطفى صانعي**

■ تدقيق وتنقيح: **تغريد شومان**

■ الطبعة الأولى **2022 ©**

حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر

لا يجــوز نســخ أي جزءٍ من هــذا الكتاب أو إستعمالــه بأي شكلٍ مــن الأشكال أو بأيــة وسيلة من الوسائــل سواء التصويرية أم الألكترونيــة أم الميكانيكية؛ بما في ذلــك النســخ الفوتوغــرافي والتسجيل على أشرطــة أو سواها وحفــظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي «منشورات **نصوص**»

ISBN: 978-9953-592-42-8

■ الإخراج الفني: TRIGRAPHICS

لبنان ، بيروت ، شارع المقدسي ، بناية ريبر ، الطابق الخامس

العراق ، بغداد ، شارع المتنبي ، بناية مصرف الرشيد ، الطابق الأول

00961 01 740 495 ، 00961 78 938 980

www.nousous.com nousous.lr@outlook.com

رواية رائعة .. هجاء وحشي على تشوهات العقول الفردية والجماعية.

The New York Times

أنثوني بارجس

مكتبة | 1203

البرتقالة الآلية

A CLOCKWORK ORANGE

رواية

منشورات

ترجمة: احمد مصطفى صانعي

مقدّمة:

الابن الشّرعي لعصر العنف والتّمرّد...

مكتبة
t.me/soramnqraa

الآلـة الكاتبـة المتنقّلة - يكتـب في كلّ مكان - ويـمارس أكثر من نوع مـن الكتابة بدءًا من الرّواية الى القصيدة والسّـيناريو والمسرحيّة والتّمثّيليّـة التّلفزيونيّـة. وهـو من أنشـط وأهمّ الادبـاء في إنكلترا في زمانه حيث تتواصل نجاحاته وتتوالى اعماله الواحد تلو الآخر رجل الاسـفار والحركة إنه «أنتـوني بيرجيس». رجلٌ انكليـزيٌ بامتياز مع أنها صعبة جدًّا في كتابتها فهو يرى الانكليزيّة وسـيلته الأولى للتّعبير خاصّـة في رواياتـه على الرّغم من أنه لا يعيش وقتًا طويلاً من السـنة داخل بلاده كما أنّه يتحدّث ويكتب بطلاقة ستّ لغات أخرى.

ولد «أنتوني بيرجيس» عام 1917 في شـمال إنكلترا في «مانشستر» في أسرة كاثوليكيّـة موسـيقيّة. فكان أبوه عازفًا عـلى آلة البيانو فتعلّم منـه الرّقص والغنـاء والعزف وقد كان يتمنّى في أوّل الأمر أن يصبح عازفًـا إلّا أنّــه قـرّر أن ينتقـل إلى عـالم الأدب، وكانـت والدته تعمل في الصّـالات الموسـيقيّة، ولكنّها ماتـت وهو لايزال طفلاً ما سـبّب انغلاقه بسـبب وجـود أمٍّ أخـرى تتسـم بالتّعصّب الدّيني الشّـديد. التحق بجامعة «مانشسـتر» بعـد أن ترك المدرسـة الكاثوليكيّة. وكما

كان يتمنى في أوّل الأمر أن يصبح عازفًا إلا أنّه قرّر أن يهجر عالم الموسيقى كي يصبح أديبًا. وقد ساعدته موهبته الادبية.

ترك بلاده لأول مرّة عام 1942 متّجهًا إلى جبل طارق ثم إلى أوروبا حيث اختلط لأوّل مرّة بعالم يختلف عن عالمه ورأى بشرًا آخرين لا يتكلّمون الانكليزيّة. وفي عام 1945 سافر إلى ماليزيا حيث التحق بإحدى الوظائف التي وفّرت له الوقت كي يمارس الكتابة. وقد أصيب عام 1959 بمرض اضطرّه للعودة إلى وطنه فقال الاطباء أنّه لن يعيش أكثر من عام لذا عزم «انتوني» أن يترك لزوجه ثروة فكتب في أقل من عام خمس روايات، لكنّه بقي على قيد الحياة ثم ما لبث أنّ تزوّج من امرأة ايطاليّة وهاجر معها إلى مالطا ثمّ ظلّ يتنقل - فيما بعد - بين البلاد حتّى استقرّ أخيرًا في «مونت كارلو» واختارها منفى لنفسه (يعدّ المنفى شرطًا أساسيًا للكاتب، وأنا سعيد دومًا حين أجد نفسي هناك حيث لا أسمع الكثيرين من الناس يتحدّثون بالانكليزيّة التي افتقدتها فبدوت كأنّني قد بترت لساني في الوقت الذي أجد أنه لزامًا على أن أكتب بلغة وطني) والمنفى يشكل بالنسبة للكتابات وحياة الكاتب علاقة خاصّة. ففي روايته «حق الرد» نرى المدرِّس الذي يعمل في مدرسة خاصّة ولا يرضى بالاوضاع التي تنتهجها إدارة المدرسة فيقرّر أن يهجر البلاد الى أوروبا.مكتبة سُر مَن قرأ

وقد اشتهرت روايته «البرتقالة الآلية أو برتقالة بقلب الساعة» شهرة واسعة خاصّة بعد نجاحها كفيلم سينمائي أخرجه «ستانلي

كيوبريـك» 1972. وقـد اتّبـع فيهـا أسـلوبًا أقـرب إلى مـا كان يفعله مواطنـه «ألدور هكسـلي» في رواياتـه. فهو يدخل فقـرات طويلة لها علاقـة وثيقـة بالعمـل الاسـاسي بلغـاتٍ عدّة أخـرى خاصـة اللّغة الرّوسـية، وتنتمـي هـذه الرّوايـة الى «أدب الخيـال السـياسي» الذي يميـل «بيرجيس» إلى الكتابة فيه حيث ينقـل تجربة اغتصاب حدثت لزوجتـه من رجال أشرار، فمن المعتاد أن نشـاهد صورة الضّحايا في الصّحـف بعـد أن يتمّ ارتكاب الجرائم لكننا لم نـر أبدًا صورًا تبيّن لنا الجريمة أثناء وقوعها. ففي الجزء الأول نرى مجموعة أحداث العنف التي يمارسـها «أليكـس» وعصابته. والعنف هو حصيلة أشـياء ناتجة عن اسـتعمال الآليات لدخائلنا، فقد تحوّل عالمنـا إلى كتلة من العنف والدّمـاء حيـث نرى في النّصـف الثّاني من الرّواية عمليّة غسـيل مخ لــ «أليكس» في إحدى المصحّات يتحوّل على أثرها المجرم المتوحّش الى إنسـان ذليل وخنوع ومطيع فإذا ضربه إنسان انحنى ليقبّل حذاءه وعندما اختبروا قابليّته للجنس قدّموا له فتاة عارية ساحرة فتقيّأ.

وعـلى بالرّغم من أنّ «بيرجيـس» يؤكّد على العنف في رواياته كما سـنرى، إلّا أنّه لا علاج لمجتمعنا المعاصر سـوى بالعودة إلى التّعاليم التي جاءت في الكتب السّماويّة فهو يكنّ اعجابًا خاصًا للسّيد المسيح عليـه السّـلام، فيكتب حوله روايـة «رجل النّاصرة» ويـرى أنّ حياة المسيح تشكّل صدى لمأساة ودرسًا للتّحمل، ومعاناة نفسيّة للتّلاميذ. فلكلّ إنسان كلماته وسماته. فهو يراه رجلاً مثلنا وهو يرى أن المسيح

رجل مثلنا. وينبثق من محيط كمحيطنا ولكن كانت له معجزاته الصّغيرة التي كإحياء الموتى وشفاء المرضى، ومعجزة واحدة كبيرة جعلت منه رسولاً وجعلتنا نؤمن به لأنه استطاع أن يكون منا وأكبر منا والمسيح الذي نعرفه جميعًا. وقد تحوّلت هذه الرّواية إلى مسلسل تلفزيوني أخرجه «فرانكو زيفيريللي» عام 1977. «أنتوني بيرجيس» عاش في «مونت كارلو» لذا تأثّر بشكلٍ واضح بفرنسا وتاريخها، حيث اختار أهم شخصيّة في تاريخها ليقدّمها في روايته «سيمفونيّة نابليون» التي نشرها عام 1976، تناول فيها علاقات «نابليون» العاطفيّة ومغامراته في البلاد التي غزاها مثل مصر وإيطاليا وروسيا، فهو يتبعه كأنّه أب يراقب ابنه في مسيرته ويحاول تعديل مساره والتّعاطف معه والتّغاضي عن أخطائه مهما فعل. فـ «نابليون» هو ابن الثّورة الذي يريد أن ينشئ إمبراطوريّة عظيمة فوق أطلال أوروبا الاقطاعيّة المدمّرة التي عانت من الطّغاة والجياع. لكن تلك الثّورة كانت حطّمت قائدها وظلمته بعد أن حقّق لها الكثير فبقي حلم شعوب أوروبا بعد موته. ويقول النّاقد «جيل لابوج» في مجلة «كانزان» الأدبيّة - 15 أبريل 1977 - «كي تقرأ هذا الكتاب قراءة عميقة يجب أن تكون عينك على الكتاب والأخرى تسمع بها السّيمفونيّة.

في عام 1978 نشر «بيرجيس» ثلاثة كتب مرّة واحدة، الأول عن «أرنست هيمنجواي» بعنوان «هذا اللعين هيمنجواي» حيث تحدّث

فيه هن الاحترام الذي يكنّه للأديب الامريكي العظيم ولقائه به عام 1944 الامريكـي العظيـم إبّان الحرب العالميّة حينما زار فرنسـا حيث اجتمع بـ«مالرو» (يا للخسـارة أنّه لم يكن لهذه المجموعات أيّة أفكار واضحة وهي تجتمع في باريس). أمّا الكتاب الثاني فهو رواية بعنوان «رومـا تحت المطـر» وفيها يتعرّض لحيـاة «رولان بـيرار» أحد كتّاب السـيناريو الذين يعيش في أوروبا بعيدًا عن بلاده الذي أصبح ارملاً بعد زواج دام سـتة وعشرين سـنة بعـد أن ماتت زوجه التي شـيّعها إلى مثواها الأخير دون أن يشـعر بالأسـف لأنه شعر باسترداد حرّيّته التـي اغتصبت منه. ويقرّر أن يرحل إلى روما كي يسـتقرّ فيها وهناك يتعرّف على امرأة تعمل مصوّرة فوتوغرافيّة ما تلبث أن تتركه لترحل إلى الـشّرق الأوسـط لتصوّر أحداث حرب الخامس مـن يونيو، بينما يبقـى «بيرار» وحده في غرفة المرأة يكتب سـيناريو فيلم تموّله هوليود وتقوم ببطولته أخته. وفي هذا السّيناريو يمزج «بيرجيس» بين تجربته الخاصّـة واحاسيسـه الذّاتيّة وبين أبطالـه الذين يصنعهم بنفسـه.أمّا الرّوايـة الثّالثـة التي صـدرت في العام نفسـه (1985) وفيها يعود إلى أدب الخيال السّـياسي مرّة أخرى. قارن النّقـاد بين هذه الرّواية وبين روايـة بالعنوان نفسـه للكاتب «جورج أورويل» لكن الشّـخصيات هنـا تختلف فنحن أمام ديكتاتور عصري يدعى «بيف» الذي يشـكل صـورة جديدة من «بيفان» وهو يعيش في عصر ملك يدعى «شـارل الثالث» وهناك مملكة تسـمّى «مملكة العمّال» يتزعّمها «بيف» العامل

الـذي يودّ أن يسـتولي على الحكم كي يصنع لنفسـه كل القوانين التي تسـود المملكة حيث الفـوضى والاغتصابـات في شـوارعها. ويفقد «بيـف» امرأتـه بعـد أن اصيبـت في حريـق في إحدى المستشـفيات، فرجـال الاطفـاء كانوا في اجازة حينهـا، وهذا ما دفعـه أن ينضم إلى مجموعـة من الشّـبان المتشرّدين الذين يعيشـون عـلى هامش المجتمع العبثي ثمّ يتزعّمهم ويمارسون الاغتصابات والقتل ويسيّلون الدّماء ويقضـون أوقات فراغهم في تعلّم اللغـة اليونانية. وهذه الرّواية هي أولى روايـات الكاتـب التـي ترجمـت إلى اللّغـة العربيّة تحـت عنوان «المسلمون قادمون».

وفي منتصـف عـام 1981 ينـشر روايته الثّالثة حـول العنف الذي يجتـاح العـالم والذي تنبّـأ به في روايـة «البرتقالـة الآليـة» التي أطلق عليها اسـم «قوى الظلام» التي سـميت بــ (كتاب القرن العشرين) حيث يتناول «بيرجيس» سـتين سنة كاملة من القرن العشرين مؤكدًا على مظاهر العنف داخله.

وقـد نـشرت مجلـة «الاكسـبريس» الفرنسـيّة حديثًـا طويـلاً مع «بيرجيـس» في العـدد الصّـادر في 25 سـبتمبر عام 1981 سـنورد منه بعـض المقاطـع لإلقـاء الضّـوء عـلى فكـر «بيرجيس» حـول العنف والارهـاب الـدّولي، فيقول «حاولت في أول الأمـر أن أعطي صورة حول العالم الذي أعرفه منذ سـنوات ميلادي عام 1917 وحتّى الآن. أفكـر جديًّـا أن هـذا الكتاب قد بيع جيـداَ في الولايـات المتحدة لأنّه

طويـل جـدًا. فالامريكيّون لا يحبون أن يشـتروا كتابًا يمكنهم قراءته في جلسة واحدة مثل أعمال «فرانسوا زساجان» الأديبّة الفرنسيّة أنهم يشعرون بالغلبة إذا ما اشتروا شيئاً ليس على مزاجهم. ففي مساكنهم تجد دائمًا الكتاب السّميك الثّقيل الذي تضعه على دولابك ويمكنك أن تحتفـظ بـه كي تقرأه يوميًّـا، هذا الأمر يضمن نجاح الكتاب بينما أنـا لا أعلّق أيّ أهميّة على هذا الموضوع». ويقول «أنّ هذه الرّواية قد استُقْبلت جيدًا في المملكة المتحدة لكن بشيء من الحذر، لأنه يتصوّر أنّ القـارئ الانجليـزي لـه مفهوم خـاص حول العمل وهـذا الأمر يختلـف عنـه في إيرلندا أو فرنسـا أو أيّ بلد آخـر. أمّا عن بطل روايته «تومـي» يقول «إنه شـاذ جنسـيًّاً وكاثوليكي» وهذا الموقـف الدّيني المتشدّد داخله يتضارب مع سلوكه الجنسي، فالكنيسة ترفض الشّذوذ الجنسي وعليه فإنّه يلزم وجود إلهيْن وقوّتين أحدهما للجنس والآخر للكنيسـة الذي يطلب منه أن يتخلّص من كل شروره، فهو أب أسرة كما أنّه مجرم، ليست له وظيفة سوى أن يؤلّف روايات شعبيّة. ويشعر «تومـي» بالتّمـزّق تجاه هاتين القوّتـين فيرفض أن يختلـط بأعماله مع هذا العالم ويشرك معه البابا «كارلو» في حل مشـكلته، يقول له «إنّني أشـعر أنّني إنسان غير موجود فأنا لم أصبح شاذًّا باختياري و«تومي» يؤمن بحرية الاختيار. وعندما نختار فإننا نفضّل الأفضل فيجب أن يظـلّ الشّر خارجًا. يقول له البابا «الإنسـان حـر فيما يفعل لأنه كائن طيـب». يلتقي تومـي البابا «كارلـو» ثانية عـام 1918 الذي يخبره أن

الحرب قد انتهت، لكن الحرب ليست سوى وسيلة للتّعبير عن صفات رائعة داخل الانسان مثل الشّجاعة وروح التّضحية والاتّحاد وحبّ الزّملاء. وتطرح هذا السؤال «هل يجب اختيار الشّر مثل ذلك الذي نقع تحت طائلته كي يمكن تحقيق نتائج مرضية؟ هل يجب أن نتمنّى قيام حرب جديدة؟ وتكون الاجابة البديهية هي الرفض». فـ»كارلو» يرى أن ضرر الحرب أكثر من خيراتها. ويقول بيرجيس «إنّ كارلو كومباناني هو نفسه البابا يوحنا الثامن هذا الرّجل بالنّسبة لي هو أكثر الرّجال خطورة في القرن العشرين، وبالطّبع فقد كانت هناك النيّة في تنصيبه قديساً. وعندما كنت أقيم في روما كتبت مقالاً عدّدت فيه مجموعة من الوقائع ضدّه وقد اعتبر الفاتيكان أن هذه المقالات يجب أن توضع في ملف الشّيطان. و«أنتوني بيرجيس» يهتمّ جدًّا باللّغة التي يكتب بها، فهو يرى أنّ اللّغة بمثابة موسيقى العمل الرّوائي بأكمله ويرى أنّ البناء الرّوائي هو عماد العمل نفسه وعالمه ينقسم إلى قسمين هما العالم الطّبيعي الذي نعيش فيه والعالم الآخر السّرّي الذي يعيشه كل إنسان منّا خاصّ به لا يعرفه الآخرون ولا يجيد أحد التّعبير عنه. يجب أن يكون هناك معبر طويل بين العالمين، فنحن نتعلّق بعالمنا السّرّي دون أن نعرف أنّنا مسلوبون إليه فنحن لسنا الذين نبحث عن الله أو الشيطان أو عن الخير والشّر بل نحن متعلّقون بهم بصورة أو بأخرى فربّما يكون هذا سِرّي وربّما هذا أفضل وربّما يكون الأمر جسيمًا.

العنـف الذي يجتـاح العالم الآن وتنبّأ به «بيرجيس» في السّـتّينات هو العنف الأبله الشّرير، وهو مرفوض تمامًا. فإذا كان الكاتب يكره الطّمأنينة العقيمة مثل كراهيّته للحرب المدمّرة، فإنّ الكاتب يوجّه في اعماله المتعدّدة التي تحلّل العنف وظواهره نداء إلى أن تنبض القلوب مـن جديـد بالحـبّ والإنسـانيّة وأن يتّجه العـالم الى الوحـدة والخير والطّمأنينة إبّان السّلام أكثر من وقت الحرب.

القســـم الأول

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

ماذا سيكون، يا ترى؟

أمامكم شـخصي الضّعيف، راوي هـذه القصّة: أليكس، ورفاقي الثّلاثـة: بيتر، وجورجي، وديم. إنّ «ديم» هو ما يدلّ عليه اسـمه في لغتنا: الغبي. ولقد جلسـنا في مشرب اللّبن المعروف باسم «كوروفا» نقـدح زناد أفكارنا فيما سـنفعله هـذه اللّيلة الحالكة الظّلام القارسـة والبـاردة في هـذا الشّـتاء اللّعـين، وإن كانت غير ممطـرة. إن مشرب «كوروفا» هذا - يا إخواني - كان من المشـارب التي يقدّم فيها اللّبن المخلوط، وربّما نسيتم حقيقة هذه المشارب لسرعة ما تغيّرت طبيعتها هـذه الأيّام، وكثرة ما ينسـاه النّاس، وقلّة ما يقـرؤون من الصّحف، حينئـذٍ كان مـا يقدّم فيها هو اللّبن مضافًا إليه شيء أو أشـياء أخرى. لم يكـن مرخصًا لاصحابها بتقديـم المشروبات الرّوحيّة، لكن لم يكن وقتهـا ثمّـة قانـون يمنع اضافـة المواد التـي اعتـادوا أن يضيفوها إلى اللبـن العتيـد، والتي كانت كفيلة بأن تسـلبك الرّشـد وتطيّر عقلك في أجـواز الفضـاء، أو كأنّك كنت تشرب لبنًـا امتزجت به حدّة النّار

الحامية ووخز السّكاكين المشحوذة كنّا نقول، والنتيجة هي الهاب حواسك واعدادك للإقدام على كل القبائح التي يجترئ عليها المراهقون والمنحرفون. وذلك هو ما شربناه في ليلتنا هذه التي أبدأ بها سرد قصّتي. كانت جيوبنا عامرة بالنّقود، وهكذا لم تكن بنا حاجة ماسّة - من وجهة نظري توفير المزيد منها - إلى مهاجمة أحد المسنّين العجائز في إحدى الحواري الجانبيّة ورؤيته وهو يسبح في دمائه بينما نتقاسم حصيلة الغنيمة بين اربعتنا، ولا إلى الاغارة على واحدة من ذوات الشّعر الرّمادي الميسورات في محلّها والقاء الرعب في قلبها ثم الانصراف بالاسلاب ضاحكين مهلّلين. ومع ذلك، فإنّ النّقود كما يقولون ليست دائما هي كل شيء. كنّا نحن الاربعة نلبس قمة «الموضة»، وكانت في تلك الأيّام عبارة عن بنطال أسود شديد الضّيق، وسترة بلا طيّات ولكن بأكتاف اصطناعيّة ضخمة، وربطات عنق بيضاء عليها رسوم بارزة وكان شعر رؤوسنا مرسلاً الى حدٍّ ما، وأحذيتنا مصمّمة للرّكل الأليم، فماذا سيكون إذن، يا ترى؟ كان ثمّة ثلاث نسوة جالسات إلى المقصف جنبًا إلى جنب، لكنّنا كنّا أربعة فتيان نعمل بقاعدة «الواحد للكل أو الكل للواحد». وكانت النّسوة الثّلاث مرتديات قمّة «الموضة» أيضًا، علت رؤوسهنّ «باروكات» ورديّة وبرتقاليّة وخضراء، لا يقل ثمن كلٍّ منها عن ثلاثة أو اربعة أمثال أجر كل منهنّ الاسبوعي، فيما يصل إليه تقديري، وقد صبغْن وجوههنّ بألوان قوس قزح، وشفاههنّ

بالأحمر القاني، وكانت الفساتين سوداء طويلة مرسلة، وفوق موضع النهود رقت بطاقات مفضضة صغيرة بأسماء ذكور من أمثال (جو) و (مايك)، والمظنّون أنّها أسماء أصحاب لهنّ منذ عهد الصّبا. وقد راحت الّنسوة الثلاث يرمقننا بأعينهنّ حينًا، حتّى بدا لي لحظة أن نصحبهن إلى الخارج لشيء من المعاتبة، تاركين «ديم» القبيح وحده، لما عهد فيه من الفظاظة والعنف في استخدام اليدين والقدمين، غير أنني عدلت عن هذا الخاطر. وكان المخلوق الجالس إلى جانبي فوق الأريكة الوثيرة الممتدة بطول ثلاثة جدران غائبًا في عالم آخر وهو يهذي بكلام غير مترابط ولا مفهوم وكنت خبيرًا بهذه الحال بعد أن جرّبتها من قبل مثل أيّ أحد، ويا لها من حال أيها الأخوة! فإنك تقبع في مكانك بعد أن تشرب اللبن النّاري العتيق، وإذا أنت تشعر وكأنّ كل ما يحيط بك هو من الماضي السّحيق. أنت تبصر كل ما حولك بلا مراء: الموائد، والاضواء، وجهاز «الاستيريو»، والغواني، والفتيان، لكنّ هذه الرّؤية تبدو لك وكأنّها ليست من عالم الواقع وتراك قد سمرت نظراتك باستهواء مغناطيسي في حذائك أو ظفر إصبعك أو نحو ذلك، وتشعر في الوقت نفسه كأنّ قبضة تمسك بقفاك وتهزك هزًّا متواصلاً حتّى لا يبقى منك شيء، وجسمك، فقد فقدت اسمك، وجسمك، وذاتك، وغدوت لا تحفل بشيء ومع ذلك تظل تنتظر وتنتظر الى أن يصفرّ لون حذائك أو ظفر إصبعك ويزيد اصفرارًا طوال الوقت تأخذ الاضواء تتشقّق وتنشطر انشطار الذرة، وإذا

الحـذاء أو ظفـر الإصبع يكـبر، ويتضخّم، ويتمدّد، حتّـى يملأ فراغ الكون، وتخال أنّك على باب الاخرة، ثم لا تلبث أن ترتد إلى مكانك باكيًـا منتحبًـا، فليس من الصّواب أن تعجـل بنهايتك وتفارق دنياك على هذه الصورة. فماذا سيكون أذن يا ترى؟ كان (الاستيريو) يصدر صوتًـا، ويخيّـل إليك أنّ صوت المغنّي يتحـرّك من موضع الى آخر في البـار، محلّقًا حتّى السّـقف ثم هابطًا مرّة أخـرى من جدار إلى جدار. كانت اسطوانة للمغنّي «برتي لاسكي»، ورأيت إحدى النسوة الثّلاث الجالسات إلى المقصف تدفع بطنها إلى الخارج ثم تردها إلى الخلف مع صلصلة الموسـيقى، وشعرت الآن أنّ (السـكاكين) الممزوجة باللبن بـدأت وخزاتهـا، وأنّنـي الآن على اسـتعداد لبـدء المغامـرة، وهكذا أخذت أردد مثل الكلب ينبح «إلى الخارج، إلى الخارج، إلى الخارج». وعلى الأثر وكزت الجالس إلى جانبي غائبًا في عالمه وماضيًا في هذيانه وكزة شديدة على أذنه لم يشعر بها ومضى في الهذيان، ولكن ما إن يفيق ويعود إلى وعيه حتّى يشعر بألم الوكزة.

- وقال «جورجي» ردًّا على ندائي «إلى الخارج، أين؟

- فقلـت لـه «آه! فقط لمجرد المشي، وسـنرى يا إخـواني، ماذا يجد أمامنا؟

وهكذا تقاطرنا إلى الخارج فرادى في ظلمة اللّيلة الشّتويّة، ومشينا وقتًـا في «بوليفار مارجانيتـا» وانعطفنا منه إلى «بوثبـي أفينو» وهناك وجدنـا مـا كنّا واثقين من وجوده، أعني دعابة تسـتفتح بها السّـهرة.

كان أمامنا شخص مسن عليه مسحة ناظر مدرسة محترم يلبس نظارة وقد تأبّط بعض الكتب ومظلّة وسـار فاتحًا فمه في هواء اللّيل البارد، وبـدا أنّـه قادم مـن ناحية المكتبـة العامّـة القريبة. وفي تلـك الأيّام ما كنـت تلتقي بكثيرين من طراز أواسـط الناس سـائرين في الطّرقات بعد حلول الظّلام، فما بالك مع تناقص أفراد الشّرطة وانتشارنا نحن الفتيان إلا مائل هنا وهناك؟ وكان هذا الاستاذ النّموذجي هو الوحيد الذي يسير في الشّارع كلّه فاقتربنا منه، بكلّ أدب، وقلت له «عفواً يا أخ»! بدا عليه شيء من الوجل حين أبصر قدومنا نحن الاربعة نحوه هادئين مؤدّبين مبتسـمين، غير أنّه بلهجة مدرّس عالية النبرة، وكأنّما يحاول أن يبيّن لنا أنّه غير وجل ولا هيّاب «نعم، ماذا هناك»؟ فتولّيت الـرّد قائـلاً «أرى أنك تحمل كتبًا تحت إبطك يـا أخ وهذا شيء مبهج نادر حقيقة يا أخي أن يصادف الإنسـان شـخصًا لايزال يقرأ»!فقال وقد اهتزّ تمامًا «آه!.. أحقاً؟ آه!.. فهمت».

وراح ينقـل نظراتـه بيننا نحـن الاربعة بعد أن وجد نفسـه مطوقًا بمربع بشري يغالي في الابتسام والتأدّب.

– قلت له «نعم يهمّني، أعظم الاهتمام يا أخ أن تتكرّم وتسـمح لي برؤيـة نوعيّة هـذه الكتب التي تحت إبطك، فليـس أحب إليّ في هذه الدّنيا من رؤية كتاب جيّد نظيف».

– فقال الرّجل: «نظيف!..نظيف!..إيه؟! وعندئذ بعثر بيتر الكتب الثلاثة ووزّعها علينا بسرعة، فأخذ كل منّا كتابًا يفحصه باستثناء ديم

وكان الكتاب الذي وقع في يدي بعنوان «مبادئ علم البلوريات» فتحت الكتاب وقلت وأنا أقلب الصفحات «بديع! نوعيّة ممتازة فعلاً!» وفجأة تغيّرت لهجتي وقلت بلهجة المصدوم «لكن ما هذا لذي أراه هنا؟! ما هذه الكلمات القذرة؟! إن وجهي يحمرّ خجلاً من هذه الكلمات! لقد خيّبت ظنّي فيك يا أستاذ، خيّبت ظنّي فعلاً!»

– فحاول أن يقول «لكن.. لكن.. لكن!»

– وقال جورجي بدوره وكان الكتاب الذي معه بعنوان «معجزة الرقائق الثلجية» «وهنا! هذا ما لا بدّ أن أصفه بأنّه قذارة حقيقية، أرى كلمة تبدأ بحرف فاء وكلمة أخرى تبدأ بحرف سين!»

– وقال ديم الذي انضمّ إلى بيتر ووقف ينظر من فوق منكبيه وقد تمادى كثيرًا كعادته «آه! هنا وصف لما فعله معها، وصورة أيضاً. ماذا؟! ما أنت إلا عجوز فاجر ملوث!»

– وعدت أنا أقول «رجل عجوز مثلك يفعل هذا؟!»

– وأخذت أمزّق صفحات الكتاب الذي معي وأخذ كلّ منهم يفعل بالمثل بالكتب التي بين أيديهم، عندئذ راح الأستاذ يصيح قائلاً «لكن هذه الكتب ليست لي، هي ملك مكتبة البلدية. هذا منتهى الاستهتار والهمجيّة!» وأخذ يحاول انتزاع الكتب منّا وهو يقول بلهجة مؤثّرة «كفّوا عن هذا العمل الاجرامي! أريد الكتب!»

– فقلت له «أنت تستحقّ أن نلقّنك درسًا يا أخ، هذا ما تستحقّه

فعلاً!» وكان كتاب «البلوريات» الذي معي مجلدًا تجليدًا سميكًا ويصعب تمزيقه، إذ كان من الكتب النّفيسة التي أعدت في الأيّام الخوالي حينما كان يراد لمثلها أن تبقى طويلا، غير أنني بدأتُ أنتزع الصّفحات وألقيها في الهواء مثل رقائق الثلوج، مطوحًا بها على وجه العجوز المحتج الصّارخ. وما لبث الرّفاق الاخرون أن حذوا حذوي بالكتب التي معهم، فيما راح ديم يتراقص كالبهلوان من حولنا وهو ما كان طبعه.

– وقال بيتر أخيرًا «هذه كتبك، أجمعها وامضغها أيّها القارئ القذر لكتب السّفالة والانحطاط».

– وقلت أنا «أيها العجوز القبيح الوغد!» ثم أحكمنا حوله الحصار وبدأنا نعبث به شخصيًّا، فأمسك بيتر بيديه، وتولى جورجي فتح فمه بالقوّة على سعته، وعمد ديم إلى انتزاع أسنانه الصّناعيّة العليا والسّفلى وألقى بها على الأرض، حيث أخذت أدوسها بقدمي لتهشيمها، وإن كانت – لعنة الله عليها – مصنوعة من مادّة بلاستيكية متينة، فانبعثت من العجوز تأوّهات كالفحيح صدرت من حلقه، وعلى الأثر تخلى جورجي عن الفم الفارغ (الخالي) وعاجله بضربة من قبضته المطعّمة بالحديد سرعان ما أسالت الدم من اللثّتين قانيًا جميلاً يا إخواني. وبعدها لم يكن أمامنا سوى أن نجرّده من ملابسه الخارجيّة حتى ظهرت سراويله الطويلة التي بدت غالية الثّمن، وجعل ديم ينظر إليه بجشع، وأخيرًا رفسه بيتر في بطنه، ثم أطلقنا

سراحـه، فأسرع يبتعد مترنّحًا، متطارحًا، متأوّهًا، وهو لا يدري ماذا دهاه ولا أي طريق يسلك.

أمّا نحن فانشـغلنا بتفتيـش جيوبه، وأخذ ديـم يرقص من حولنا مسـتعينًا بالمظلة، بيـد أنّ الجيوب لم تكن عامرة بنقـود تذكر، وكانت بها رسـائل عدّة يرجع تاريخ بعضها الى عام 1960، مصدرة بعبارات تقول «يا أعزّ أعزّائي وأحبّ أحبّابي»، إلى جانب سلسلة مفاتيح وقلم يتسرّب حبره، ولم يلبث ديم أن كـفّ عن الرّقص وأخذ يقرأ إحدى الرّسائل بصوت مرتفع وكأنّما يريد أن يخبر الشّارع الخالي أنّه يستطيع القـراءة «حبيبتـي الغالية، لن أتوقّف عن التّفكـير بك طوال غيابك، وأرجو أن تتذكري تدفئة نفسك بالملابس الكافية كلما خرجت ليلاً». ثم قهقه عاليًا لكي يداري عنّا جهله وتخبّطه.

– وفي النّهايـة قلـت لهم «ارموها يا إخواني». كانـت نقودًا زهيدة بالمقارنـة بـما كان في جيوبنـا فعـلاً، وهكـذا طوحناهـا في الهـواء، ثم حطّمنـا المظلّـة ومزّقنا الملابـس وقذفنا بها في مهـبّ الرّياح، وانتهت بذلـك مغامرتنـا مـع الاسـتاذ العجـوز الفاضل والمبجـل. وأعترف أنّنـا لم نقم بعمل يذكر، ولكنها كانت فاتحـة متواضعة لمغامرات هذه الليلـة، ولم أقصـد بسردها عليكـم مفاخرة ولا تباهيًـا، ولكن تقريرًا للواقـع بأمانة. كان مفعول اللبن المحمي بوخز السـكاكين قد بدأت تخـف حدّته، وتعين علينا أن نقوم بعمل لائق بعد تخفيف جيوبنا من نقودهـا الكثيرة بشراء مشروبات ناريّة أخـرى تكون حافزًا على هذا

العمل، مثل اغتصاب محل ونهب محتوياته، ولتكون جولة الشّراب الثّانية ستارًا يثبت وجودنا بعيدًاعن مسرح الحادث. هكذا دلفنا إلى حانةدوق نيويورك في «أميسس أفينو» وفيها وجدنا ما ننشده في أشخاص ثلاثة أو أربع عجائز يشربن الجرعة الرّخيصة على حساب المعونة الحكوميّة، وها نحن الآن أولئك الفتيان الطيّبون المهذّبون الذين يوزعون بأحلى الابتسام تحيّة المساء على الحضور بالعدل والقسطاس، ذلك وإن سرى الخوف في قلوب أولئك العجائز المخضنات حتى لقد أخذت أيديهن المعروقة ترتعد بالكؤوس وتريق الشراب على المائدة، حتى قالت كبراهنّ «نحن لسنا أكثر من عجائز مسكينا، بيد أنّنا بالغنا في الابتسام وجلسنا ودققنا الجرس وانتظرنا قدوم (الجرسون) وعندما قدم وهو بادي العصبية مدلكًا يديه في مريلته الدهنية، طلبنا لأنفسنا اربعة كؤوس مقواة، وهي مزيج من الروم والبراندي والشيري وكانت شائعة في ذلك العهد».

– قلت للفتى «قدم لهؤلاء العجائز المسكينات هناك شيئًا مغذيًا: شراب (سكونشمان) كبيرًا وشيئًا يأخذونه معهنّ». وشفعت هذا بإخراج كل ما معي من نقود ووضعتها فوق المائدة، وفعل زملائي الآخرون مثل ما فعلت، وهكذا ذهب الروع من العجائز حتّى لم يدرين ماذا يقلن أو يفعلن، ثم فتح على إحداهنّ وقالت «شكرًا أيها الفتيان»، ذلك وإن خامرهن الشّك بأن هذا ما هو إلا مقدمة لشيء يرأب! وعلى أيّ حال فقد أعطيت كل واحدة منهن زجاجة

مـن كونيـاك (يانك جنرال) لكي يأخذنها معهـن، تركت لدى عامل المقصـف نقـودًا لإعطائهن المـشروب في صباح اليوم التّـالي، على أن يتركـن لديه عناوينهن. وأخيرًا اشـترينا بما تبقّى من نقودنا كل فطائر اللّحم والبسـكويت المملح وشـطائر الجبن والشوكولاتة التي كانت موجـودة في المـشرب، وطلبنا توزيع كل هذا عـلى العجائز وقلنا لهن بعد ذلك «سنخرج ونعود بعد دقيقة».

- فأخـذت العجائز يلهجـن بالثّناء قائلات «شـكرًا أيها الفتيان! بارك الله بكم»!

وأسرعنا بالخروج دون أن يبقى معنا بنس واحد، وقال بيتر معقبًا «هذا يجعلنا نشعر بأننا من أهل الخير والاحسان فعلا»!

وبـدا لنـا أن ديـم - المتبلـد الفهـم - لم يكـد يـدرك مدلـول هذه العمليّـة الخيريّـة، غـير أنّـه لم يقل شـيئًا خوفًا مـن أن نتّهمـه بالغباء. ومهـما يكـن فقـد انعطفنـا على الأثـر إلى (آتـلي أفينو) حيـث لاح لنا ذلـك المحل الخاص ببيع الحلوى والسّـجائر لايزال مفتوحًا والواقع أنّنـا كنّا تركنا هذه المنطقة وشـأنها قرابة الأشـهر الثلاثة الماضية حتى ظلـت تنعم بالهـدوء عمومًا ولم تعد دوريّات الشّرطة المسـلّحة تتردد عليهـا كثيرًا، مركّزة نشـاطها في المناطـق الواقعة شـمال النّهر. والآن فقـد أخرجنـا أقنعتنا المطاطيّـة ولبسـناها، وكانت ملامحنـا على هيئة شـخصيات تاريخية (فقد زودونا بأسـمائها عند شرائها) فكان قناعي يمثل «دزرائيلي»، وقناع بيتر يمثل «ألفيس بريسـلي»، وقناع جورجي

يمثل الملك «هنري الثامن»، أمّا ديم المنكود فكان من نصيبه قناع لوجه الشاعر «شيلي».. وكانت الاقنعة مصنوعة من مادة بلاستيكية خاصة بحيث يسهل طيّها بعد انتهاء الغرض منها واخفاءها في الاحذية. عندئذ دخلنا إلى المحل وبقي بيتر في الخارج للرصد، وإن لم يكن ثمة ما يدعو للقلق. وما إن اقتحمنا المحل حتى تقدمنا مباشرة نحو صاحبه «سلوس»، وكان رجلاً ضخمًا كالبرميل أدرك في الحال ما سيحدث وأسرع إلى الدّاخل حيث يوجد الهاتف وربّما أيضًا مسدّسه المعد دائمًا بدوراته السّت المهلكة، غير أن ديم أسرع كالطّير بالالتفاف حول (الكاونتر)، مرسلاً علب السجائر كالقذائف ترتطم بإعلان من الورق المقوى المتين لفتاة ناصعة الأسنان مدلاة النّهود للدّعاية لنوع جديد من السّجائر فتتناثر في الهواء والذي كانت تقع عليه العين بعد ذلك هو شيء مثل كرة ضخمة تتدحرج داخل المحل خلف السّتار، ولم تكن سوى ديم العتيد وسلوس مشتبكين في صراع مميت. وكنت تسمع لهما فحيح أصوات تلهث وتدمدم من خلف الستار مقترنة بركل الاقدام، ثم سقوط أشياء ويحطم زجاج يتهاوى تهشيمًا. أما زوجة «سلوس» فقد وقفت جامدة مسمرة خلف (الكاونتر)، وأدركنا أنّها توشك على الصّراخ والاستنجاد إذا تُركت لها الفرصة، وهكذا بادرتُ بالالتفاف حول (الكاونتر) وأمسكت بها حيث كانت في مثل بدانة زوجها وامتلائه، يفوح عطرها ويبرز نهداها، وأسرعت بوضع يدي على فمها لمنعها من الصّراخ المدوّي

الـذي لو ترك فيه العنان لها لبلغ مشـارف السـماء. لكنّ هذه السّـيّدة المسـعورة أنشـبت أنيابهـا في يـدي بعضـة جعلتنـي أنا الـذي اصرخ مسـتجيرًا ثم شـفعت هذا بصيحة رنّانة متجاوبة تستنجد بالبوليس. لا بـأس! مـاذا كان يمكن أن أفعـل لحظتها سـوى أن أقذفها بإحدى صنج الميزان، مشـفوعة بلطمة من قضيب معدني لفتح الصّناديق، مما أسـال دمها فتغلبنا عليها وطرحناها أرضًا، ثم شققنا ملابسها تفكها ومعابثـة، مع ركلة قدم خفيفة لإسـكات تأوّهاتها. ولّما رأيتها ممدودة أمامي هكذا لعب الشّـيطان بعواطفـي، ولكنني آثرت أن أرجئ هذا إلى الاحـداث التّاليـة في السّـهرة الحافلة، وبعد هـذا نظّفنا المحل من حصيلته النّقدية وكانت وفيرة هذه الليلة، وعزّزناها بمجموعة لكل منا من أفخر أنواع السجائر، ثم انسحبنا يا إخواني على الأثر.

ولكن ديم استـمرّ يكرّر قوله سـاخطًا «كان ابـن الملعونة هذا من الوزن الثقيل»!

والواقع أنني لم استرح إلى مشهد ديم بعد المغامرة، فقد بدا متّسخًا ومشـعثًا، مثل حيوان كان في معركـة، وهو ما كانه فعلاً، ولكن يجب ألا نبـدو بالطّبع هكذا. كانت ربطة عنقه مثنية كأنّها داسـتها الاقدام، وكان قناعـه منزوعًا ووجهه معفرًا بأتربـة الأرض فأخذناه إلى حارة جانبية وبللنا مناديلنا باللعاب وأزلنا اتسـاخ وجهه، يا لهذه الخدمات التي كنا نقدمها لديم! وعدنا إلى بار دوق نيويورك مسرعين، وقدرت بنظـرة إلى سـاعتي أننا لم نغـب أكثر من عشر دقائـق وكانت العجائز

لا زلن جالسات يتناولن المشروبات التي أمرنا بها لهن، وبادرناهن بالسّلام والسّؤال عن الحال، فكان ردهنّ التقليدي هو «أنتم أهل كرم أيها الفتيان، بارك الله بكم»! دققنا الجرس فجاء (جرسون) آخر هذه المرة وطلبنا منه أكواب بيرة ممزوجة بالروم نظرًا لشدة عطشنا يا إخواني، وكذلك كل ما تطلبه العجائزثم خاطبتهن قائلاً «إننا لم نغب عن هنا، أليس كذلك؟ كنا معكم طوال الوقت، أليس كذلك؟ فجاء ردهن سريعًا وقلن «هذا صحيح أيّها الفتيان، أنتم لم تغيبوا عن أنظارنا بتاتًا، بارك الله بكم أيها الفتيان»! ذلك وإن كان هذا التأكيد لا يهمّنا كثيرًا. ثم انقضى نحو نصف ساعة قبلما ظهرت أي اشارة من ناحية رجال الشّرطة، ولم يكن القادمون أكثر من شرطيين اثنين في مطلع الشّباب دخلا ووجه كل منهما يبدو شديد الحمرة تحت خوذتيهما النحاسيتين وقال أحدهما:

أنتم يا جماعة «هل سمعتم أي شيء عن الحوادث التي وقعت في محل «سلوس» هذه الليلة؟»

- فقلت ببراءة «نحن؟!.. عجبًا!.. وماذا حدث؟»

- فردّ الشّرطيّ الفتى قائلاً «حادث سرقة وعنف وحالتان نقلتا الى المستشفى. أين كنتم مع مجموعتكم هذه الليلة؟»

- فأجبّت قائلاً «أنا لا اقبل هذه اللّهجة الشاذّة المنكرة! ولا أهتم كثيرًا بهذه الّتلميحات الكريهة، كلامكم يدلّ على اسراف في سوء الظّن!

وهنـا بادرَتِ العجائز برفع عقيرتهن صائحـات «إنّهم كانوا معنا طـوال الليلـة يـا فتيان، بـارك الله بهم. لم نر في الشّـبان خـيرًا منهم في الطيبـة والكرم، كانوا معنا فعـلاً طوال الوقت ولم يتحرك أحدًا منهم شبرًا واحدًا».

فقـال الشّرطـي الآخر «كنّا نسـتفهم فقط، علينـا واجب نقوم به مثل أي إنسان آخر».

غـير أنهما صوّبا إلينا نظرات تحذيريّـة قبيحة قبل انصرافهما، ومع ذلك شـيعناهما بموسـيقى الشّـفاه وهما خارجان. أمّا أنا فلم أتمالك من الشّـعور بشيء مـن الاحباط لسرّ الامور في هـذه الأيّام، فلم يجد شيء يمكن أن نسـتميت من أجله ومع ذلك فقد كانت الليلة لاتزال ممتدة أمامنا.

الفصل الثاني

عندما خرجنا من بار دوق نيويورك وقع نظرنا على شخص مخمور وقف لدى الحائط في مجال الضّوء المنبعث من نافذة المشرب الكبيرة وهو في حالة يرثى لها من السّكر ورفع العقيرة بالغناء الصّاخب المشوب بالسبّاب والتّجشّؤ المقزز. كان ثمة شيء واحد لا أطيق احتماله، وهو أن أبصر رجلاً متقدمًا في السّن يتمرّغ في السّكر والقذارة، خصوصًا إذا كان مظهره يدلّ على منزلة اجتماعيّة متوسّطة مثل هذا الرجل، فقد كان ملتصقًا بالحائط وملابسه في شرٍّ حال من التّشعث والتبقع والتلطخ بالاقذار والوحل، فأمسكنا بتلابيبه وأتحفناه بمجموعة طيبة من اللكمات واللطمات، ولكنه مضى في غنائه مرددًا هذه الكلمات «وسوف أعود إلى حبيبتي يا محبوبتي إذًا حبيبتي هجرتني يومًا من الأيّام».

غير أنه عندما لطمه ديم مرّات على فمه المخمور كفّ عن الغناء وانقلب إلى الصّياح قائلاً «استمروا!.. اضربوني يا أولاد الزنا ياجبناء! لا أريد أن أعيش بأيّ حال في هذه الدّنيا العفنة».

وعندئـذ طلبت من ديم أن يكـفّ عن لطماته، إذ كان يثير طرافتي أحيانًا أن أستمع إلى ما يقوله بعض هؤلاء السّادة المعوجين عن الحياة ومن الدنيا، وقلت له «وما هو وجه العيب في هذه الدنيا؟»

فهتـف قائلاً «هي دنيا عفنة لأنّها تسـمح للأصغر سـنًّا بالتّطاول على الأكبر سنًّا كما فعلتم، ولم يعد هناك قانون ولا نظام ولا شيء من هذا القبيل».

وكان التّجشّـؤ المتواصل يقطع عليه الاسترسـال على هذا النّحو ثـم علا صياحـه فجأةً قائـلاً وهو يلـوح بذراعيه « لم تبـق الدنيا هي الدنيـا لمـن هو مسـن، ومعنى هـذا أنّنـي لا أخافكم قـدر قلامة ظفر أيّها الأولاد المناكيد، لأنّني بلغت من السّـكر حدًّا لا أشعر معه بالألم إذا ضربتمـوني، وإذا قتلتمـوني سـأكون مـسرورًا إذا جـاء موتي على أيديكم».

لقد تبادلنا الابتسام والغمز، وما لبث أن استرسل في صياحه قائلاً «ثـم أي دنيا هي هذه الدنيا! رجال فيها يصعدون إلى القمر، ورجال يـدورون حـول الأرض وكأنّهم ذباب ضئيل حـول مصباح، وليس هناك اهتمام بالقوانين التي تحكم الأرض وتقرّ النظام، والنتيجة أنّكم تفعلون أسوأ ما عندكم، يا قطاع الطّرق الجبناء الأوساخ».

وبعدهـا أسـمعنا موسـيقى الشـفتين كـم فعلنا نحـن للشرطين الفتيـين في المـشرب.. ومرة أخرى بـدأ يتغنّى بهذا الـكلام «يا وطني

العزيـز المحبوب قـد حاربت من أجلك ومهدت لك طريق السـلام والنّصر».

وفي النّهاية أشـبعناه ضربًا ووجوهنا طافحة بالابتسـام، بيد أنه لم ينقطع عن الغناء، فأعطيناه (مقصًّا) حتّى هوى على الأرض منبطحًا يتدفـق من فيه سـيل مـن الجعة حتّـى أثار تقززنـا، فعاجلناه برفسـة قـدم مـن كل واحـد منـا، وبعدها لم يخـرج من فمـه القـذر غناء ولا قـيء، بل دم نازف. ثـم تابعنا طريقنا غير عابئين بشيء وعلى مسـافة قليلـة من محطّـة المولّـد الكهربائـي التقينـا بالفتى»بيليبـوي» وأفراد عصابته الخمسـة. ففي تلـك الأيّام، يا إخواني، كانـت الزّمرة تتألّف عـلى الأكثـر مـن اربعة أو خمسـة أفراد، وهـي تماثل في هـذا جماعات اسـتيقاف السيارات العابرة للركوب، التي تبلغ أربعة أفراد في المعتاد للجماعـة الواحدة، وكان العدد سـتة أفراد هو الحـد الأقصى وأحيانًا كانـت العصابات تتألف من هذا العـدد الأقصى إذا أريد أن تخرج في حروبهـا الليلية، وإن كانت تفضـل أن يكون التّجـوال الليلي بأعداد صغيرة. والحق أن «بيليبوي» هـذا كان بطبيعته يصيبني بالغثيان كلّما أبصرت وجهه السّـمين المنفرج الفم، وشـممت رائحته الزنخة التي تشـبه رائحة زيت القـلي المغلي مرّات ومرّات، حتّـى وإن كان مرتديًا أحسـن ملابسـه كما كان الآن. وهم قد شـاهدونا كما شـاهدناهم في الوقت نفسـه، وبـدا كأن كل فريق يراقب الآخر بهـدوء مؤقت فإنّها في الحقيقة لن تكون معركة بالأيدي والأرجل، بالمطاوي والأسـلحة البيضـاء الأخرى، مثل (قـرن الغزال) الذي أحمله عـلى الدّوام، وقد

توقف «بيليبوي» ورفاقه عمّا كانوا بسبيله، وهو التمهيد لشيء مع صبية باكية بين أيديهم لا يتجاوز سنها عشر سنوات، وكانت تصرخ وتستغيث، ولكن كانت لاتزال بملابسها وقد أمسك «بيليبوي» بإحدى يديها وأمسك مساعده الأول «ليو» بيدها الثانية. ولما رأونا قادمين تركوا هذه الصّبية الصّغيرة لعلمهم أنّه يوجد الكثير غيرها في المنطقة السكنيّة القريبة، فركضت الصّبيّة مبتعدة وساقاها النحيلتان البيضاوان تبرقان في الظّلام مرددة تأوهاتها، وعندئذ قلت وأنا أبتسم ابتسامة عريضة متودّدة «أهذا «بيليبوي» النتن؟!» كيف حالك أيّها البرميل المنتفخ بزيت القلي الرّخيص الزنخ؟ تقدّم وخذ لك ضربة في سوأتك أيها المخنث!» وعلى الأثر بدأنا المعركة، كنّا اربعة وهم ستّة كما نوّهت من قبل، غير أنّ ديم العتيد كان رغم كل غبائه ندًا لثلاثة منهم في الاندفاع المجنون والقتال الوحشي، فقد كان يحمل سلسلة طويلة سميكة ملتفة حول وسطه قدر لفّتين، وقد سارع يطوحها في عيون الآخرين. وكان بيتر وجورجي مزوّدين بمطواتين كبيرتين حادّتين، أمّا أنا فكنت مسلحًا (بقرن غزال) وهي مطواة مقوّسة مرهفة باترة، كنت ألوح بها بطريقة فنيّة تجعل لها بريقًا خاطفًا يزيغ الابصار، ثم رحنا نتبادل الضّرب والطّعن في الظّلام وقد بدأ القمر بما عليه من رجال يبزغ إذ ذاك، والنّجوم تلمع كما لو كانت نصالاً تريد الاشتراك في المعمعة. وقد استطعت بمطواتي أن أشقّ ملابس أحد رفاق «بيليبوي» شقًّا طوليًّا بديعًا دون أن ألامس بدنه تحت الملابس وأثناء الكرّ والفرّ ألفى هذا الفتى نفسه عاري البطن والسّوأة مثل

حبّة بازلاء انشقّ عنها غلافها، وفي غمرة ارتباكه وصراخه التفّت حول عينيه سلسلة ديم الافعوانيّة فزادته تخبّطًا وصراخًا وسرعان ما جعلنا مساعد «بيليبوي» رقم واحد منطرحًا على الأرض تحت الاقدام وقد أعمت بصره سلسلة ديم الذّريعة وجعلته يزحف على الأرض عاويًا مثل حيوان طريد، وبعد رفسة واحدة على رأسه غاب عن الوجود. ومن مجموعتنا الرّباعيّة خرج ديم من المعركة كالعادة وهو أسوأنا مشهدًا، أعني أن وجهه قد تخضّب بالدّم وملابسه اتّسخت وتشعثت بصورة بالغة، أمّا باقي زمرتنا فقد ظلّت متمالكة الجأش لم يمسها سوء، لكن كان هدفي الآن هو «بيليبوي» السمين العفن، وهكذا رحت أدور حوله بمطواتي الفتّاكة متراقصًا مراوغًا حتّى لكأني حلاق على ظهر سفينة في بحر متلاطم، محاولاً أن أنال منه بقطوع نافذة على وجهه الدّهني المليء. وكان «بيليبوي» مسلحًا أيضًا بمطواة طويلة، بيد أن بطء حركاته وثقل وزنه حالاً دون أن ينال منّي شيئًا، وهنا كانت بهجتي لا حدَّ لها عندما شققت خديه واحدًا تلو الآخر بحركات خاطفة أسالت دمه على الجانبين، وإن بدا أنّه لم يشعر بشيء ومضى في هجومه نحوي بحركات دبٍّ ثقيلٍ. في هذه اللحظات سمعنا سيّارة الشّرطة تلعلع في السّكون، وشاهدنا رؤوس أفراد القوّة تطلّ من النّوافذ وهم على تمام الاستعداد. ولا شكّ أنّ تلك الصّبيّة الباكية قد استنجدت بهم عن طريق الهاتف العمومي القائم خلف محطّة توليد الكهرباء، وهنا قلت لغريمي «سوف أنالك قريبًا يا بيليبوى النتن، وعندها سأستأصل سوأتك.

وسرعان ما أخذوا يركضون هاربين، إلا مساعد بيليبوى رقم واحد وهو ليو الذي كان ممدّدًا على الأرض غائبًا عن الوعي، متّجهين شمالاً شطر النّهر. أمّا نحن فقد سلكنا الجهة العكسيّة وبالالتفاف حول النّاصية وجدنا حارة مظلمة وخالية ومفتوحة من النّاحيتين، فتوقّفنا فيها لكي نستريح ونحن نلهث إلى أن تمالكنا والتقطنا أنفاسنا، كانت هذه المنطقة محطّة استقبال البث التّلفزيوني بالقمر الصّناعي كما بدا من الأضواء الزّرقاء التي كانت تبرق فيما بين مباني المحطّة الأرضيّة، ومعنى هذا يا إخواني أنّهم كانوا يبثّون هذه الليلة نفس البرنامج العالمي إمّا لمغنّي زنجي أو شخصيّة كوميديّة مشهورة لكي يستمتع بالارسال كل من تحلو له المشاهدة من أبناء الطّبقات القادرة يا إخواني، ولله في خلقه شؤون ومهما يكن فقد توقّفنا ها هنا نلهث، وانتظرنا إلى أن سمعنا أصوات السّيّارة البوليسيّة تتجه شرقًا ولكن ديم المنكود ما برح يتطلّع إلى القمر والنّجوم والكواكب فارغ الفم مثل طفل لم يتهيّأ له أن يشهد شيئًا كهذا من قبل، حتّى لقد قال «ترى، ماذا في تلك الأجرام السماوية في الاعالي؟!»فوكزته بشدّة

قائلاً «هيّا بنا يا أغبى الأغبياء، ولا تشغل بالك بهذا! لابدّ أنّ فيها حياة مثل حياتنا على الأرض، وكائنات تتقاتل بالمطاوي مثلنا أيضا، أما الآن ومازال الليل ممتدًا أمامنا، فلنواصل طريقنا أيها الإخوان».

ابتسم الرّفاق لهذا الكلام، بيد أن ديم نظر إليّ بجد، ثم عاد يتطلع إلى النجوم والقمر ومهما يكن فقد اتّجهنا إلى نهاية الحارة

وضوء البثّ العالمي الأزرق يتراءى عن الجانبين. إنّ ما كنّا نحتاجه الآن هو سيّارة، وهكذا انعطفنا يسارًا بعد اجتياز الحارة، حيث عرفنا في الحال أنّنا في ميدان بريستلي بعد أن وقعت أنظارنا على التّمثال البرونزي الضّخم لذلك الشّاعر الذي رفع شفته العليا كقر وانغرس غليون في فمه العتيق، وبعد مسيرة قليلة شمالاً وصلنا إلى موقع السّينما المكشوفة الضّخمة التي بدأت تتقادم وتتآكل لقلّة من يرتادونها سوى أمثالي ورفاقي في بعض المناوشات أو المطارحات الغراميّة في الظّلام. وشاهدنا على اللّوحة الاعلانيّة القائمة أمام الواجهة والملوّثة بالبقع اعلانات عن افلام رعاة البقر المعتادة التي ينتصر فيها أفراد الأمن الامريكيّون على رجال العصابات إلى آخر هذا الكلام الفارغ... وكانت السّيارات المرابطة في الموقف ليست كلّها جديدة، ولكن بينها سيّارة من طراز (دورانجو 95) أكثر جدّة وبدا لي أنها أكثر ملاءمة لنا. كان مع جورجي مجموعة مفاتيح للطوارئ، وهكذا دلفنا إلى داخل السّيّارة دون عناء، فجلس ديم وبيتر في المقعد الخلفي وهما ينفثان دخّان السّجائر الفاخرة بعظمة، بينما تولّيت أنا ادارة المحرّك، وخرجت بها من الموقف وانطلقنا دون أن يفطن إلينا أحد وأخذنا نتسكّع فيما يُعرف بأطراف المدينة بعض الوقت، ملقين الفزع في قلوب كبار السّن من الجنسين وهم يعبرون الطّريق ومطاردين القطط ونحو ذلك، ثمّ اتّجهنا إلى الجانب الغربي حيث تخفّ حركة المرور وأطلقت العنان للسيارة التي ذهبت

تنهب الطريق نهبًا. وبعد وقت قصير لاحت لنا أشجار الشّتاء والظّلام، وريف مظلم داست السّيّارة في جانب منه كائنًا كشّر عن أنيابه وعلا صراخه في ضوء مصابيح السّيّارة الأماميّة ممّا جعل ديم يضحك مقهقهًا في مقعد السّيّارة الخلفي، وبعدها لمحنا فتى مع فتاته يتطارحان الهوى في ظلّ شجرة، فتوقّفنا برهة نهلّل لهما، ثم استأنفنا مسيرتنا فجأة على قيد شعرات منهما حتّى علا صراخهما، وعلى الأثر تابعنا طريقنا. كان ما نهدف إليه الآن هو القيام بزيارة مباغتة فهذه هي المغامرة الكبرى التي تطلق عليها وصف (قمّة العنف) وقد وصلنا أخيرًا إلى ما بدا أنه قرية وعند أطرافها فيلة صغيرة تقوم أمامها حديقة أصغر، كان القمر قد ارتقى الآن كبد السماء حتّى تهيّأ لنا أن نبصر الفيلة بوضوح وأن أوقف السّيّارة على بعد كافٍ منها ورفاقي يتضاحكون من التّرقّب والتّشوّق، فنزلت من السّيّارة آمرًا رفاقي بالكفّ عن الضّحك والتزام الجد، ثم فتحت بوّابة الحديقة الصّغيرة وتقدّمت إلى الباب الأمامي وبرفق ولطف طرقت الباب، فلم يُجِبْ أحد، فكرّرت الطّرق، وفي هذه المرّة سمعت صوت أحد قادم أعقبه إزاحة مزلاج ثم فتح الباب قدر بوصة أو نحوها، وسمعت صوت أنثى في مقتبل العمر يقول «نعم؟. من هنا؟»

فقلت بلهجةٍ مهذّبة رقيقة «معذرة يا سيّدتي، آسف كل الأسف للإزعاج، لكنّني كنت مع صاحب لي نتمشى، فأصيب بنوبة مفاجئة

وهـو الآن ممـدّد في الطّريـق يتلـوّى مـن الألم معرضًا للمـوت، فهلّا تكرّمت وسمحت باستعمال الهاتف لطلب سيارة اسعاف؟»

فقالـت السّـيّدة «لا يوجد عندنا هاتف بكل أسـف لا بـدّ لك أن تطـرق مكانـًا آخر. ومـن داخل الفيـلا سرى إلى سـمعي صوت آلة كاتبـة تدقّ دقّاتها المعهـودة، ثم توقّف الدق وسـمعت صوت رجل يقول «من القادم عزيزتي؟»

وعندئـذ قلـت للسّـيّدة «هـل تسـمح إنسـانيتك بكـوب مـاء لصاحبـي؟، إنّـه في حالة إغماء من تأثـير النّوبة». بدا كأنّ السّـيّدة في حالة تردّد، ومالبثت أن قالت «انتظر».

ثـم غابت، فهبـط رفاقي الثّلاثة من السّـيّارة ملتزمـين بالصّمت والسّـكون واقتربـوا خفاف الوطء وهم يلبسـون أقنعتهم، فلبسـت قناعـي بالمثل، ومددت يدي المدرّبة لرفع السّلسّـلة التي كانت تشـد البـاب، إذ كانت لهجتي المهذّبة الرّقيقة قد خدعت السّـيّدة فلم تغلق البـاب وهو مـا كان يجب أن تفعله إزاء طارقـي الليل الأغراب. وفي لحظـات خاطفة اقتحمنا البـاب دفعة واحدة وديـم كعادته يتراقص ويتواثـب متفوّهًا بألفاظه النّابيـة، واتّجهنا مباشرة إلى الغرفة المضاءة، حيث وقفت تلك المرأة في شـبه جزع، وكانت مليحة في سنّ الشّباب بـارزة النّهديـن، ومعها ذلـك الرّجل الذي بدا أنّـه زوجها، وكان في مثل سنّها وقد لبس نظّارة ذات إطارعظمي، وفوق منضدة عن كثب آلـة كاتبة وأوراق مكتوبة فرغ من كتابتها توًّا. يظهرإذًا شـخص آخر

متنــور من أربــاب الكتب مثل ذلك الشّــخص الذي تلاعبنــا به منذ ساعات، لكن صاحبنا الحالي كاتب لا قارئ!

ومهــما يكــن فإنّه قــال «ما هــذا؟! من أنتــم؟! كيــف تجرّأتم على دخــول بيتي بغــير اســتئذان؟!»وفي كلامه هــذا كان راعش الصوت مرتعــد اليديــن. وهكذا قلــت له «لا تخف أبــدًا! اذا كان في قلبك أي خــوف يا أخي، فابعده عن خاطرك». وخرج بيتر وجورجي للبحث عــن المطبخ، بينــما توقّف ديم انتظــارًا للأوامر وقد وقــف إلى جانبي منفرج الفم ثم تناولت بعض الاوراق المكتوبة.

وقلــت للرجل «ما هــذا إذن؟» فقــال الرّجل ذو النّظّــارة محتدمًا «هــذا هو ما أريــد أن اعرفه!.. ما هذا، وماذا تريدون؟ اخرجوا حالاً قبل أن ألقي بكم إلى الخارج».

ومــا إن ســمع ديم هــذا الكلام وهو بقناع الشــاعر «شــيلي» حتى ضجّ بالضّحك والقهقهة عاليًا فكان مثل حيوان صاخب.

وقلــت للرّجــل «هــذا كتاب أرى أنّــه نكتة، إنّني كنــت دائمًا أكن الاعجــاب الشّــديد لأولئــك الذيــن يقدرون عــلى تأليــف الكتب». ثــم نظــرت إلى الصّفحة العلويّــة، وقرأت فيها عنــوان الكتاب هكذا «برتقالة بقلب ساعة».

وقلــت «هــذا عنوان جميــل! من ســمع في حياته عــن برتقالة بهذا الوصف؟!»

ثـم أخذت أقـرأ عبارات مـن الكتاب بصوت مسـموع وبلهجة خطابية « إن محاولة أن يفرض على الانسـان - ذلك المخلوق المتنامي القادر على الإجادة والابداع - قوانين وأحوال لا تلائم سوى الكائن الآلي، بقصـد أن تتقاطـر منه العصـارة الحلوة أقول أنني في مواجهة هذه المحاولة لأشهر قلمي سيفًا مشرعًا». فما كان من ديم وهو يسمع هذا إلا أن أرسـل من شفتيه موسـيقاه المعتادة، ولم يكن أمامي إلّا أن أبتسـم وقـد أسرعـت بتمزيـق الأوراق وبعثـرت القصاصـات على الأرض، فجـنّ جنون الرّجل، وهجم نحوي وهو يشـدّ على أسـنانه ويلـوح بأظافـره كالمخالـب حيـث جـاء دور ديم الـذي كان هجوم الرّجل بمثابة اشـارة له، فانقض عليـه يعاجله بلكمات متلاحقة على وجهه يمينًا ويسارًا حتّى تغطّى بالدّم الأحمر القاني، يا إخواني، وأخذ يتسـاقط على الأرض ملوّنًا السّـجّادة النّظيفـة وقصاصات الأوراق التـي كنـت لا أزال أمزّقهـا، وخلال هذا كلـه كانت الزّوجـة المحبّة الوفيّة واقفة كتمثال بجانب المدفأة، ثم بدأت الصّراخ و كأنّما أرادت أن تتزامـن موسـيقى صراخهـا مع عمليّـة ديم. وبعد برهـة عاد بيتر وجورجـي من المطبخ وهما يقضـمان ويمضغان وقد حمل بيتر في يديه رغيفًا محشـوًّا وزجاجة بيرة نزع غطاؤها توًّا والزّبد يفور منها، وحمل جورجي شـطائر وبعض الكعك والحلوى، شاهدا المعمعة الحاصلة حتّـى انبعثت قهقهتهما عاليًـا وأخذ فتات مضغهما يتناثر على الأرض والواقع أنني لم أسـتطب هذا وبدا في نظـري مجافيًا للأصول، وهكذا قلت لهما «كُفّا عن الأكل! لم أعط إذنًا بهذا».

أمسكا بهذا المخلوق حتى يمكنه أن يرى كل شيء ولا يهرب، فوضعا غنيمتهما على المنضدة بين الأوراق المتناثرة ثم اتّجها نحو الكاتب الذي تحطّمت نظّارته ولكن كانت لاتزال مدلاة من وجهه بينما كان ديم العتيد لا يزال يتراقص بحركاته البهلوانيّة ممّا جعل الزخارف التي كانت فوق رفّ المدفأة تهتزّ وتتأرجح (فطوحتها جميعًا بحركة واحدة يا إخواني حتّى يبطل الاهتزاز والتأرجح!)، وإن كان لم يكف عن كيل لطماته على وجه المؤلّف ممّا جعله محتقنًا ونازفًا بالدم مثل عصارة فاكهة منتفخة وعندئذ قلت له «كفى يا ديم... الآن لنبدأ المهمّة الثّانية، بعون الشيطان».

وهكذا اتّجه إلى المرأة التي كانت ماضية في الصّراخ، فأمسك بيديها من الخلف، بينما شققت ملابسها فيما كان الباقون يهللون طربا، ومهما يكن من شناعتنا فأنني أعفي القارئ من تفصيلات ما حدث بعد ذلك. وفي النّهاية جعلنا نحطّم ما يمكن تحطيمه وتهشيمه من الآلة الكاتبة إلى المصباح، إلى المقاعد، وبال ديم على نار المدفاة حتّى أطفاها، بل همّ يتبرّز على السّجادة، لولا أنني صرخت فيه قائلاً «إلى الخارج!.. إلى الخارج!» وفي هذه الأثناء كان المؤلّف وزوجته شبه غائبين عن الوعي وهما يتوجعان، لكنهما سوف يبقيان على قيد الحياة ما في ذلك شك. وأخيرًا عدنا إلى السّيّارة وتركت لجورجي عمليّة القيادة بعد شعوري بشيء من الارهاق، ورجعنا إلى المدينة دائسين على الكائنات الصّغيرة الصّارخة كافّة التي كانت في طريقنا.

الفصل الثالث

عدنا يا إخواني في السّيّارة باتّجاه المدينة، عند مشارفها منطقة القناة الصناعيّة، رأينا مؤشّر البنزين يشير إلى التّناقص، كما تناقصت حرارة نشاطنا، وبدأت السّـيّارة (تسعل)، لكن هذا لم يكن يدعو إلى القلق، بعد أن شاهدنا «أنوار» محطّة سكّة حديديّة قريبة. غير أنّ المشكلة هي فيما إذا كنّا نترك السّـيارّة حتّى يعثر عليها رجال الشّرطة، أو ندفع بها إلى مياه النّهر للتّخلّص منها ثم استقرّ رأينا على هذا الحل، فترجلنا منها نحن الأربعة تاركين (الفرامل) مرسـلة، واشتركنا في دفعها إلى حافّة المياه حيث انزلقت وتوارت على الأثر بعد أن شيّعها جورجي بكلمة «وداعًا» وأطلق ديم قهقهته الصّاخبة البهلوانيّة. وبعد هذا قصدنا إلى المحطّة لركوب القطار إلى وسـط المدينة في سـفرة قصيرة دون توقف وقد اشـترينا التّذاكـر بأدب ووقفنا على الرّصيـف بهدوء، ذهب ديم إلى أحد أكشـاك الحلوى الآليّة بما معه من نقود نثريّة كثيرة للحصول على قطع من الشـوكولاتة، مسـتعدًّا لتوزيعها عـلى الفقراء والجوعى إذا لـزم الأمر، وإن لم يكن أحـد منهم قريبًا حينها، إلى أن جاء القطار

هـادرًا فصعدنـا إليه في الحـال، وبدا القطار شـبه خالٍ مـن الرّكاب. ولتمضية الدّقائق الثّلاث التي تستغرقها الرّحلة القصيرة رحنا نعبث بالمقاعد الجلديّة تمزيقًا ونزعًا لأحشـائها، وأخذ ديم يطرح بسلسـلته المعدنيّة حتّى تشـقّق زجاج النوافذ وبدأ يتلألأ في هواء الشّـتاء، ومع ذلك كنا شـاعرين بإنهاك يا أخواني لما أنفقنا من الطّاقة، باستثناء ديم الذي كان بسـبب طبيعته الحيوانيّـة مليئًا بالابتهاج والحيويّة، وإن بدا متسخًا عارقًا، وهو ماكنت آخذه على ديم. هبطنا من القطار في قلب المدينـة وسرنـا بهدوء عائدين إلى بـار اللبن «كوروفـا»، عندما دخلنا إليـه وجدنـاه أكثر امتلاءً عـما وجدناه عندما انصرفنـا منه قبل ذلك. وكان المخلـوق الـذي صادفنـاه من قبـل بالبارغائبًـا في عالمه الأخير لايـزال موجـودًا ومسـتمرًا في هذيانـه، والغالب أنـه كان في المرحلة الثّالثة أو الرّابعة من سـكوته، إذ لاحت عليه تلك المسـحة الشّـاحبة اللاإنسانيّة وبدا فمه مثل قطعة طباشير مشقوقة. والحقيقة أنّه لو أراد أن يبقـى مثل هذا الوقـت في دنياه تلك، لكان الأحـرى به أن يجلس في إحـدى المقصورات الخاصّة الخلفيّـة، لا أن يبقى في الصّالة العامّة تفاديًـا لتحـرّش أحدهم بـه، وإن كان ذلك من النـادر لوجود بعض المأجورين الأشـدّاء مختبئين في أقصى البـار لكي يبادروا بوقف أعمال الشّـغب. ومهما يكن فإن ديم انحشر بجانب هذا الشّـخص الغائب عن دنياه وداس بقوّة على قدمه بحذائه الغليظ، ولكن هذا الشّخص يا إخواني لم يحرك ساكنًا. كان أغلب روّاد المشرب من المراهقين الذين

يطلق عليهم اسم (نادسات)، يشربون اللبن والكوكا ويتعابثون، ولكن كان هناك أيضاً عدد قليل من الرّوّاد الأكبر سنًا ومقامًا من الجنسين يتبادلون الضّحك والحديث لدى المقصف، وكان بإمكانك أن تُقدّر من طريقة قصّ شعرهم وملابسهم أنّهم كانوا يقومون بـ «بروفات» في استديوهات التّلفزيون القريبة وكان للنّساء بينهم تلك الوجوه المليئة بالحيويّة والاشداق الكبيرة القانية الحمرة التي تكشف عن أسنان ضاحكة لا تحفل بأيّ شيء في هذه الدّنيا الشّريرة. وما لبث (الاستيريو) أن دار عاليًا متجاوبًا، وكانت الاسطوانة بعنوان «فقط يوم بعد يوم» للمغني «جوني زيفاجو». وفي الوقت الذي جاء بين اسطوانة وسطوانة، سمع فجأةً غناء لم يدم سوى لحظات صد رعن واحدة من النّساء والمصاحبات للرجال لدى المقصف، وكأنّما أرادت فقط أن تقدم نموذجًا لشيء كانوا يناقشونه... أوّاه يا إخواني، كان هذا المقطع الغنائي القصير في سمعي مثل طائر عظيم والقشعريرة تسري فيه سريانًا فرحت أرتعد. غير أنّ ديم ما إن سمع هذه المقطوعة حتى صفّر استهزاءً وأعقب ذلك (بهوهوة) كلب ثم بقهقهة تهريجيّة، وسرعان ما انتابني شعور كالمحموم وغلى الدّم في عروقي لهذه البذاءة من جانب ديم، حتى قلت له «يا قذر!.. يا ابن الزنا!.. يا عديم الأدب!»

وشفعت هذا بميلة نحو جورجي الذي كان يجلس بيني وبين ديم وعاجلته بلكمة على فمه فنظر ديم بدهشة شديدة وقد فتح فاه ورفع

يده لمسح الدّم الذي بدأ ينزف وهو مذهول يقلّب النّظر بيني وبين الدّم وما لبث أن قال لي «لماذا فعلت هذا؟!» إنّ ما فعلته لم يسترع نظر الكثيرين، ومن شاهدوه لم يعبئوا بما حدث.

وكان (الاستيريو) قد استأنف دورانه بعزف جيتار تافه، فرددت عليه قائلاً: «لأنك ابن زنا ولا أخلاق عندك ولا فكرة عن السّلوك في مكان عام يا أخ!»

فقال ديم وقد شفت نظراته عن الشّرّ «لست أخًا لك ولا أريد أن أكون بعد الآن، وما كان يجب أن تفعل هذه الفعلة بأيّ حال». وأخرج من جيبه منديلاً كبيرًا وأخذ يجفّف به الدّم وهو ينظر إليه مقطّبًا وكأنّ الدم ليس دمه وإنّما دم أحد غيره. والغريب أنّ تلك السّيّدة راحت تضحك الآن مع اصحابها لدى المقصف دون أن تلاحظ سوقيّة ديم وبذاءته فكان ما فعله ديم هو اساءة لي وقلت «إذا كنت لا تحب هذه ولا تريد ذاك، فأنت تعرف ما الذي يجب أن تفعله!»

وعندئذٍ قال جورجي بحدّة جعلتني أتطلّع إليه «لابأس! دعونا من الخصام».

فقلت «المسألة متروكة لـ «ديم» فلا يصح له أن يستمر في تصرفاته كطفل صغير».

وشفعت هذا بنظرة حادّة إلى جورجي، فقال ديم وقد بدا نزيف الدّم يتوقّف «أي حق طبيعي له لكي يظن أنّه يمكنه اعطاء الاوامر

ويلطمني وقت ما يحب؟! بإمكاني أن ألطم عينيه بالسّلسلة إذا فعلها مـرّة ثانيـة». فقلت له وقـد بدأ صوت (الاسـتيريو) يتـماوج فيما بين الجدران والسّقف «حاسب على كلامك! حاسب يا ديم!»

فقال ديم «سحقاً لهذا! إن ما فعلته لا حقّ لك فيه! سوف أوجهك بالسّلسلة أو المطواة أو قرن الغزال في أي وقت أشاء، ولن أقبل منك تكرار ما فعلت».

فـرددت عليه بشراسـة قائـلاً «لتكن المطـواة في أي وقت تحب». فقـال بيـتر «كفى الآن يا رفاق، ألسـنا أصحابًا وأحبـاء؟! لا يليق أن يتـصرّف الأصحاب هكذا! انظروا! ينظر إلينا بعضهم سـاخرين، لا يجب أن نتحامل على بعضنا». فقلت «أن على ديم أن يعرف وضعه... صحيح؟»

فقـال جورجي «مهلاً! مـا هذا الذي يقال عـن وضع أحد؟ هذه أوّل مرّة أسمع فيها عن رفاق يلقّنون درسًا عن وضعهم!».

فقـال بيـتر «إذا أردت الحقيقـة يا أليكسي، فـما كان يجب أن توجه إلى ديـم تلـك الكلمة التي لم يكن لها لزوم، سـأقولها لك مرة واحدة، وأقولهـا بكل احترام، لـو كنت أنا الذي وجهت إليـه لكمتك، لكان لابـد مـن محاسـبتك ولا كلام لي بعد ذلـك». قال هـذا ودسّ فمه في كـوب اللبن، شـعرت بالغيظ في داخلي، غير أننـي تمالكت أعصابي، وقلت بهدوء «لابدّ من وجود زعيم ولابدّ من النّظام، صح؟»

لم يتفوّه أحد منهم بكلمة، ولا حتّى ايماءة فزاد غيظي، لكنّني حافظت على هدوئي الظّاهري، ومضيت أقول «لقد كنت المسؤول عن زعامة الفريق طوال هذا الوقت. نعم، إننا جميعًا أصحاب، لكن لابدّ من وجود مسؤول، أليس كذلك؟» أومأ الجميع برؤوسهم، ولكن بحذر، وأخيرًا قال ديم وهو يجفّف آخر قطرات الدّم «صح.. صح، ربّما كان هذا من تأثير المجهود الذي بذلناه». لقد أدهشني أن رأيت ديم هو الذي يتصرّف هكذا وينحو الى المهادنة، غير أنه مضى يقول «الفراش هو الألزم و الأسلم لنا الآن. إذن فالأفضل أن نذهب الآن إلى بيوتنا. صح؟»

لقد ازدادت دهشتي فعلاَ، بيد أنّ الزّميلين الآخرين أومآ موافقيْن على رأي ديم.

فقلت «أنت تفهم حكاية الضّربة التي وجهتها إلى فمك يا ديم، كانت الموسيقى هي السّبب لأنني أفقد صوابي عندما يتدخّل أيّ شخص لمقاطعة سيدة تغنّي، كما حدث الآن».

فقال ديم «الأفضل أن نذهب إلى بيوتنا ونأخذ حظّنا من النّوم. الفتيان النّاشئون بحاجة إلى قسط وافر من النّوم. صح؟»

وعندما أومأ الاثنان الآخران ايجابًا قلت «أظنّ أن من الأفضل هو أن نذهب إلى بيوتنا الآن كما اقترح ديم، وإذا لم نتقابل في النّهار يا إخواني، فإنّ لقاءنا سيكون في الوقت نفسه والمكان نفسه غدًا».

فقال جورجي «نعم، ويمكن أن نتفّق على هذا بسهولة».

وعاد ديم يقول «ربّما أتأخّر بعض الوقت، لكن مؤكّد أنّنا سنلتقي في المكان نفسه والوقت نفسه تقريبًا».

وكان لايزال يجفّف فمه، ولكن الدّم قد توقّف الآن، وقد تابع كلامه قائلاً «والمأمول إلا توجد هنا بعد الآن أي واحدة تغني.

وهكذا تفرّقنا كل إلى وجهته وأنا أتجشّأ من الكوكا المبردة التي شربتها، وقد حرصت على أن أجعل مطواتي (قرن الغزال) في متناول يدي احتمالاً لوجود أحد من عصابة «بيليبوي» أو غيرها من العصابات المتنافسة المقتتلة متربصًا قرب محل إقامتي كنت أقيم مع أبي وأمي في الوحدة رقم 18أيف بمساكن البلدية، فيما بين «كنجسلي أفينو» و «ويلسنسواي». وقد وصلت إلى الباب الرّئيسي الكبير دون متاعب، ومررت بشاب منبطح على الأرض يصرخ ويتوجّع في الوحل وهو مثخن بالجراح، كما وقع نظري في ضوء المصباح على بقع من الدّماء متناثرة هنا وهناك وكأنّها يا إخواني توقيعات تركها أبطال المعارك الليلية المعهودة شاهدًا عن حسن بلائهم. وقد وقع بصري أيضًا قرب مدخل الوحدة السّكنيّة على ملابس نسائيّة ممزّقة كانت دليلاً على وقوع مناوشات غراميّة حامية وكثير من أمثال ذلك يا أخواني، وفي مدخل الوحدة مررت باللوحة التّشكيليّة للبلديّة المرسومة على الجدران والتي تمثّل أفرادًا من الجنسين في المصانع - رمزًا لكرامة العمل - مجرّدين من الملابس ابرازًا للقوّة

ومتانـة العضـل، ولكـن اللوحة الوقـورة أضيفت إلى مواطـن معيّنة فيهـا بأقـلام الرّصاص والأقـلام الملوّنة ما جعلها تبدو فاحشـة نابية عن دواعي الأدب والحشـمة، ناهيك بتلك العبارات البذيئة الدّنسة التي سجّلت في تلك الافلام في دوائر مرسومة على أفواه الأشخاص الوقـورة المحتشـمة. ومهما يكن فقـد اتّجهت إلى المصعد هـذه الليلة، لكـن لم تكـن ثمّـة حاجة للضّغـط على الـزّر لمعرفـة إن كان يعمل أم لا، فقـد وجـدت سلاسـل معدنيّـة متينـة أمـام أبـواب المصعد هذه الليلـة، وهكذا كان علـيّ أن أصعد عشرة أدوار عـلى القدمين فعلتها وأنـا ألهث وألعن، بسـبب تعبي البدني وإن لم يكـن العقلي. لقد كنت بحاجة ماسّـة إلى الموسـيقى هذه الليلة، وربّما لأنّ غناء تلك المرأة في مـشرب اللبن قـد أذكى مشـاعري، والواقـع أنّني كنـت أريد وجبة كبـيرة بـل وليمـة حافلة من الموسـيقى قبـل أن أدلـف إلى الفراش يا إخـواني. فتحت باب المسـكن بمفتاحي الصّغير الخـاص، فكان كلّ شيء في الدّاخـل هادئًا تمامًا بعد أن غرق أبي وأمي في نومهما العميق، تاركـة لي أمي عشـائي على المائـدة - وكان مؤلّفًا مـن بعض قطع من اللّحـم المعلّـب وشريحة خبز بالزّبـدة وكوب من اللّبـن البارد - لبن بغـير مسـكر ولا مزيج من تلـك الأخلاط الجهنميّة التـي عهدتها في البـار، فيا لقسـوة هذا اللبن الـبريء الآن يا إخـواني! ومع ذلك فقد شربـت وأكلت متذمرًا لشـعوري بجوع شـديد لم أشـعر به من قبل، ثـم أخذت مـن دولاب المؤونة قطعة من الفطير بالفاكهة وحشـوت

بها فمي النّهم، وبعد أن نظّفت أسناني دلفت إلى غرفة أمّي الصّغيرة أو «جحري» وأنا أتخفّف من ملابس. هنا كان فراشي و (الاستيريو) الخاص بي، أعزّ ما أمتلك في هذه الدّنيا، مع مجموعة اسطواناتي في دولابها المخصّص لها، إلى جانب أعلام وشارات فوق الجدران، هي تذكارات من مدرستي الاصلاحيّة منذ أن كنت في السّابعة من عمري كانت مكبّرات (الاستيريو) مرتّبة حول الغرفة، على السّقف والجدران والأرض، بمعنى أنني وأنا ممدّد في الفراش أستمع إلى الموسيقى، كنت كما لو كانت الاوركسترا تسري في كياني من كل جانب. وكان ما استهواني قبل غيره في هذه الليلة هو اسطوانة «كونشرتو» الكمان الجديدة للأمريكي «جوفري بلاوتوس»، تعزفها فرقة «الفيلهارمونيك» المعروفة باسم «أوديسيبوس كووبريلوس» وانتظرت... ثم جاءت الموسيقى يا إخواني نشوة سماويّة لاحدود لها. لقد تمدّدت على ظهري، مسندًا رأسي بين يدي فوق الوسادة، مغمض العينين، منفرج الشفتين انتشاء، أنصت إلى أعذب النّغم، كان الجلال مجسمًا، متجسدًا، متجاوبًا في كل موضع من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي، كان عجيبة العجائب وبين دقّ الطّبول وعزف الأبواق، سرى عزف الكمان متفرّدًا فوق الأوتار الأخرى كافّة حتّى لاح لي كأنّه قفص من حرير التفّ حول فراشي. وفي جوّ النّشوة الفيّاضة هذا الذي حفّ بي من كل جانب، درج أبي وأمي، يا إخواني، على عدم دق الحائط الفاصل بيني وبينهما للشّكوى ممّا

يصفونه بالضّوضـاء، فقد تعلّما الدّرس مني وصارا يتناولان أقراصًا منوّمـة، وأغلب الظّن أنّهما تناولاها هذه الليلة قبل حضوري، ادراكًا مهمًّا لمدى نشـوتي بموسـيقى الليل هذه، ويا لتلـك الصّور والاخيلة التي كانت تتراءى لي وأنا ممدّد هكذا أسـتمع مغمض العينين سـابحًا في سـماء النّغـام. أهي صـور حوريّات بلغـن الأوج في الفتنة والجمال والسّـحر؟ أهي مجامع عشّـاق ينهلون من ينابيـع الهوى رحيق الحبّ عذبًـا مصفّى آنـا، وفائرًا جيّاشًـا آنه أخـرى؟ لا أدري، ولكن الذي أدريـه أنّه مـا إن بلغت الموسـيقى ذروتها حتّى أذنت ببلـوغ ختامها، حتّـى نادت منـي آهة جيّاشـة ملتاعة جوى وضنى، بعدها سـمعت اسـطوانة «مـوزار» الرّائعـة المعروفـة باسـم (جوبيـتر)، فكانت هي الأخـرى مذكية لمشـاعري مثيرة للوعة والشّـجون، ثـمّ تراءى لي أن أختتم باسـطوانة أخيرة قبـل العبور إلى عالم النّوم. فكانت اسـطوانة باخ المعروفة باسـم «كونشـيرتو براندنبرج» فلم تكن لوعتي بأقل مما ابتعثته في النّفس سـابقاتها، ولكن كان النّوم رحيمًا بي وأسـبق إلي من كلّ رؤى أخرى معذّبة للمشاعر مثيرة للحنين.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

في صباح اليوم التّالي استيقظت متأخّرًا في السّاعة الثّامنة يا إخواني، ولّما كنت لازلت متعب القوى مشوّش الفكر أثر الليلة الماضية واجفاني مطبقة ملتصقة بغراء النّوم، فقد بدا لي أنّه يمكن ألا أذهب إلى المدرسة وأنال قسطًا أوفر من الرّاحة في الفراش مدى ساعة أو اثنتين، ثم أرتدي ملابسي بالراحة، وربما استحم حسب ما يحلو لي، وبعد ذلك أعدّ كوبًا من الشّاي القوي مع بعض «التّوست»، وأخيرًا أفتح الرّاديو أو أتصفّح الجريدة بغاية التّمهّل والاسترخاء، وربّما يبدو لي أيضًا، إذا صفا مزاجي أن أخرج وأعرج إلى المدرسة العتيدة وأنظر ما يلقون فيها من تلك الدّروس العقيمة. عندئذ سمعت يا إخواني صوت أبي يزمجر ويخطو جيئة وذهابًا ثم يخرج إلى مصنع الصّباغة الذي يعمل فيه، وبعدها نادتني أمّي بصوت كلّه احترام لشخصي كما أصبح دأبها معي الآن وأنا أكبر وأزيد امتلاء وقوة - السّاعة الثّامنة يا ولدي، لن تحب أن تتأخّر مرّة أخرى - رددت عليها من مكاني «أشعر بوجع في رأسي، دعيني وشأني.وسأحاول أن أخفّف منه

بشيء من النّوم، وبعدها سأتعافى وأرى ما يكون». فسمعتها تتنهّد، وقالت «سأضع طعامك في الفرن إذن يا ولدي، لابدّ لي من الخروج أنا أيضًا وكانت على حق. فالقانون يحتّم علي كل راشد أو كلّ من ليس لديه أطفال أن يخرج للعمل، وكانت أمّي تعمل في أحد محال (السوبرماركت) التّابعة للبلديّة لتعبئة الرّفوف بمعلّبات الحساء والفاصولياء وما إليها. وقد سمعتها بعد ذلك تضع طبقًا في فرن الغاز، ثم تلبس حذاءها وتأخذ معطفها من خلف الباب، وقالت بعد أن تنهّدت مرّة أخرى «حان موعدي الآن يا ولدي، أنا خارجة».

لكنّني تظاهرت بالنّوم، وعلى الأثر غالبني النوم فعلاً، وتراءى لي في المنام حلم غريب مضحك، بدا لي فيه رفيقي جورجي وقد كبر كثيرًا وصار إنسانًا عصبي المزاج صعب الشكيمة يفرض النّظام والطّاعة حتّى أصبح له أناس تحت أمرته يخفون لتلبية أوامره ونواهيه ويؤدّون له التّحية العسكريّة كما لو كانوا في الجيش، وأنا فرد منهم في الصّف ألبّي الاوامر بـ«نعم يا سيدي ولا يا سيدي»، ثم تبيّنت بوضوح أن جورجي يحمل نجومًا على كتفيه مثل جنرال، ثم أنّه جاء بزميلنا ديم العتيد يحمل كرباجًا، ولاح ديم وهو أوفر وجاهة وقد شاب شعره واختفت بعض أسنانه كما تجلّى لي وهو يبتسم عندما رآني، وبعدئذ قال رفيقي جورجي وهو يشير إلي «أن هذا الرّجل تعلوه القذارة من رأسه إلى قدمه». وكان صادقًا ثم سمعتني أصرخ «لا تضرب! لا تضربوا يا إخواني!» وأخذت أجري، وكنت أجري فيما يشبه الدّائرة،

وكان ديم يطاردني وهو يفرقع بكرباجه، وكنت في خلال ذلك أسمع مـع فرقعة الكرباج صوت جرس يرن عاليًـا، وكان هذا مبعث ايلام لي أيضًا. ثمّ صحوت من نومي على الأثر وقلبي يدق دقًّا عنيفًا، وإذا بصـوت الجـرس يرن فعـلاً، وكان جـرس باب مسـكننا، فتظاهرت بأنّـه لا أحـد في البيـت، غير أنّ رنـين الجرس لم ينقطـع، وفي اللحظة التّاليـة سـمعت صوتًا يصيـح من خلال البـاب «هيّا قـم ودع عنك هـذا! أعرف أنّـك في الفراش! عرفت في الحال صـوت المتكلّم. كان صوت السّـيّد «دلتويد» الذي يسـمّونه المشرف الاصلاحي المختص بمتابعتـي، فـرددت عـلى الأثر بأنّـني قادم تـوًا، وأسرعـت بمغادرة الفراش وارتداء ملابسي، وكانت في الحق يا إخوني (روبا) فاخرًا من الحريـر المزركش بصور مدائن، و (شبشـباً) من الصوف اللين، وبعد أن سرّحت شـعري الغزيـر فتحت الباب للسّـيّد «دلتويـد»، فدخل هادرًا بملابسه المشعثة وقبعته العتيقة ومعطفه الواقي من المطر ملوثًا وقـد بادرني قائلاً «آه يا أليكس يا ولـد! قابلت أمك! فأخبرتني أنّك تشعر بألم في مكان ما ولهذا لم تذهب إلى المدرسة».

فأجبت بلهجتي المهذّبة «هو ألم لا يطاق في رأسي يا سيدي وأظنّ أنّه سيزول بعد الظّهر».

فقال دلتويد «أو مؤكّد في المسـاء. المساء هو الوقت الرّائع، أليس كذلك يا أليكس يا ولد؟ اجلس..اجلس..اجلس. وكأنّما كان البيت بيته وأنا ضيفه، ثمّ جلس في الكرسي (الهزّاز) الذي يجلس فيه أبي وبدأ

يتأرجح وكأنّما جاء لهذا الغرض. قلت له «فنجان شاي يا سيدي؟»

ـ أجاب «لا وقت عندي».

ومضى يتأرجح وهو يرمقني بنظراته اللامعة المعهودة تحت حواجب مقضبة، وكرّر كلماته قائلاً «نعم لا وقت عندي».

ـ فهل يتفضّل سيدي بتعريفي عن دواعي تشريفي بهذه الزّيارة الكريمة؟ أهناك شيء خاطئ يا سيدي؟»

ـ خاطىء؟!

قالها بسرعة وهو ينظر إليَّ بدهاء متابعًا تأرجحه في الكرسي، ثم وقع نظره على اعلان منشور في الجريدة التي كانت فوق المائدة، لفتاة جميلة باسمة الثّغر بارزة النّهدين تعلن عن نوع من خوخ يوغسلافي أخذت منه قضمتين تأكيدًا لجودته الفائقة ثمّ عاد بنظره إليّ قائلاً «لماذا يخطر ببالك وجود شيء خاطئ؟ هل كنت تفعل شيئًا ما كان يجب أن تفعله؟ نعم؟» فأجبت قائلاً «هو مجرّد أسلوب في الكلام يا سيدي».

فراح دلتويد يقول «لا بأس. وأنا أقول بأسلوبي الكلامي يا صغيري أليكس أن عليك أن تحاذر، لأنّه في المرّة القادمة - كما تعرف جيدًا - لن تكون هناك مدرسة اصلاحيّة بعد ذلك. في المرّة القادمة سيكون المكان المشبّك بالقضبان، ويكون بهذا ضياع لكل ما فعلته من أجلك وإذا لم يكن لديك تقدير لشخصك البشع فيجدرعلى الأقل، أن يكون هناك بعض التّقدير لشخصي، أنا الذي جاهدت

وعرقـت من أجلـك. وأقولها لك بصراحـة بيني وبينـك، إنّها لنقطة سـوداء كبيرة تحسـب لكلّ مشرف لا يثمر عملـه الاصلاحي، وتعد اعترافًا بفشـله، عـن كل فرد منكم ينتهي به الأمر إلى الجحر المشـبك بالقضبـان!» فقلـت له «لم أفعل شـيئًا يا سـيدي، أعني يا سـيدي أنّ رجـال الشرطـة لا يأخذون علي شـيئًا». فقال دلتويـد بإعياء تام وإن كان مـازال يتأرجح «دع عنـك هذا الكلام النّاعـم الماكر عن حكاية الشّرطـة، لا يعني مجرد أنّ رجـال الشّرطة لم يقبضـوا عليك مؤخّرًا، كـما تعـرف تمامًا، أنّك لم تكـن متورّطـا في عملٍ منحـرف قبيح. لقد حـدث في الليلـة الماضية بعض الاشـتباكات، أليـس كذلك؟ كانت هناك اشـتباكات بالأسـلحة البيضاء والسّلاسـل الحادّة وغير ذلك، وقد نقلت سيّارة الاسعاف زميلاً لفتى سمين في ساعة متأخّرة قرب محطّة توليد الكهرباء وهو مصاب بجروح كثيرة، وورد اسمك مقترنًا بالحـادث، ونقـل إليّ الخبر عن طريـق القنوات المعروفـة. كما وردت أيضًـا أسـماء زملاء لـك والظّاهر أنّه حدثـت قبائح منوّعـة في اللّيلة الماضية. صحيح أنّه ليس بوسـع أي أحد أن يثبت شـيئًا ضدّ شخص معـين كما هي العادة، والوحيد في هـذه البيئة المريضة المنكودة، الذي يريد إنقاذك من نفسك».

فقلت له «إنني أقدّر كل هذا يا سيدي، بكلّ إخلاص».

فقال في لون من السّـخرية «نعم تقـدّره، أليس كذلك؟ عليك أن تحاذر، أنّنا نعرف أكثر مما تظن يا صغيري أليكس!»

ثم تابع كلامه بصوت يشـف عن شدّة الكرب والمعاناة «ما الذي دهاكم جميعًا؟ إننا ندرس المشـكلة، ولبثنا ندرسـها منذ ما يقارب من قرن من الزّمان نعم، لكنّنا لا نتقدّم خطوة بكلّ دراسـاتنا. أنت تنعم ببيـت طيّب هنـا، وأبوين محبّين لك، ولك عقليّة ليسـت رديئة، فهل هناك شيطان يتسلّل إلى داخلك؟»

فقلـت «لا أحد له أي مأخذ عليّ يا سـيدي، إنني لبثت بعيدًا عن أيـدي الشّرطة مـدّة طويلة. فتنهّد السـيد دلتويد قائـلاً «وهذا هو ما يقلقني، فهي مدّة كافية لاصلاحك وفي تقديري أنّ هذا أوان الفصل في أمـرك، لذلك فإنّني أحـذّرك يا صغيري أليكـس لكي تبعد أنفك الصّغـير الجميـل عـن التّدنّـس في الأوحـال، فهـل تـراني أوضحت غرضي؟»

فقلت «أوضحته يا سـيّدي كما لو كان بحيرة غير عكرة أو كسـماء صافية الزّرقة في عزّ الصّيف، ولك يا سيدي أن تعتمد عليّ».

وشفعت كلماتي هذه بأعذب ابتسامة. بيد أنّه بعد انصرافه والتّفرّغ لاعداد الشّاي القوي الذي كنت أريده، لم أتمالك من الابتسام لنفسي عندما فكرت في هذا الذي يشـغل بال السّـيّد دلتويد المبجّل وزملائه الأفاضـل. لا بـأس إذن؟ إنّني أفعـل القبيح، ناهيك عـن التّضارب والتّقاتـل بالمدى وما إليهـا، فضلاً عن التّهجّم عـلى الاعراض، وإذا تعرّضـت للمؤاخذة كانت العاقبة وخيمـة لي، ثم إنّهم كما يقولون لا يسـتطيعون ادارة دفّـة الحكم في البلاد كما يجـب إذا كان كل فرد فيها

يفعـل القبائح كما أفعلها ليلاً. ثمّ إنّنـي إذا قبض علي وأمضيت ثلاثة أشهر في هذا السّجن أو ستّة أخرى في ذاك، وبعدها كما ينذرني السّيّد دلتويـد بعطفه ورقّته لا يكون أمامي سـوى حديقة الحيوان الجهنميّة أو السّـجن الكبير ذاته. إذا كان كل هذا يا إخواني، فإنّني أقول كلامًا جميلاً، لكن شـيئاً من التّرفّق يا سادتي الأكابر، إذ لا يمكنني وحسب أن أطيـق تقييد حريّتي، إنّ كل نشـاطي سـوف ينحصر في المسـتقبل الممـدود أمامي بأحلامه الورديّة قبلما أتعـرض لضرب مطواة أو دقّ عظام بسلسـلة أو في سـيّارة مهشّـمة على الطّريق السّريـع، هو في ألاّ أتعـرّض للاعتقال والمؤاخذة، هذا كلام صريح. ولكن وخزهم هذا أو تشـديد الوطأة بالأقدام فيما هو سـبب أفعال الفسـاد والسّوء، إنّما يثـير ضحكـي. فهـم لا يبحثـون فيما هو سـبب الصّـلاح. إذن علام البحث في سـبب الفساد؟ إذا كان النّاس صالحين فلأنّهم يحبّون هذا، وما يكون لي أن أتدخّل فيما هو مناط ارتياحهم، وهذا يجب أن ينطبق عـلى الجانب الآخر. وأنا مـن أنصار هذا الجانب وأكثـر من هذا فإنّ الفساد هو فساد الذّات، ذاتي أو ذاتك فيما يعني كلامنا وحده، وفساد الذّات هو الفطرة التي ينشـأ الإنسـان عليها لأنّهم لا يبيحون الحريّة المطلقة. إذن فإنّ ما أفعله هو بدافع من ذاتي، ولأنّني أحبّ أن أفعله. والآن، أعود إلى هذا الصّبح الشّـتوي الباسـم، فأراني أشرب الشاي القوي باللبن مع ملعقة بعد ملعقة بعد ملعقة من السّكر، وأخرج من الفـرن الافطار الذي أعدته لي أمي المسـكينة، وكان بيضة مشـويّة لا

أكثر، ولكنّني أعددت (التوست) وأكلته بالمربّى مع البيضة، متلذّذًا بـه وأنا أتصفّـح الجريدة. كانت أخبار الجريدة عـن الحوادث المعتادة مثل أعمال العنف والسّطو على البنـوك، والاضرابات، وكرة القدم، وتهديـدات لاعبيهـا التي تلقـي الفزع في نفـوس الجماهـير بالتّوقّف عـن اللّعـب إذا لم ترفع أجورهـم، أولئك اللاعبـون الخبثاء، كما كان في الجريـدة أيضًا الكثير عـن رحلات الفضاء، وعـروض التّلفزيون الموسـيقيّة الكبيرة، وجوائز الصّابون المبشور المغربة القائمة على جمع قسـائم الاعلانات، ممّا أثار ابتسـامي. ثمّ كانت هناك مقالة طنّانة عن «الشّباب الحديث» - تعنيني طبعًا، مما جعلني أضحك سلفًا - كتبها كاتب أصلع متحذلـق، ولكنّني رحت أقرأها باهتمام يا إخواني، وأنا أسـتمتع بشرب الشّـاي متمهّـلاً وأقضم (التوسـت) بالمربّـى هانئًا. وكان هـذا الكاتب اللّوذعي يردّد الـكلام المعتاد، عن انعدام التّوعية مـن جانب الوالدين، ونقص العدد الكافي مـن المعلّمين الذين يتعيّن عليهـم انتزاع الأفـكار الضّارة من عقول النّاشـئ البريء واجبارهم على الاسـتعطاف. كلّ هـذا جعلني أبتسـم تفكّهًا، ولكنّه كان شـيئًا لطيفًـا دعاني إلى متابعة القراءة لعلمي أنّني وأمثالي نقدّم مادّة دسـمة مجـدّدة للأخبار والمقـالات كل يوم. فيومًا ما بعد يـوم يا إخواني كان ينـشر شيء عـن «الشّـباب الحديث»، ولكـن كان قصـارى جهدهم هـو نشر مقـالات من هذا القبيـل بقلم بعض ذوي اللّياقات المنشـأة يؤكّـدون فيهـا أنّ آراءهـم هذه بعد الـدّرس والتّمحيـص، وأنّ هذا

الفساد هو من عمل (الشّيطان) الذي ينخر طريقه إلى داخل النّفوس الفضّـة البريئـة، وأن واجـب الكبـار أن يضطلعوا بمسـؤولياتهم إلى جانـب اهتمامهم بمشـاكل الحروب والقنابـل النووية ومـا إليها من هـذا اللّغو الذي لا ينقطع. وفي هذا مـا يرفع العتب والملام عنا نحن النّاشئة البريئة، وهي مقولة صحيحة، صحيحة، صحيحة.

ومهـما يكـن فبعـد أن امتلأت معـدتي البريئـة، بـدأت في اخراج ملابـس للنّهار مـن دولاب ملابسي الخاص وأنا أفتـح الراديو. كان هناك يا إخواني عزف موسـيقى وتريّة لـ«كلوديوس بيردمان» وكنت أعرفه جيدًا وعلى الرّغم من هذا لم أتمالك من الابتسام عندما فكرت فيما قرأته ذات مرّة في إحدى تلك المقالات عن «الشّباب الحديث»، من أن هذا الشّـباب الحديث يمكن أن ينصلـح حاله إذا تيسّر الأخذ بأسـلوب نشط لتشجيع الفنون. فقد ورد في ذلك المقال أنّ الموسيقى الرّاقيـة والشّـعر المجـرّد يمكـن أن يثمـرا في تهدئة وتهذيب مشـاعر الشّـباب الحديث، وجعلهم أكثر تحضّرًا، يا للسّـخرية! إنّ الموسيقى كانـت دائمًا تلهب حواسي وتثير غرائـزي. وبعد أن ارتديت ملابسي - ملابس النّهار، زيّ الطّلبة المؤلّف من البنطال الأزرق والسويتر - بالإضافـة إلى حرف ألف رمزًا لاسـمي أليكس، خطـر لي أنّه لا يزال أمامـي وقـت لكي أذهـب إلى بوتيـك الاسـطوانات وكانت جيوبي عامـرة بالنّقود للّسـؤال عن اسـطوانة طـال طلبهـا وانتظارها وهي أسـطوانة «بتهوفن» رقم 9 المعروفة باسـم «كورال سمفوني». وهكذا

خرجـت لهذا الغرض يـا إخواني، كان النّهـار مختلفًا تمامًـا عن اللّيل أو المراهقـين، أمّـا النّهـار فهو لكل النّـاس العاديّـين، وكان يكثر فيه رجـال الشّرطة متفرّقين هنا وهناك طوال سـاعات النّهاروقد ركبت الأتوبيس من النّاحية حتّى وسـط المدينة، ثم عدت سيرًا مسافة قليلة إلى «تايلـو بليـس»، حيث يوجـد بوتيك الاسـطوانات الذي اخترته لمعاملاتي الكريمة يا إخواني وكان له اسـم رنّـان هو «ميلوديا» الذي كان سريعًـا في تلبية الطّلبات أكثر من الوقت وخاصّة الاسـطوانات الجديـدة، وعندمـا دخلـت لم يكـن في داخلـه مـن الزّبائـن أكثر من صبيّتـين تلعقـان المثلّجات مع أنّنا في صميم الشّـتاء البارد، وبدا أنهما تقلبان في أسطوانات أغاني «البوب» الأكثر ذيوعًا في ذلك الوقت. لم تكن الصّبيّتان تجاوزتا سـنّ العاشرة، وبدا بوضوح أنّهما قررتا، مثلي، قضاء المدّة الصّباحية بعيدًاعن المدرسة، ولك أن تدرك أنّهما نظرتا إلى نفسـيهما كما لو كانتا في سنّ المراهقة فعلاً. على أيّ حال فإنّني اتّجهت إلى «الكاونتر» مبتسـمًا أحلى ابتسامة مؤدّبة لاندى العتيد خلفه (وهو نفسـه دائمًا مؤدّب ومقبل عـلى زبائنه، على الرّغم مـن أنّه كان أصلع شـديد النّحافة)، وقـد بادرني قائـلاً «أهلاً أنا أعـرف طلبك، عندي أخبار طيّبة.. أخبار طيّبة، الاسطوانة وصلت.

وبحركات موزونة من يدي «كيدي» قائد أوركسترا اتّجه لإحضار الاسطوانة. وفي هذه اللّحظة بدأت الصّبيّتان تتضاحكان كمن هما في مثل سـنّهما، فرمقتهما بنظرة بـاردة، وعاد «آنـدى» سريعًا وهو يلوح

بالاسطوانة العتيدة التي يحمل غلافها الأبيض صورة «بتهوفن» ذاته، قائلاً لي «إليك هي! هل نديرها للتّجربة؟»

لكنّني كنت أريد أخذها معي للاستمتاع بها في بيتي متلذّذًا بها وحدي، وعندما أخرجت النّقود من جيبي لدفع ثمن الاسطوانة سمعت إحدى الصّبيّتين تقول «من تكون يا فتى؟ إلى هذا الحد تتطاول إلى عالم كبار الموسيقيّين؟» وتضاحكتا مرّة أخرى مهتزّتين. وبسرعة البرق خطرت لي فكرة طارئة، فقلت بابتسامة ناصعة من أسناني الحديثة التّنظيف «وأنتما أيّتها الأختان الصّغيرتان، ما الذي ستأخذانه إلى البيت لتصديع سمعكما به؟ أراهن أنّها مجرّد أسطوانات أغاني «البوب» التّافهة التي لا تشبع عشّاق الموسيقى الحقيقيّة. تعاليا مع عمكما، واستمعا إلى روائع النّغم، هذه دعوة منّي لكما». وشفعت كلماتي بانحناءة، فتضاحكتا من جديد، وقالت إحداهما «آه.. لكننا جائعتان جدًّا!» وقالت الثّانية «نعم، لها أن تقول هذا بحق». وهكذا قلت لهما «كلّا مع عمكما، اذكرا اسم المطعم».

وهنا تصوّرتا أنّهما كالسّيدات الوجيهات وأخذتا تستعرضان أسماء المطاعم الفخمة مثل «ريتز» و«بريستول» و«هيلتون» و «رستورانتو جرانتوركو»، غير أنّني وضعت حدًّا لهذا بقولي «اتّبعا عمكما».

وقدتهما إلى مطعم «باستابارلور» القريب وتركتهما تحشوان فميهما بالاسباجيتي والسّجق وشرائح الموز بالكريم وأكواب الشّوكولاتة

السّـاخنة حتّـى كدت أتقزّز يا إخـواني من هذا الخليـط كلّه. وكانت هاتان أفكارهما متماثلة، إن وشـعرهما مصبوغ بلون يميل إلى الشّقرة، وعـلى أيّ حال فإنّهما سـوف تكبران هذا اليوم الذي سـيكون حافلاً بالنّسبة إليهما، لأنّني سأجعل منه يومًا مشهودًا، لن تذهبا إلى المدرسة بقيّة اليوم، لكن سـيكون فيـه تعليم حقًا وصدقًا، والمعلم هو أليكس ذاته. وكان اسـمهما «مارتي» و «سـونيتيا»، وهما اسـمان على مسـمى واحـد، صبيـاني، وقلت لهما أخـيرًا «كلّ شيء على ما يـرام يا مارتي و سـونيتيا، الآن جاء وقت الاسـتماع إلى روائع الموسـيقى. ولمّا خرجنا إلى الشّـارع البارد بـدا لهما ألا تركبا الاتوبيس، بل تسـتقلّان التّاكسي يا إخواني. وهكذا تركت لهما الحبل على الغارب، وإن تبسّـمت مخفيًا شـعوري، وناديت سـيّارة تاكسي في السّاحة القريبة، فقال لنا السّائق وكانت له (سوالف) وملابسه مبقعة «لا تمزيق للمقاعد، إنّها مكسوّة منذ فترة قصيرة، فأذهبت مخاوفه وطمأنته. اتّجهت بنا السيارة شـطر العمارة السّـكنيّة رقم 18 أيف، وعند وصولنا ظلّتا طوال الصّعود إلى الـدّور الثّامـن وهما تلهثـان وتتضاحكان.. وعندما قالتـا إثر دخولنا أنّهما تشعران بالعطش الشّديد أسرعت إلى صندوق مشروباتي الثّمين في غرفتي وقدّمت لهاتين الصبيّتين اليافعتين كأسيْ ويسكي ممزوجتين بالصّـودا اللاذعة، فجلسـتا على فـراشي الذي لم يكـن مرتّبًا وأخذتا تشربان وهما تهزأن السّـيقان ولا تكفان عن الضّحك، بينما أسمعتهما اسـطوانات «البـوب» التـي تفضلانها من خلال (الاسـتيريو)، وهما

تزيـدان مرحًـا وطربًا. وفي هـذه الأثناء رحت أشـجّعهما على شرب كأسـيْن آخريْن، لمّا تمانعـا وما إن أتممْتُ دورتيْن للاسـطوانات حتّى كانت الصبيّتان في شبه هستيريا وراحتا تتواثبان فوق فراشي، فما بالك بوجودي في الغرفة معها؟! وبعد ذلك سـحبت اسـطوانة «بتهوفن» التّاسـعة من غلافها ووضعتها في (الاسـتيريو) يا لتلك العذوبة التي سرت في الغرفة على الأثر! كانت الأنغام السّـاحرة تنسـاب في أنحاء الغرفة كافّة سقفًا وجدرانًا وأرضًا حتّى شعرت بقمّة النشوة وكأنّني في حلم. وكانت الصبيتان قد بلغتا الآن حد السّكر، وتلاشى عندهما كل تحفّظ.

.. ولكـن يـا إخواني، إنّني لسـت بحاجـة إلى بيان مـا حدث بعد ذلـك، ولكن مـا إن ثابت الصّبيّتان إلى الوعـي حتّى راحتا تصرخان وتنعتاننـي بالوحـش الدّنـس، وهكـذا أخليـت سـبيلهما وخرجتـا تتوعّـدان بالشّـكوى إلى الشّرطة، لكـنّ النّوم كان أغلـب لي من كلّ شيء.

الفصل الخامس

إنّ مـا حدث بعد ذلـك هو أنّني صحوت متأخّرًا (قرابة السّـابعة والنّصـف حسـب سـاعتي)، لم يكن هذا فطنـة مني، كـما تبيّنت بعد ذلـك. فلعلّك تـرى أنّ كلّ شيء في هذه الدّنيا القاسـية مرتبط بعضه ببعـض، وأنّ الشّيء الواحد يفضي إلى شيء آخـر فعندما غلبني النّوم كان (الاسـتيريو) يحـدث صوتًا، ولكنّـه كان الآن سـاكتًا. إذًا فلا بدّ أن أحدًا أوقفه، ولابدّ أن يكون (بابا) أو (ماما)، وأنّهما قد فهما شـيئًا ممّـا حدث في البيت أثناء غيابهما، فقد سـمعت صـوت الأطباق وهما يتنـاولان وجبتهـما المكدودة بعـد عمل اليوم في المصنـع لأبي ومتجر المعّلبات لأمّي. يا لهما من مسـكينين جديرين بالعطف! على أيّ حال فقد لبست ردائي وأطللت برأسي كابن وحيد محبّ وقلت «سلامًا! أنا أحسـن كثيرًا بعد راحة النّهار وأنا مسـتعد الآن لعملي اللّيلي لكسب مـا تيسّر من النّقود ذلك لأنّ هذا مـا كانا يعتقدان أنّني أفعله في تلك الأيام. ثم قلت «هل لي نصيب عندكم؟».

وكان يبدو أنّها فطيرة باردة سخّنتها أمّي ولم تكن شهيّة، لكن كان لابدّ أن أقول ما قلته.

وقد رمقني أبي بنظرة غير راضية ومريبة، غير أنّه لم يقل شيئًا لعلمه أنّه لا يجسر على هذا، ونظرت إلي أمّي بابتسامة يسيرة صغيرة، أنا فلذة كبدها ووحيدها. ومهما يكن فقد ذهبت إلى الحمام بخطى راقصة واغتسلت جيّدًا من أدراني، ثمّ عدت على الأثر إلى (وكري) لارتداء ملابس المساء، وبعد تسريح وتلميع لشعري الغزير جلست إلى المائدة لتناول فطيرتي.

ثم قال أبي «سؤالي يا بني لا يعني أنّني أريد التّطفّل، لكن أين تذهب بالضّبط للعمل في لياليك؟»

فأجبت وأنا أمضغ «آه.. هي غالبًا أعمال متنوّعة بسيطة، هنا وهناك». وصوّبت إليه نظرة شزراء مباشرة وكأنّني أطالبه بأن يقتصر على ما يعنيه ويتركني لما يعنيني، أنا لا أطلب منك نقودًا، لا للملابس ولا للفسحة، أليس كذلك؟ فلماذا السّؤال؟

كان أبي أسرع إلى الامتثال، حتّى قال «آسف يا ولدي، لكنّني أقلق أحيانًا. أحيانًا أرى أحلامًا في المنام، ولك أن تضحك إذا شئت، لكن الاحلام تنبئ عن الكثير في اللّيلة الفائتة حلمت حلمًا كنت أنت فيه ولم أسترح إليه.

فقلت وقد أمسكت عن المضغ «بحق؟»

فقال أبي «كان الحلم واضحًا. رأيتك فيه ممدّدًا في الشّارع مضروبًا من أولاد آخرين، أولاد يشبهون أولئك الأولاد الذين اعتدت أن تخرج للتّجول معهم قبل ارسالك إلى المدرسة الاصلاحيّة في المرّة الأخيرة.

قابلت كلامه بالابتسام إذ ألفيته يعتقد أنّني (انصلحت) فعلاً! ثم تذكّرت بدوري الحلم الذي رأيته في منامي صباحًا، عن جورجي وهو يصدر إليّ أوامره كجنرال، وديم وهو يبتسم عن فم بلا أسنان ويلوح بكرباجه، لكنّ الأحلام تتحقّق معكوسة كما قيل لي ذات مرّة.

وهكذا قلت لأبي «لا تقلق يا أبي على ولدك ووريثك الوحيد، ولا تخف شيئًا بإمكانه أن يرعى نفسه، تمامًا.

غير أنّ أبي تابع كلامه قائلاً «ثمّ أنّك ظهرت كما لو كنت عاجزًا تتخبّط في دمائك ولا تستطيع الدّفاع عن نفسك».

كان هذا الوصف بعكس الواقع، فابتسمت لنفسي مرّة أخرى، ثم أخرجت من جيوبي كل ما معي من نقود ورننتها على مفرش المائدة المبقع، قائلاً «أنظر يا أبي! إنّها ليست بالكثير وهي ما كسبته في اللّيلة الماضية، لكنّها ربّما تنفع في ثمن مشروب لك ولأمّي في البار القريب».

فقال «شكرًا يا ولدي، لكنّنا لا نخرج كثيرًا في الوقت الحالي. إنّنا لا نجسر على الخروج كثيرًا والشّوارع على ماهي عليه الآن بسبب

المعتدين الشّبان ومن إليهم، ومع ذلك شكرًا لك، إنّني سأحضر لها زجاجة غدًا».

وجمع النّقود التي كانت ثمرة الغصب والسّلب والنّهب ودسّها في جيوب بنطاله، في حين كانت أمّي تغسل الأطباق في المطبخ. وانصرفت أنا في النّهاية مودعًا بابتسامات المحبّة والاعزاز، وعندما هبطت إلى قاع سلالم العمارة تملّكتني الدّهشة، بل أكثر من هذا فغرت فمي على اتّساعه فقد جاء رفاقي لمقابلتي. كانوا ينتظرون لدى الحائط رمزًا لتكريم العمل والتي دنّستها تلك الاضافات النّابية بقلم الرّصاص كما ذكرت آنفًا، بل كان ديم نفسه ممسكًا بإصبع غليظ من الشّحم الأسود يخطّ به عبارات بذيئة في ثنايا اللوحة وهو يرسل قهقهته الحيوانيّة، غير أنّه استدار عندما رحّب بي جورجي وبيتر بالتّحيّة المعهودة، وصاح هو قائلاً «ها هو قد وصل! مرحبًا.. مرحبًا!»

وشفع هذا برقصة من رقصاته، بينما قال جورجي «إنّنا قلقنا، جلسنا في البار ننتظر ونشرب اللّبن النّاري، فلم تحضر. ففكّر بيتر أنّك ربّما تكون قد تضايقت من شيء ما، ولذلك حضرنا إلى مسكنك. أليس هذا ما حصل يا بيتر؟» فأجاب بيتر «تمام.. تمام!»

فقلت بحذر «شعرت بوجع في رأسي ولهذا اضطررت للنّوم ولم أتمكّن من الاستيقاظ في الوقت الذي أمرت أن استيقظ فيه، وعلى أيّ حال فنحن هنا جميعًا الآن، على استعداد لكلّ ما تقدّمه لنا هذه

اللّيلة.. مفهوم؟» فقال جورجي وكأنّه يقولها مشفقًا «نأسف لحكاية وجع الرّأس، التي تستخدمها أكثر من اللازم، ومثل ذلك اعطاء الأمر والتّنظيمات، هل أنت متأكّد أن الوجع زال وأنّك لن تكون أسعد بالرّجوع إلى الفراش؟»وعلى أثرها بدا عليهم الابتسام. فقلت «مهلاً، لنضع كلّ شيء في النّور. إنّ هذه السّخرية، إذا جاز أن أسميها كذلك، لا تليق بكم يا أصحابي الصغار! لعلّكم كنتم تنفقون من خلف ظهري لتدبير (مقالبكم) الصّغيرة وما إليها وبما أنّني زميلكم وزعيمكم فمؤكّد أنّ من حقّي أن أعرف ماذا يجري. هيه! والآن يا ديم، ما معنى هذه الابتسامة الواسعة، العريضة كأنّها من فم حصان، وما دلالتها؟»

فقد رأيته قد فغر فاه عن آخره في ضحكة ساخرة متحفّزة ولكنّ جورجي سارع يقول «لا بأس، لا لزوم للغمز واللّمز يا ديم يا أخي، هذا جزء من الخطّة الجديدة».

فقلت «خطّة جديدة؟! ما هي حكاية الخطّة الجديدة هذه؟ لا شكّ عندي الآن أنّه حدث كلام كثير من وراء ظهري وأنا غافل، أريد أن أسمع أكثر وأكثر».

وشبكت يدي و استندت مسترخيًا إلى السّور (الدّرابزين) المكسور لكي أستمع، وفي هذه الوقفة كنت أعلى منهم وهم وقوف على الدّرجة الثّالثة للسّلالم.

وقـال بيتر «لا مسـاس بأحـد يا أليكـس، أردنا أن تسـير الامور بشـكل أكثر ديمقراطيّة، لكن ليـس كما تفعل أنت إذ تأمر بما يجب أن نفعله وما لا يجب أن نفعله».

فقال جورجي «ليسـت المسـألة مسـألة مسـاس أو غيره، إنّما هي مسألة من تكون عنده أفكار، فما هي الأفكار التي تطلع بها علينا؟»

وركّز نظرات جريئة على شـخصي وهو يتابـع كلامه: كلّها أفكار عـن عمليّات صغيرة، عن أشـياء مثل مـا كان في اللّيلـة الماضية، إنّنا نكـبر الآن يـا إخـواني. فقلـت دون أن أتحـرّك من مـكاني «فـهل من مزيد؟ دعوني أسمع المزيد؟»

فقال جورجـي «لا بأس، إن كان لابدّ أن تعرف، فلتعرف إذًا أنّنا ندور هنا وهناك، نكسر المحلات وغيرها، ثم نخرج بنصيب قليل من النّقود لكلّ واحـد منّا وهناك «ويلي الانجليزي» في مقهى «موزلمان» يقول أنّه على استعداد لتصريف أيّ مسروقات ذات قيمة إذا عرضت عليه نظير مبالغ كبيرة جدًّا، فقلت بهدوء ظاهري ولكنّني كنت أغلي في داخلي «هكذا إذًا؟! ومنذ متى كنتم تتّصلون وتتشاورون مع (ويلي الانجليزي)؟»

فأجـاب جورجـي «بين الحين والآخر أجري اتّصالاتي شـخصيًا كـما حدث يوم السّـبت الماضي، بإمـكاني أن أعيش حيـاتي الخاصّة يا زميلي، أليس كذلك؟! والواقع يا إخواني أنّني لم أكترث بكلّ هذا».

وقلت له «وما الذي ستفعله بتلك المبالغ الكبيرة جدًّا التي تشير إليها؟ ألا تنالون كلّ شيء تحتاجون إليه؟ إذا احتجتم إلى سيّارة، تلتقطونها من الشّارع، وإن احتجتم إلى نقود كثيرة، تأخذون ما تريدون. فلماذا هذا التّطلّع المفاجئ إلى الانتشار والتّضخّم على هذه الصّورة؟»

فقال جورجي «آه.. إنّك تفكّر وتدبّر أحيانًا مثل طفل صغير».

وهنا قهقه ديم عاليًا، بينما تابع جورجي كلامه «في هذه الليلة ننوي أن نقوم بعمليّة رجال».

إذًا فقد تحقّق الحلم الذي رأيته في منامي، فهذا هو جورجي (الجنرال) يقول ماذا يجب أن نفعل وماذا يجب أن لا نفعل، وهذا هو ديم يدمدم مثل كلب «بولدوج» وإن لم يظهر كرباجه بعد، غير أنّني فتحت (اللعبة) بحرص وحذر، إذ قلت باسمًا «جميل؟ الهمّة تهبط على من ينتظر، إنّني علمتك الكثير أيّها الزّميل الصّغير، الآن قل لي ماذا لديك يا جورجي يا ولدي؟»

فقال جورجي بابتسامة دهاء ومكر «آه.. البداية في «البن المقوى»، ألم نقل هذا؟ شيء يشحذ حواسنا، أليس كذلك؟

فقلت بمثل ابتسامته «إنّك قرأت أفكاري، كنت أنوي أن أقترح عليكم مشرب «كوروفا» العتيد، جميل.. جميل! افتح الطّريق أمامنا يا صغيري جورجي».

انحنيت له امتثالاً وأنا أبتسم، لكنّني كنت أفكر في هذه الأثناء وعندما سرنا في الشّارع بدا لي أنّ الأسرع في التّفكير والعمل هو الأسبق والأغلب. وحالفني الحظ بمرور سيّارة سمعت من داخلها عزف المقطع الأخير من «كونشرتو» الكمان لـ«بتهوفن»، فكان بمثابة الهام لي فيما ينبغي أن أفعل، فقلت بصوت عميق وأنا أشهر مطواتي قرن الغزال الفتّاكة بسرعة البرق «حسنًا يا جورجي، استعد!»

فقال جورجي «هكذا؟!»

ولكنّه كان سريعًا في سحب مطواته واخراج نصلها الحادّ، وتحفّزنا متواجهين، فيما راح ديم يقول «آه! لا.. ليس هذا من الصواب!»

وهو أن يفكّ سلسلته الكبيرة من حيث كانت ملتفّة حوله، غير أنّ بيتر قال له وهو يضع يده عليه بحزم «دعهما! الأصح أن يكونا هكذا!»

وهكذا بدأت المناوشة بين جورجي وبين شخصي الضّعيف، هادئة حذرة بأسلوب القطط، وكلانا يحاول أن يجد منفذًا في دفاع صاحبه. وفي غضون ذلك كان بعض المارّة يسيرون عن كثب ويرون هذا المشهد، ولكنّهم كانوا منصرفين إلى ما يعنيهم، وربّما لأنّ هذا كان من مشاهد الشّارع المألوفة، وكنت لا أكفّ لحظة عن ادارة مطواتي في كل اتّجاه ولكن بعيدًا عن وجه جورجي أو عينه، مستهدفًا فقط يده الممسكة بمطواته، وفعلاً لم تمض لحظات حتّى طارت

المطواة من يده بحركة مفاجئة من جانبي وهوت على الأرض في رنين مسموع، بعد أن جرحت أصابعه بمطواتي، وبدأ الدّم ينزف منها في ضوء مصباح الشّارع. وعلى الأثر عاجلت ديم قائلاً له «الآن يا ديم، هيّا نصلح الموقف بيننا نحن الاثنان». فأسرع ديم بفكّ السّلسلة من حول وسطه بخفّة تدعو إلى الاعجاب وهو يهمهم بأصوات حيوانيّة مبهمة. والآن فإنّ الأسلوب الأمثل لي في هذه المناوشة الجديدة هو أن ألتزم الانحناء مثل ضفدعة في تواثبها حماية لوجهي وعيني، وهو ما فعلته حقًّا يا إخواني، إلى درجة أن ديم بدا عليه شيء من الدّهشة إذ كان يعتمد في هجومه على الضّربات المتلاحقة على وجه خصمه، ولا بدّ أن أعترف أنّ ضرباته جعلت تنهال على ظهري حتّى أوجعتني، ولكنّ الألم حفّزني على سرعة العمل والحركة، و هكذا وجّهت طعنتين واطئتين بالمطواة إلى ساقه اليسرى مزّقتا ملابسه وأرسلتا نقطتين من الدّم، وشفعت هذا بضربة علويّة غرست المطواة في رسغ ديم حتى أسقط السّلسلة وأخذ ينهنه كطفل. وبعدها راح يحاول امتصاص الدّم من معصم يده وهو ينوح في الوقت نفسه. ولمّا رأيت الدم يسيل بغزارة بادرتهم قائلاً «صح! صح يا رفاق؟!»

فردّ بيتر قائلاً «أنا لم أقل أيّ شيء، أنا لم أقل كلمة واحدة. أنظر، أن ديم يسيل دمه حتى الموت!»

فقلت «مستحيل! الإنسان لا يموت إلّا مرّة واحدة. إنّ ديم مات قبل أن يولد، سيتوقّف هذا الدّم حالاً ذلك لأنّني لم أطعن يده في

موضع الشّرايين الرّئيسة». ولم ألبث أن أخرجت منديلاً من جيبي لتضميد يد ديم «المتألّم» الذي كان يتوجع ويولول، وفعلاً توقّف سيل الدّم كما قلت نعم، يا إخواني، هكذا عرفوا الآن من هو السّيّد والزّعيم هؤلاء النّعاج! ولم يطل الوقت لتهدئة روع هذين المجنّدين الجريحين في بار دوق نيويورك، ناهيك بما قدّم لهما من كؤوس «البراندي» المضاعفة (المشتراة من نقودهم الخاصّة، بعد أن أعطيت كل نقودي لوالدي) ثم زال الرّوع عنهما تمامًا بعد تنظيف الجروح بمنديل من ماء الدّورق. وكانت النّساء العجائز اللّواتي قابلناهنّ في المشرب في ليلتنا الفائتة موجودات، وقد بادرنن بعبارات «شكرًا لكم يا فتيان. بارك الله بكم يا أولاد!» ذلك وإن كنّا لم نكرّر عمليّة الكرم السّالفة، غير أنّ بيتر قال لهنّ «ماذا تطلبن يا بنات؟»

وأمر لهنّ بمشروب إذ بدا أنّ جيوبه عامرة بالنّقود، وهكذا ارتفعت أصواتهنّ أكثر فأكثر لاهجات بالشّكر والدّعاء، مختتمات بقولهنّ «أبداً لن نخون عهدنا معكم، ولن نشي بكم!»

وقلت لجورجي في النّهاية «الآن قد عدنا إلى سابق عهدنا، وتناسينا كلّ شيء. صح؟»

فقال جورجي «صح.. صح.. صح!»

غير أنّ ديم العتيد الذي كان في شبه ذهول قال وكأنّه كان يقتتل مع شخص آخر وليس معي «كان بإمكاني أن أحطّم (ابن الحرام) بسلسلتي، لولا أنّ أحدكم اعترض طريقي!»

قلت مرّة أخرى «حسنًا يا جورجي يا فتاي. ما الذي تفكّر فيه لنا؟»

فـردّ جورجـي قائـلاً «آه.. ليـس الليلـة.. ليـس هـذه الليلـة من فضلكم».

فقلـت «أنـت شـابّ قـويّ كبير، مثلنـا كلّنـا. نحن لسـنا أطفالاً صغارًا، أليس كذلك يا جورجي يا فتاي؟ فما الذي تفكّر فيه لنا؟»

وعاد ديم يقول «كان بإمكاني أن أفقأ عينيه بالسّلسلة».

ولم يلبث جورجي أن قال «كنت أفكّر في ذلك البيت، الذي أمامه مصباحان والذي يحمل اسمًا مثل أسماء القصور، أظنّه (مانشن).

ـ ماذا تقصد؟

ـ هـو البيت الـذي تقيم فيه امـرأة غنيّة جدًّا مع قططها وأشـيائها الثّمينة.

مثل؟

ـ مثـل الذّهب والفضّيـات والجواهر، إنّ (ويـلي الانجليزي) هو الذي قال هذا.

فقلـت وقد عرفـت موقع المـكان الذي أشـار إليه «بديـع جدًّا يا جورجي! فكرة طيّبة وتستحقّ أن ننفّذها فلنذهب في الحال».

وعند خروجنا من المشرب قالت النّسـوة العجائز «لن نقول شيئًا أيّها الفتيان، كنتم هنا معنا طوال الوقت»:

فقلت لهنّ «يـا للبنات الطّيّبات! وسـنعود بعد عشر دقائق لشراء مزيد من المشروبات».

وهكـذا تقدّمت رفاقـي الثّلاثة في عمليّة كان فيهـا القضاء المبرم على...

الفصل السّادس

كانت تمتدّ شرقًا بعد حانة دوق نيويورك سلسلة أبنية للمكاتب ثمّ مكتبة البلديّة، وبعدها عمارة سكنيّة باسم «فكتوريا فلا تبلوك»، وفيما وراءها منطقة بيوت الأغنياء القديمة التي يقطنها عادة الضّباط المتقاعدون والارامل العجائز اللّواتي تقتنين القطط. وكانت هذه البيوت تضمّ حقًّا تحفًا وأشياء ثمينة تدر نقودًا كثيرة في أسواق السّياحة والسّيّاح، مثل اللّوحات الفنيّة والجواهر والتّحف النّادرة وما إليها. وهكذا وصلنا في هدوء ويسر إلى البيت المعروف باسم «مانشن»، الذي قامت أمام بابه الخارجي كرتان مضيئتان فوق عمودين حديديّين كأنّهما ديدبانان، ولاح لنا ضوء من نافذة إحدى حجرات الطّابق الأرضي، فتقدّمنا أوّلاً إلى بقعة منعزلة للمراقبة من خلال النّافذة واستطلاع ما يدور بداخلها. وكانت النّافذة شبكة لقضبان حديديّة وكأنّ البيت سجن، ولكنّنا استطعنا أن نرى ونراقب ما يجري بكل وضوح. وقعت أنظارنا على امرأة عجوز ذات شعر شائب ووجه كثير التّجاعيد، وكانت تصبّ من زجاجة في يدها

لبنًا في أطباق صغيرة ثم تضعها على الأرض، وهو ما دلّنا على وجود قطط كثيرة تموء وتتواثب في الحجرة. وكان بوسعنا أن نبصر تلك العجوز وهي تخاطب القطط وتزجرها في الوقت نفسه. ولمحنا في الحجرة صورًا نفيسة معلّقة على الجدران، وساعات مزخرفة ثمينة، وزهريّات ومقتنيات كثيرة غالية القيمة، حتّى أن جورجي همس قائلاً «يا له من مال كثير نناله في مقابل هذه الاشياء يا إخواني! أن (ويلي الانجليزي) ينتظرها بفارغ الصّبر».

فقال بيتر «وكيف الدّخول؟ كان الرّدّ من اختصاصي، وقبل أن يتفوّه جورجي بكلمة قلت بصوت منخفض «أوّل شيء هو أن نجرّب الطّريقة المعتادة - الباب الأمامي - سأتقدّم بكلّ أدب وأقول أنّ أحد أصحابي أصيب بنوبة إغماء في الشّارع، ويكون جورجي مستعدًّا للظّهور عندما تفتح العجوز الباب، ثمّ أطلب منها كوب ماء أو الاتّصال هاتفيًّا بطبيب، ومسألة الدّخول بعد ذلك سهلة».

فقال جورجي «ربما لا تفتح الباب».

ـ سوف نجرّب..

ثم قلت لبيتر وديم «أنتما يا إخواني ستقفان على جانبي الباب. صح؟»

فأومـآ ايجابًا في الظّلام، وفي الحال تقدّمت بشجاعة إلى الباب الأمامي، وضغطت على جرس الباب حتّى سمعت الرّنين يتردّد

في الرّدهـة. ولمّا لم اسـمع مجيبًا أدنيت فمي من فتحـة صندوق البريد وناديت من خلالها بصوت مهذّب «النّجدة يا سيّدتي من فضلك! لي صاحب أصيب بنوبة في الشّـارع، فأرجو تمكيني من الاتّصال هاتفيًّا بطبيب». وبعد قليل رأيت ضوءًا ينبعث في الرّدهة، ثمّ سـمعت وقع خطى المرأة العجوز في (الشّبشـب) وهي تقترب من الباب الأمامي، ولا أدري لماذا خطر لي أنّها جاءت تحمل قطّتيْن كبيرتيْن تحت إبطيها. وأخـيرًا نادت بصوت قويّ قائلة «ارجع! ارجع وإلّا أطلقت النّار». كاد جورجي يضحك عندما سمع هذا، أمّا أنا فقلت بلهجة الملهوف النّبرة المهذّبة نفسـها «أرجو المساعدة يا سـيدتي! إنّ صاحبي في حالة سـيّئة جدًا». فجاء ردّهـا قائلة «اذهب! أنا أعـرف خدعكم القذرة، تجعلوننـي أفتح الباب ثم تبيعون أشـياء لا أريدهـا، قلت لك اذهب وابتعد، وإلّا أطلقت عليك قططي!»

في هـذه اللّحظـة لاحت منّـي نظرة إلى نافـذة علويّة فـوق الباب الأمامي، ورأيت أنّ هذه وسـيلة سريعة للتّسـلّق والدّخول من هذه النّافذة، وإلّا أمضيت اللّيل كلّه في المجادلة مع العجوز. وهكذا قلت لها «حسـنًا يا سـيّدتي. ما دمت لا تقدّمين المسـاعدة فلا بدّ لي من أخذ صاحبـي المريـض إلى مـكان آخـر». وأشرت إلى زملائـي أن يلزموا الهـدوء ورفعت صـوتي باتّجاههم قائـلاً «لا بأس يا صاحبي! سـوف نجـد بالتّأكيـد شـخصًا خيّرًا في مـكان آخـر، ربّما لا يمكـن أن نلوم هذه السّـيّدة المسنّة لشـكّها، وهناك أشقياء وأشرار كثيرون يتجوّلون

ليـلاً». وانتظرنا قليلاً في الظّلام، ثم قلت لهم همسًـا «لا بأس! اقتربوا من الباب، سـأصعد على كتفي ديم وأفتح هذه النّافذة وأدخل منها، وعندها سأسكت تلك العجوز وأفتح لكم الباب لا صعوبة أبدًا».

بهـذا أردت أن أبـيّن لرفاقـي مـن هـو الزّعيم الفعـلي وصاحب الافـكار النّـيّرة. وقد قلت لهم «انظروا إلى هـذا الأفريز فوق الباب! هـو خـير موطـئ لقدمـي، فنظـروا، وأعجبـوا بالفكـرة، وأومـأوا برؤوسـهم مؤيّديـن. كان ديم هـو أقوانا، وهكـذا رفعني جورجي وبيـتر على كتفيه العريضيْن دون أن يفطـن أحد إلى شيء غير عادي، لخلوّ المنطقة من المارّة وقلّة رجال الشّرطة. وكان الافريز متينًا يحتمل ثقلي. وكانت النّافذة العلويّة مغلقة، ولكنّني أخرجت مطواتي الحادّة وشـققت الزّجـاج بمقبضهـا العظمـى، ورفاقي يراقبـون من تحتي محتبسي الأنفاس. ولم ألبث أن مددت يدي من خلال الشّق وأنزلت نصـف النّافـذة السّـفلى بسـهولة، ثم انزلقـت إلى الدّاخـل كما كنت أنزلق إلى (البانيو). حتّى لقد وقف رفاقي فاغري الافواه منبهرين يا إخـواني! ألفيتني في ظلام نسـبي ومن حولي أسرّة ودواليب ومقاعد ثقيلة، وأكوام من العلب والكتب، بيد أنّني تقدّمت بجرأة إلى الباب الـذي كان له صرير خافت عندما فتحته، ثـمّ ألفيتني في ردهة متربة بهـا أبواب أخـرى. إنّ كلّ هـذا الاسراف كان معناه يا إخـواني، أنّه ليـس هناك سـوى مخلوقة عجـوز وقططها، فالقطط تنـام منفردة في كل غرفـة قطة، تعيش عـلى اللّبن ورؤوس السّـمك وكأنّها ملكات

أو أميرات. وكان بوسعي أن أسمع صوت العجوز في الدّاخل وهي تناجي القطط إذ تموء طلبًا لمزيد من اللّبن، ورأيت أمامي سلالم تهبط إلى الردهة، فبدا لي أن أثبت لرفاقي التّافهين هؤلاء أنّني أقدر من ثلاثتهم جميعًا ومثلهم معهم، وأنّ بوسعي أن أتمّ العمليّة كلّها وحدي دون مساعد ولا نصير. سأهجم على العجوز وقططها هجمة مباغتة، ثم أملأ يدي بما خفّ حمله وغلا ثمنه، وبعدها أعود إلى الباب الأمامي بحملي الثّمين وأريهم الغنيمة بذهبها وفضّتها تخطف أبصارهم وتذهب بألبابهم، وعندها يعرفون كلّ شيء عن الزّعامة الحقيقيّة.

هكذا أخذت أهبط برفق ومهل، معجبًا بلوحات معلّقة من العهد القديم تمثّل نساء مرسلات الشّعر بياقات عالية، وحقولاً مخضرّة ذات أشجار باسقة تتوسّطها جياد مطهمة، ونفذت إلى أنفي روائح عطنة لقطط ورؤوس أسماك وجو معفر بالغبار. وبعد هبوطي إلى الدّور الأرضي كان بوسعي أن أبصر الضّوء في تلك الغرفة الأماميّة التي كانت فيها العجوز توزّع اللّبن على قططها. هذه القطط التي رأيتها الآن عن كثب تروح وتغدو محرّكة أذيالها متمسحة بعتبة الباب، ووقع نظري في الرّدهة المعتمة على صندوق خشبيّ كبير علاه تمثال لطيف بارق في الضّوء لفتاة نحيلة القوام واقفة على ساق واحدة ويداها مبسوطتان إلى الأمام، وبدا لي أنّه مصنوع من الفضّة، فقرّرت أن آخذه لنفسي، وحملته معي وأنا أتقدّم إلى الغرفة المضاءة قائلاً «ها

هـا!.. ها نحن قد تقابلنا، الظّاهر أنّ حديثنا من خلال فتحة البريد لم يكن مرضيًا. فلنتعرّف أيّتها العجوز العجفاء العطنة».

قلـت هذا وأنا أطرف بعينـي في ضوء الغرفة والقطط تحوم أمامي فوق السّـجادة ونثار شـعرها يملأ طبقة الهواء الأرضيّة وهي من كلّ الأشـكال والألـوان والأعمار والأمزجة. وما لبثـت أن رمتني بنظرة شزراء كأنّها رجل وبادرتني قائلة «كيف دخلت إلى هنا؟! مكانك أيّها الوغـد الشّرير، وإلّا اضطررت أن أضربك». لم أتمالك من الابتسـام لهـذا التّهديـد، وكانت ممسـكة في يدهـا المعروقة بعصا خشـبيّة تتوكّأ عليها وقد رفعتها نحوي متوعّدة لكنّني تقدّمت نحوها متمهّلاً، وفي طريقي لمحت فوق دولاب جانبي شـيئًا صغيرًا بالغ الابداع، بل هو أبدع شيء تهيّأ لمن كان مثلي متيّمًا بالموسيقى أن تكتحل عيناه برؤياه، إذ كان تمثالاً نصفيًّا للموسـيقار الأكبر «بتهوفن»، ازدان بشـعره المرسل وربطة عنقه، وسرعان ما اتّجهت إلى مكان التّمثال بعينين مشـغوفتين ويدين ممدودتين، وفي ذلك لم أبصر أطباق اللّبن المنثورة على الأرض، فزلّـت قدمـي بواحـد منها وفقـدت تـوازني، ولما حاولت التّماسـك كانت العجوز الماكرة قد جاءت من خلفي بأسرع مما يسـمح به سنّها وأخذت تنهال بالعصا على رأسي، حتى ألفيت نفسي ملقى على يدي وركبتـي وأنـا أردّد «يا شريرة، يا شريرة، يا شريرة!» بيد أنّها لم تكف، ومضت تهوي على رأسي بعصاها وهي تقول «يا أحقر وأحط مخلوق في الدّنيا، تقتحم بيوت النـّـاس الأكابـــر هكـــذا!»

ولمّا تضايقت من هذا الضّرب الموجع عاجلت أن أمسك بطرف العصا وهي تهوي على رأسي ممّا أدّى الى أن تفقد العجوز توازنها هي الاخرى، وفي محاولة منها للاستناد الى المائدة جذبت المفرش الذي يعلوها، فتدلّى بقوّة وطوّح معه بإبريق وزجاجة لبن انسكب ما فيها وتناثر في الانحاء كافّة، وهوت العجوز بدورها على الأرض وهي تزمجر «لعنة الله عليك يا شقي، سوف تنال جزاءك!» عندئذ هبّت القطط مذعورة تتواثب في كلّ مكان وهي تموء مواء مؤثّرًا وترتطم بعضها ببعض في هرج ومرج بالغيْن. وعاجلت الوقوف على قدمي في اللحظة التي كانت فيها تلك العجوز الكريهة الحقودة تحاول النّهوض بدروها وهي تزمجر وتدمدم، فما كان منّي إلّا أن رفستها بقدمي في وجهها المعروق المبقع مما زاده تبقعًا وهي لا تكفّ عن الصّراخ. وفي تراجعي إلى الخلف بعد هذه الرّكلة لا بدّ أنّني دست بقدمي على إحدى القطط، إذ سمعت مواءها شرسًا، وأحسست بأسنان ومخالب تطبق على ساقي، فأخذت ألعن وأشتم محاولاً تخليص ساقي، وفي غضون ذلك كنت لا أزال ممسكًا التّمثال الفضّي بيدي محاولاً أن أخطو فوق العجوز اللّعينة وهي على الأرض للوصول إلى مكان تمثال «بتهوفن» النّصفي، ولكن مرّة أخرى وجدتني وقد زلّت قدمي في طبق آخر مليء بالكريم، وإذا بي أتطاوح مرّة ثانية في الهواء في منظر يثير الضّحك لمن يراقب عن بعد، لولا أنّه منظر محدّثكم المتواضع. واستطاعت العجوز وهي على الأرض

أن تمـدّ يدهـا من فوق القطط وتمسـك بقدمـي، فهويت على الأرض هـذه المرّة، فيما بـين وعاء اللبـن والقطط المزمجرة، وأنشـأت العجوز تضربنـي بقبضتيها على وجهي وكلانا ممدّد على الأرض وهي تصرخ مسـتنجدة بقططها «اضربوه! انهشـوه! انزعوا أظافره! ابن الخنفساء السامة!» وكأنّما سـمعت القطط وفهمت وأطاعت، فقد وثب فوقي قطّـان كبيران شرسـان وأخـذا يخدشـانني، فأثارني ذلك يـا إخواني، وجعلـت أوجّه ضرباتي إليهما، ولكنّ العجـوز اللّعينة صاحت قائلة «لا تلمس قططي يا سـافل!» وخدشـتني في وجهـي، وعندئذ ثارت ثائـرتي ورفعت التّمثال الفضّي وأنا أشـتمها شـتمًا قبيحًا، وأهويت به على رأسها، فسكنت تمامًا.

ومـا إن نهضـت قائمًا من بـين القطط الهائجة حولي حتّى سـمعت ويـلي ما سـمعت! دوّى صـوت (سرينـة) الشّرطة عن بعـد، فتبيّنت الآن في بارقة فكر خاطفة أنّ العجوز الخبيثة اتّصلت بالشّرطة هاتفيًّا، وكنـت أتوهّم أنّها تناجي قططها حالما دقـقـت الجرس بإلحاح مما أثار شكوكها، وهكذا أسرعت إلى الباب الأمامي وأنا أتعثّر في فتح الاقفال والسّلاسل والزّلاجات كافّة التي كانت تحصّن الابواب، ولّما فتحت البـاب أخـيرًا، فمن تظنّون أنّـه كان واقفًا أمامه سـوى ديم؟ ولمحت بنظرة خاطفة رفيقي الآخرين يلوذان بالفرار. وقتها صرخت في ديم قائـلاً «ابتعد بسرعة! الشّرطة في الطريق». فردّ ديم مقهقهًا «انتظرت أنت لمقابلتهم». ولمحت السّلسـلة في يده وعاجلني بضربة أهوى بها

على جفوني، ولولا أنّني أغمضتها بسرعة لفقدت البصر، ثمّ ألفيتني أدور حولي صارخًا من فرط الألم وأنا لا أكاد أبصر. وعاد ديم يقول «لم أكن أحب أن تفعل بي ما فعلت أيّها الزّميل الحميم! ولم يكن من المناسب أن تهاجمني كما هاجمتني، يا حقير!» وعلى الأثر سمعت وقع حذائه الثّقيل وهو يركض مبتعدًا في الظّلام ولا يكفّ عن القهقهة ولم يمض أكثر من ثوانٍ معدودةٍ حتّى كانت سيّارة الشّرطة تتوقّف عن كثب بعد أن أرسلت سرينتها عويلاً مشؤومًا، وكنت أتخبّط بين جدران المدخل مغمضًا وعيناي تسحّان سحًّا عندما داهمني رجال الشّرطة وأطبقوا عليّ وحملوني إلى الخارج. وكان بوسعي أن أسمع صوت أحدهم وهو يقول من داخل الغرفة التي كنت فيها مع القطط «إنّها مضروبة ضربًا مميتًا، لكنّها تتنفّس. وسمعت صوتًا آخر وهو يدفعني بغلظة وعنف إلى داخل السّيّارة قائلاً «هذا من دواعي سرورنا العظيم، يا أليكس الصّغير!» فلم أتمالك أن صرخت «أنا أصبحت مكفوفًا أهلككم الله، يا أولاد الحرام!» فسمعت من يقول ويده تلطم فمي «تهذّب! تهذّب!» غير أنّني لم أصمت، ورحت أقول «يا ملاعين! أين الآخرون؟ أين زملائي الخونة الأوساخ؟ إنّ واحدًا منهم ضربني بالسّلسلة على عيني! الحقوا بهم قبل أن يفلتوا! كانت كلها فكرتهم يا إخواني، فهم أجبروني على أن أفعل هذا، أنا بريء، قاتلكم الله!» راحوا يبتسمون بمنتهى الاستخفاف وهم يدفعونني إلى داخل السّيّارة في المقعد الخلفي، لكنّني تابعت الحملة

على أصحابي المزعومين، وإن بدا لي أنّه لا فائدة من هذا، لا بدّ أنّهم قد عادوا الآن إلى بار دوق نيويورك وأخذوا يتحفون أولئك النّسوة العجائز بالشّراب وهنّ لا يشبعن من تكرار هذه العبارات «شكرًا يا فتيان، بارك الله بكم يا أولاد! كنتم هنا طوال الوقت يا شباب، ولم تغيبوا عن أنظارنا لحظة واحدة». وأثناء ذلك كانت سيّارة ماضية في طريقها إلى قسم الشّرطة وسرينتها الزّاعقة لا تكفّ عن الولولة وأنا أجلس بصعوبة بين اثنين من رجال الشّرطة كانا لا يكفّان عن اغلاق فمي بأيديهما الغليظة كلّما تماديت في الاحتجاج، وعندما استطعت فتح عيني في النهاية رأيت من خلال الدّموع مدينة تنطوي تباعًا والانوار تتلاحق بعضها أثر بعض والشّرطيّين اللذين جلست بينهما لا يكفّان عن الابتسام والسّائق النّحيل الدّقة عاكف على عجلة القيادة وإلى جانبه آخر غليظ الرّقبة هو الذي كان يوجّه الكلام إليّ قائلاً «حسنًا يا أليكس يا بني، إنّنا جميعًا مشتاقون إلى أمسية سارّة معك، أليس كذلك؟»

قال أليكس «كيف تعرف اسمي يا شبيه الثّور؟ أدعو الله أن يطوّح بك في قرار الجحيم!»

فتقبّلوا هذا بمزيد من الابتسام مع ما تيسّر من الوكز من قبل الشرطيّين اللذين جلست بينهما، بينما ردّ الشّرطي غليظ الرّقبة قائلاً «كلّ النّاس تعرف أليكس الصّغير ورفاقه، إنّ أليكس قد أصبح مشهورًا جدًّا».

فصحت قائلاً «إنهم هم المذنبون، جورجي وديم وبيتر، إنّ أولاد الحرام هؤلاء ليسوا أصحابي!»

فقال الغليظ العنق «لا بأس... أمامك اللّيل بطوله لكي تحكي حكايتك كلّها ومغامراتك الجريئة مع هؤلاء السّادة الفتيان، وكيف قادوا أليكس الصّغير البريء إلى طريق الفساد؟» وعندئذ ترامى إلى سمعي صوت (سرينة) سيّارة بوليسيّة أخرى، ولكنّها كانت تسير في الاتّجاه الآخر، فقلت «أهذه السّيّارة من أجل أولاد الحرام هؤلاء؟»

فأجاب غليظ العنق «هذه سيّارة اسعاف هي بلا شك في الطّريق إلى ضحيّتك العجو، أيّها الوغد البشع!» فصرخت قائلاً وأنا أطرف بعيني الموجوعتين بشدّة «الذّنب ذنبهم، إنهم يشربون الآن في بار دوق نيويورك، اقبضوا عليهم، لعنة الله عليكم!» ومرّة أخرى كان الابتسام يا إخواني والوكز على الفم ولّما وصلنا إلى قسم الشّرطة ساعدوني على النّزول من السّيّارة وصعود درجات السّلّم بالدّفع والرّكل، وأيقنت أنّني لن أنتظر أدنى رحمة ولا رفق من هؤلاء الزّبانية، قبّحهم الله!»

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

أخـذوني إلى داخل هذه (المضيفة) ذات الطّـلاء الأبيض الزّاهي، وكانت تفوح منها رائحة نفاذة هي خليط من روائح القيء والمراحيض والافـواه المخمـورة والمطهّرات، تنبعث كلّها من الزّنزانات المشـبّكة بالقضبـان عن كثب، ممتزجة بأصوات الشّـباب والغناء الصّادرة من نزلائهـا. وكان يتخلّلها أصوات رجـال الشّرطة وهم ينهرونهم لكي يصمتوا، بل سمعت خلال هذا كلّه أصوات من يضربون لخروجهم على النّظام، وخيّل إليّ أنّ من بين هؤلاء صوت امرأة سـكرانة. وكان معـي في المـكان الذي أدخلت إليـه أربعة من رجال الشّرطة جلسـوا إلى طاولة يشربون شـايًا من إناء كبير وهم يتجشأون تلذّذًا ومتعة ولم يقدّموا لي شيئًا ممّا يحتسون، وكلّ ما قدّموه لي هو مرآة متآكلة يا إخواني لكـي أنظر فيها. وحقًّا لم أكن ما أبصرتـه هو وجه محدّثكم المتواضع، بل كان مشـهدًا مؤثّرًا بدا فيه الفم منتفخًا والعينان حمراوين والأنف أفطس. ولم يتمالك رجال الشّرطة من الابتسام عندما شاهدوا جزعي وارتياعي حتّى قال قائل منهم متفكهًا «أرأيت جمال محياك؟»

وبعد قليل جاء ضابط تعلو كتفيه نجوم لامعة لبيان قدره ومنزلته بينهم، وعندما رآني لم يزد عن قوله «ابدأوا».

فقلت «لن أقول كلمة واحدة ما لم يحضر معي محامي. أنا أعرف القانون يا ملاعين!» ابتسموا جميعًا ابتسامات عريضة لهذا الكلام. وقال الضّابط «صح.. صح.. صح يا أولاد! سنبدأ معه بأن نريه أنّنا أيضًا نعرف القانون!» لكن هذه المعرفة بالقانون ليست كلّ شيء! كانت لهجة الضّابط رقيقة مهذّبة، ولكنّها كانت تنبّئ عن التّعب. وما لبث أن أومأ برأسه بابتسامة إلى شرطيّ ضخم سمين، فنزع هذا الشّرطي الضّخم السّمين كسوته حتّى بدا كرشه في مثل ضخامته، ثم تقدّم مني غير متعجّل ورائحة الشاي باللبن الذي كان يشربه تفوح قويّة من فمه المنفرج سخرية منّي، ولم يكن حليق الوجه تمامًا كما ينبغي لرجل الشّرطة، وبدت بقع من العرق الجاف تحت إبطي قميصه. وما إن اقترب منّي حتى أطبق يده المحمّرة الزّنخة وسدّد ضربة في صميم بطني ممّا لم يكن من العدل في شيء، فتلقّى زملاؤه هذا بالابتسام فيما عدا رئيسهم الضّابط الذي لم تفارق وجهه ابتسامة التّعب والتبرم. وكان من تأثير الضّربة أنّني استندت إلى الجدار المطلي حتّى التصق الطّلاء الأبيض بملابسي في محاولتي لالتقاط انفاسي في ألم وكرب بالغين، ووقتها أردت أن أقيء الفطيرة التي كنت قد تناولتها في مستهلّ الأمسية، لكنّني لم أحتمل أن أقيء على الأرض، وهكذا تماسكت. وعندما لمحت هذا الشّرطيّ الضّخم السّمين

يستدير مواجهًا زملاؤه بابتسامة عريضة رضا عمّا فعله، رفعت قدمي اليمنى، وقبل أن يحذّروه رفسته رفسة قويّة في قصبة السّاق، فصرخ عاليًا وأخذ يحجل وهو يدور حول نفسه.

لكن بعد هذا تتابعوا جميعًا كلّ بدوره، يتقاذفونني بينهم مثل كرة صمّاء... آه يا أخواني!.. لقد انهالت لكماتهم أسفل بطني وفمي مشفوعة بركل الاقدام، حتّى لم أتمالك أن تقيأت على الأرض، وإن رحت أقول لهم «آسف يا أخواني، لم يكن هذا لائقًا منّي. آسف.. آسف!»

لكنّهم أعطوني قصاصات جريدة وجعلوني أمسح القيء، وأنثر بعد المسح نشارة الخشب، وبعد ذلك قالوا لي متودّدين كما لو كنّا أصحابًا، أن أجلس ليدور بيننا حديث هادئ.

ثمّ جاء السّيّد دلتريد المشرف الاصلاحي وكان مكتبه في المبنى نفسه والتّعب والضّيق بادٍ عليه، فبادرني قائلاً «إذًا فقد حدث ما كنت أتوقّعه يا أليكس يا ولد؟! يا للخسارة!»

ثمّ التفت إلى رجال الشّرطة قائلاً «مساء الخير أيّها المفتّش، مساء الخير أيّها الرّقيب، مساء الخير جميعًا. لا بأس! هذه خاتمة المطاف فيما يختّص بي. العنف يولّد العنف. لقد قاوم معتقليه الشرعيين».

فقال دلتويد مرة أخرى «هذا خاتمة المطاف فيما يختص بي».

ونظر إليّ بعينين باردتين جدًّا كما لو كنت قد استحلتَ إلى جماد ولست بشرًا مثخنًا بالضّرب مضعضعًا داميًا،

ثم قال «أظنّ أنّه لا بدّ أن أوجد في المحكمة غدًا».

عندئذ قلت له وأنا أقرب إلى البكاء «لم أكن أنا السّبب يا سيّدي الأخ، إن غدر وخيانة الآخرين هو ما استدرجني إلى هذا يا سيدي. فقال الضّابط ساخرًا «يا للكلام المعسول!» وقال السّيّد دلتويد ببروده البالغ «سوف أتكلّم، سأكون هناك غدًا، فلا تقلق». فقال الضابط «إن أردت يا سيّدي أن تتحفه بشيء من عندك فلن نمانع، بالامكان أن نمسك به لك. لا بدّ أنّه كان مصدر خيبة أمل كبرى لديك!» وهنا أقدم السّيّد دلتويد على شيء لم أتصوّر قطّ أنّ رجلاً مثله، يفترض فيه العمل على اصلاح المنحرفين أن يقدم على مثله، خصوصًا في حضور أفراد الشرطة! فقد اقترب منّي وبصق، بصق على وجهي بملئ فمه ثمّ مسح فمه المبلّل بظهر يده. أمّا أنا فقد رحت أمسح وجهي مرّة وثانية وثالثة بمنديلي الملوّث بالدّم وأنا أقول «شكرًا لك يا سيدي! شكرًا جزيلاً يا سيّدي! هذا لطف عظيم منك يا سيّدي، شكرًا لك!» ثمّ خرج السّيّد دلتويد دون كلمة أخرى. واستعدّ رجال الشّرطة لاعداد المحضر المطلوب وتوقيعي عليه، فقلت لنفسي «سحقًا لكم جميعًا! إذا كنتم بهذه النّذالة وأنتم في جانب الاصلاح، فكم يسرّني أن أكون في الجانب الآخر!» وهكذا قلت لهم بصوت مرتفع «لا بأس يا ملاعين! خذوا منّي ماتريدون! لن ألجأ إلى الاستعطاف أمامكم والزّحف على ركبتي. من أين تريدون أن أبدأ يا حيوانات؟ من مرحلتي الاصلاحيّة؟ هاكم إذًا

كل ما تريدون». وهكذا رحت أسرد أمامهم كلّ شيء، وأمامي كاتب الاختزال الرّسمي ذلك المخلوق النّحيل البائس يدوّن صفحة بعد صفحة منذ بداية المغامرات الليلة الأخيرة، من ضرب وتحطيم وسطو واغتصاب، إلى اقتحام بيت العجوز صاحبة القطط المتواثبة. وقد حرصت على بيان دور أصحابي المزعومين في كلّ تلك الافعال، وما إن انتهى المختزل البائس من تدوين كلّ وقائع المحضر حتّى بدأ أقرب إلى الاعياء. فقال له الضّابط متلطفًا «حسنًا يا بني، قم وخذ كوبًا من الشّاي ينعشك، ثمّ انسخ لنا كلّ هذه القاذورات من ثلاث صور بعد أن تسدّ أنفك بمشبك غسيل! وبعد هذا هات المحضر كلّه إلى صديقنا الصّغير ليمهره بامضائه الكريم».

ثم التفت إليّ قائلاً «وأنت بإمكانك الآن أن تذهب معهم إلى (جناح الزّفاف) ذي المياه الجارية وكلّ وسائل الرّاحة». واختتم بصوته المكدود قائلاً لاثنين من رجاله الأشدّاء «خذوه!» وهكذا اقتادوني بالعنف والرّكل واللّكم الى قسم الزّنزانات وأودعوني في واحدة منها تضمّ عشرة أو اثني عشر من المقبوض عليهم، أغلبهم من السّكارى. كان بينهم أنواع كالحيوانات، منهم مخلوق متآكل الأنف وفمه مفغور مثل جب مظلم، وثالث بدا وكأنّه تغوّط في بنطاله، ثمّ كان بينهم اثنان راحا ينظران إليّ نظرات غريبة. وعندما حاول أحدثهما الاقتراب منّي اعترضه الثّاني لكي يسبقه، فتماسكا وتضاربا وكان لهما صياح استقدم اثنين من رجال الشّرطة انهالا عليهما بعصى

غليظـة قصيرة حتّـى ارتدّا خافين مقهورين ولزما السّـكون مكانهما، وإن بـدت قطـرات الـدّم تتحـدّر من فـم أحدهمـا. وكان في الزّنزانة دكك ذات سطحين، قائمة على أربع أعمدة، ولكنّها كانت مشغولة، فتسـلّقت إلى سطح إحداها وكان بها سكّير يغطّ بصوت عال، ولعلّ الشّرطـة هـم الذين طوّحـوا به عاليًا، فـما كان منّـي إلا أن جذبته إلى أسفل إذ لم يكن ثقيلاً، فهوى فوق سكّير سمين آخر كان على الأرض، ولكنّهما أفاقا وأخذا في الصّراخ وتبادلا الوكز بصورة مؤثّرة، وهكذا تمدّدت يا إخواني فوق سـطح هذه الدّكـة الكريهة الرّائحة، وسرعان ما غلبني الاعياء والضّنى واستسـلمت للنّوم بـدا وكأنّني انتقلت به إلى عـالم آخر أفضل. وفي هـذا العالم الأفضل رأيت يا إخواني وكأنّني في حفـل كبـير تتخلّلـه الاشـجار والازهار وبه ما يشـبه عنـزة بوجه رجل يعزف على مزمار، ثمّ بزغ أمامي كما تبزغ الشّمس وجه بتهوفن ذاته، وسـمعت السّيمفونيّة التّاسـعة تعزف في مقاطعها الأخيرة. فما استـيقظت من نومـي الرّحيم بعد دقيقتين أو عشر أو عشرين سـاعة أو أيّام أو سـنوات إلّا على صوت يوقظني بعنف، وإذا شرطي أسفل منّي بما بدا أنّه مسـافة أميال ينخسـني بعصا مدبّبة في طرفها شـوكة، ويقـول لي:اصحو يا بُني! اصحو يـا (حليوة)! اصحو لمواجهة المتاعب!» لماذا؟.. من؟.. أين؟.. ماذا جرى؟! وتلاشـى من داخلي عزف النّغم العـذب، ثم عـاد الشّرطي يقول «انزل واعرف نفسـك، هناك أخبار سـارّة لك يا بني». وهكذا رحت أنزل متصلبًا موجعًا وأنا في نصف

يقظـة. ومـا لبث هـذا الشّرطي الذي كانـت تفوح منـه رائحة الجبن والبصـل أن أخذ يدفعني من الزّنزانة القـذرة المتجاوبة بالغطيط عبر ممـرّات وما زالت أصداء السّـيمفونيّة السّـاحرة مـتردّدة في وجداني. وصلنـا إلى غرفـة نظيفـة بهـا آلات كاتبة وزهـور فـوق المكاتب وقد جلـس الضّابط إلى المكتب الكبير وعلى وجهه ملامح الجدّ والخطورة مركّـزًا نظـرات باردة جـدًا على وجهـي، فقلت له «حسـنًا، حسـنًا، حسنًا! ماذا جرى في الدّنيا؟» فقال لي «سأمهلك عشر ثوان فقط لكي تزيل عن وجهك تلك البسمة الغبيّة، وبعدها أريد أن تنصت، فقلت باسـمًا «حسـنًا..ماذا؟ ألم يكفكم أنّكم ضربتموني ضربًا مهينًا وجئتم بمن يبصق على وجهي وأجبرتموني على الاعتراف بجرائم استغرقت سـاعات بطولهـا، ثم طوّحتـم بي بين أحقر المجرمين في هـذه الزّنزانة العفنـة؟! هـل عندكم عذاب جديـد لي أيّها الملاعـين؟» فقال بلهجة الجـدّ «سـيكون العذاب منك وإليك، أدعـو الله أن يوصلك العذاب إلى الجنون!» وعندئذ، وقبل أن يفضي إليّ بما يقصد، علمت من تلقاء نفسي بما جاء به، فإنّ المرأة العجوز صاحبة القطط قد انتقلت إلى عالم آخر أفضل في إحدى مستشفيات المدينة، والظّاهر أنّني وجّهت إليها ضربة كانـت القاضية. هكذا حرمت القطط من مربّيتها الحنونة التي كانت تسـقيها اللّبن، وكنت أنا القاتل، ولم أتجاوز الخمسة عشر عامًا من عمره بعد!

القسم الثّاني

الفصل الأوّل

ماذا سيكون إذًا، يا ترى؟

أعـود الآن إلى استـئناف سرد قصتـي، يـا إخـواني وأصدقائـي الوحيدين، وهو الجانب المبكي والمأساوي في القصّة، بدءًا من السّجن العمومـي، وقـد لا تكون لديكم رغبة في الاستـماع إلى هول الصّدمة التـي جعلـت أبي يضرب يديـه في الجـدران حتّى أدماهمـا، وأفضت بأمّـي إلى التواء فكّيها توجّعًا وأنينًـا في تفجّعها لما انتهى إليه وحيدها وفلـذة كبدها من مصير مشـؤوم. ولـن أفيض كثـيرًا في الحديث عمّا تفـوّه به قاضي الاحالة مـن تلك الكلمات القاسـية في حقّ صديقكم ومحدّثكم المتواضع، في أعقاب ما نالني قبلها من بصق السّـيّد دلتويد على وجهي واذلال رجال الشّرطة لي، ثمّ كانت المحاكمة في المحكمة العليـا أمام القضاة والمحلّفين وما اقترن بها من تلك الأقوال اللاذعة والنعوت الدّامغة تفضّلوا بها بكلّ رصانة ووقار، ثمّ صراخ أمّي عند صدور الحكم بالإدانة والسّجن لمدّة أربع عشرة سنة، أواه يا أخواني! وهأنـذا الآن وقـد انـصرم عامـان منـذ.اليوم الـذي أدخلـت فيه إلى

السّجن العمومي تركلني الأقدام وتعلوني كسوة السّجن طبقاً لآخر صيحة في عالم الأزياء بذلة من قطعة واحدة ذات لون قبيح، مزدانة برقم خيط على الصّدر فوق موضع القلب الخافق وعلى الظّهر أيضًا، ولا أغدو إلّا معروفًا برقم 6655321، وليس صاحبكم الصّغير أليكس الذي لم يبق لاسمه وجود. لم يكن من المجد في شيء أن أحل على مدار عامين في ذلك الجحر من الجحيم أو (حديقة الحيوان البشرية) أتلقّى فيها الضّرب والرّكل على أيدي حرّاس قساة غلاظ الأكباد وأخالط حثالة المجرمين ومنهم عتاة من معتادي الاجرام يتحفّزون للانقضاض على فتى غضّ مثل راوي هذه القصة لكم، ثم كان هناك ذلك العمل الاجباري في ورش السّجن لصنع علب الكبريت وما إليها، وبعدها الدّوران إلى ما لانهاية في ساحة السّجن فيما يسمّونه التّمارين الرّياضيّة، ثم نقاد في بعض الأمسيات كالقطيع للاستماع إلى بعض الأساتذة المتحذلقين يحدّثوننا أحاديث غريبة عن الخنافس أو (درب التّبانة) أو عجائب رقائق الثّلوج. وفي الحقّ أنّني لم أتمالك نفسي من الابتسام عند سماعي اسم هذه الرّقائق، فقد ذكّرتني بتلك المناسبة التي لم أنسها عندما قمت مع رفاقي السّابقين بالاعتداء بالضّرب الوحشي ليلاً على ذلك المدرّس الذي كان خارجًا لتوّه من مكتبة البلديّة متأبّطًا كتبه المستعارة حين كان أولئك الرّفاق على ولائهم لي وبعدهم عن خيانة عهد الزّمالة وكنت أنا سعيد حرًّا وعن أولئك فلم أعد أسمع شيئًا، إلّا عندما زارني أبي وأمّي

في السّـجن وقيـل لي أنّ جورجي قد لقى حتفه، نعـم يا إخواني. لقى حتفه وأصبح مثل جيفة كلب ميّت على قارعة الطّريق، فإنّ جورجي أغـرى رفاقـه بالسّـطو عـلى بيـت رجل مـوسر حيـث اعتـدوا عليه بالـضّرب وأخـذ جورجي ينزع السّـتائر والطّنافـس وانهمك ديم في البحث عن التّحف والنّفائس، غير أنّ صاحب البيت هاله ما حدث واسـتعان بقضيب حديديّ مدافعًا عن نفسه وماله، فهرب ديم وبيتر من النّافذة، ولكنّ جورجي تعثّر في السّـجّادة، وعندها هوى الرّجل على رأسـه بالقضيـب الحديدي، فكانت هذه نهايـة جورجي الخائن. وقـد أخلي سـبيل الرّجـل بعامل الدّفـاع عن النّفس وهـو حقّ عادل ومشروع، وهكذا لقـى جورجي جزاءه عمّا كان من خيانته لي، وهذا من تصاريف القدر، ولا شك. واستأنف القصّة في السّجن العمومي فأقول، يا إخواني. تروونني في جناح الكنيسة صباح يوم أحد والقسّ يلقي موعظته. لقد أسـندوا إليّ ادارة (الاسـتيريو) بوضع سطوانات الموسيقى الكنسيّة اللائقة للعزف مع التّرانيم في مستهلها ونهايتها وفي منتصفهـا أيضًا وكان مكاني قرب موقف الحرّاس الغلاظ المسـلّحين بالبنـادق، وكان بوسـعي أن أرى السّـجناء جالسـين يسـتمعون إلى التّرانيم وهـم بملابسـهم الشّـنيعة، تنبعث منهم تلك الرّوائح العطنة المقـزّزة التـي لا تكون إلّا من نزلاء السّـجون. ولا أجزم إن كانت لي هذه الرّائحة بعد أن انخرطت في زمر المجرمين، وإن كنت لا أزال في مستهلّ الصّبا. وهكذا كان من الأهميّة عندي أن أخرج يا إخواني من

(حديقـة الحيوانات) العفنة هذه بأقرب ما أسـتطيع، ولسـوف ترون وأنتم تتابعون هذه القصّة أنّه لم يمض وقت طويل حتّى تحقّق لي هذا على نحو معجز يفوق حدود التّصوّر.

لقـد راح القسّ واعظ السّـجناء يقول تكرارًا «ترى ماذا سـيكون بعد؟ هل يسـتمرّ الحـال على هذا النّمط دخـولاً وخروجًا ثمّ دخولاً وخروجًا من المؤسّسات الاصلاحيّة إلى ما لا نهاية، وإن كان الدّخول أكثـر من الخروج بالنّسـبة لمعظمكم؟ أم أنّكم سـوف تسـتمعون إلى كلمـة الرّب وتدركون العقاب الذي ينتظـر المخطئين غير التّائبين في عـالم الآخرة، كما في هذه الدّنيا؟ يا لأكثركم من عصبة من الحمقى إذ تبيعـون آدميّتكـم لقـاء كلّ رخيـص وتافه، لقـاء مغامـرات السّرقة والعنـف ومغريـات الحياة السّـهلة.هل يسـتحقّ هذا منكـم وأمامنا الأدلّة التي لا نكران لها ولا جدال فيها بأنّ جهنّم ماثلة وقائمة؟ إنّني أعـرف يا أصدقائـي، وقد نبّئت به في الرّؤى الصّادقـة، أنّ ثمّة مكانًا هو أشـدّ ظلمة من أيّ سـجن، وأحرّ لظى من أيّ نار يوقدها البشر، فيـه يكون لأرواح الخاطئين المجرمين وغـير التّائبين من أمثالكم ولا تسخروا منّي ولا تضحكوا لعنكم الله أقول فيه يصرخون من عذاب لا يطاق، وتختنق أنوفهم بروائح الأدران، وتحشى أفواههم بجمرات النار المتّقدة، وتشـوى جلودهم حتّى تتلاشـى من الأبدان، وتنصهر أحشاؤهم من هول العذاب الأليم». وعند هذا الحدّ يا إخواني، عمد مجـرم قـرب الصّفـوف الخلفيّـة إلى إطـلاق موسـيقى الشّـفاه، وإذا

بالحرّاس الغلاظ يندفعون بسرعة إلى الموضع الذي ظنّوا أنّه مصدر الصّوت، محرّكين هراواتهم يمينًا وشمالاً في السّجناء حيثما اتّفق، ثم استخلصوا سجينًا مسكينًا راعشًا نحيلاً جدًّا وأخذوه من مكانه وهو يصرخ قائلاً «لست أنا! هو هناك، أنظروا!» بيد أنّ هذا لم يغيّر من الواقع شيئًا، فقد انهالوا عليه بالضّرب المبرح، ثمّ جذبوه إلى خارج السّجن وصراخه يصمّ الآذان. وقال واعظ السّجناء «والآن، أنصتوا إلى كلمة الرّب». ثمّ تناول كتاب التّرانيم الضّخم وأخذ يقلّب صفحاته مبللاً أصابعه وهو يفعل هذا بشفتيه. كان رجلاً ضخم الجسم شديد احمرار الوجه، بيد أنّه كثير العطف عليّ لصغر سنّي ولأنّني الآن بدأت أبدي اهتمامًا كبيرًا بكتاب التّرانيم، فقد تقرّر كجزء من عمليّة الاصلاح أن أقرأ في هذا الكتاب، بل لقد سمح لي أن أشغّل (استيريو) الكنيسة أثناء قراءتي. وذات يوم قال لي القسّ وهو يشدّ على يدي «آه يا رقم 6655321، فكّر في معاناة القدّيسين، وتأمّل في نعيم الآخرة بعد طوال المعاناة». وأثناء ذلك كانت تفوح مه رائحة (الاسكوتش)، وكان يدلف إلى مقصورته الصّغيرة بين وقت وآخر لكي يتناول المزيد من هذا الشّراب. هكذا كنت أقرأ في الكتاب أثناء عزف الاستيريو لموسيقى «باخ» العذبة ثم أغمض عيني وأسبح في عالم الخيال حتّى أتصوّر نفسي وقد لبست رداء الكهنوت! ومن هذا ترون يا إخواني أنّ وجودي في السّجن العمومي لم يكن مضيعة للوقت، بل لقد ترامى الخبر إلى محافظ السّجن ذاته، فأبدى

سروره إذ سمع أنّني أصبحت ميالاً إلى التّديّن، وكانت هذه بداية الأمل الذي تولّد في نفسي. ومهما يكن يا إخواني فإنّه بعد انتهاء الوعظ يوم الأحد ذاك وانسحاب السّجناء عائدين إلى زنزاناتهم في صخب وجلبة والحرّاس الغلاظ لا يكفّون عن ملاحقتهم بالشّتائم والرّكل، وبعد أن أقفلت الاستيريو في النّهاية، اقترب الواعظ منذي وهو ينفث دخّان سيجارة كانت في ملابسه، ثمّ بادرني قائلاً «شكرًا لك دائمًا يا رقم 6655321. وما هي الاخبار التي عندك اليوم؟» والحكاية هي أنّني علمت أنّ هذا الواعظ كان يتطلّع إلى التّرقي في مراتب كهنوت السّجون، وكان بحاجة إلى تزكية قويّة من محافظ السّجن، وهكذا كان يسعى إلى المحافظ بين حين وآخر خفية ويدلي إليه بأنباء المؤامرات السّريّة التي يدبّرها السّجناء، وكان يستقي الكثير منها عن طريقي. والواقع أنّ الكثير منها كان مختلقًا، وإن كان بعضها حقيقيًّا، مثال ذلك ما علمناه في (دوائرنا) عن طريق الدّق على مواسير المياه، من أنّ المسجون «هاريمان» الضّخم يدبّر للهرب من السّجن، إذ كان في النّيّة أن يفاجىء الحارس وقت النّوم ويأخذه على غرّة ثم يخرج مرتديًا ملابسه، ثمّ كانت هناك المحاولة التي تدبّر في عنبر الأكل لالقاء طعام السّجناء القبيح على الأرض احتجاجًا وتمرّدًا، وهو ما أبلغت الواعظ عنه أيضًا. وقد نقل الواعظ هذا كلّه إلى محافظ السّجن وقوبل بالثّناء، أمّا الآن فقد قلت للواعظ، وهو ما لم يكن صحيحًا «حسنًا يا سيّدي، لقد تداول الخبر عن طريق المواسير

بأنّ كمّيّة من الكوكايين قد وصلت بطرق ملتوية، وأنّ إحدى الزّنزانات في عنبره ستكون مركز التّوزيع، لقد اخترعت هذه القصّة فيما كنت أخترع من غيرها، لكنّ الواعظ بدا شديد الامتنان قائلاً «جميل، جميل، جميل! سأنقل هذا إلى فخامته». وفخامته هو محافظ السّجن طبعًا. وقد قلت له «سيّدي، إنّني أدّيت واجبي، أليس كذلك؟ لقد تعبت في هذا كثيراً، ألا ترى هذا يا سيّدي؟» فقال الواعظ «عمومًا أظنّ أنّك عندما فعلت هذا في تقديري أنّك أسديت مساعدة تذكر وأظهرت رغبة حقيقيّة في الاصلاح، وإذا استمرّيت في هذا النّهج فسوف تفوز بالافراج عنك دون مشكلة على الاطلاق. فقلت له «لكن يا سيدي، ماذا هناك بخصوص هذا النّظام الجديد الذي يتحدّثون عنه؟ ماذا عن تلك المعاملة الجديدة التي تؤدّي إلى الخروج من السّجن في وقت قصير وتضمن ألّا يعود السّجين إليه أبدًا؟» فأجاب بحذر وتحفّظ «آه! أين سمعت هذا؟ من أخبرك بمثل هذه الأمور؟» فقلت «هذه الأشياء تتردّد وتصل إلى الاسماع يا سيّدي، هناك حارسان قالا كلامًا، ولا يستطيع الإنسان إلّا أن يسمع ما يقال، وبعدها يلتقط أحدهم قصاصة جريدة في ورش السّجن وينشر في الجريدة كل شيء عن الموضوع. ما رأيك يا سيّدي في أن تتفضّل وتخبرني بالموضوع، إذا تجاسرت وطلبت منك هذا؟» فبدا أنّه يفكّر في هذا الاقتراح وهو ينفث دخّان سيجارته، متدبّرًا ماذا يمكنه أن يقول عن هذا الموضوع الذي طرقته أمامه. وما لبث أن قال وهو

لايزال على عذره «أفهم أنّك تشير إلى طريقة «لودوفيكو». فقلت له «أنا لا اعرف ماذا يسمّونها يا سيّدي، كلّ ما أعرفه هو أنّها تهيّئ لك الخروج من السّجن سريعًا وتضمن عدم عودتك إليه». فأجاب وهو يرمقني بنظراته في شيء من القطوب «هو كما تقول يا رقم 6655321. وبالطّبع فإنّ المشروع هو في المرحلة التّجريبيّة فقط في الوقت الرّاهن، وهو مشروع بسيط ولكنّه ناجح جدًّا». فقلت للواعظ «لكنّه يجري استخدامه هنا الآن، أليس كذلك يا سيدي؟ هناك تلك المباني البيضاء الجديدة قرب السّور الجنوبيّ يا سيدي. إنّنا راقبنا تلك المباني وهي في دور البناء يا سيّدي، ونحن نؤدّي التّمرينات الرّياضيّة». فقال الواعظ «إنّ المباني لم تستخدم بعد، ليس في هذا السّجن يا رقم 6655321، وفخامته - المحافظ نفسه - لديه شكوك قويّة حول الموضوع. ولا بدّ أن أعترف بأنّني أشاطره شكوكه، والمسألة هي فيما إذا كان يمكن أن تؤدّي هذه الطّريقة حقًّا إلى جعل الإنسان صالحًا. إنّ الاصلاح ينبع من داخل الذّات يا رقم 6655321. الاصلاح شيء مرهون بالاختيار، وإذا كان الإنسان لا يستطيع الاختيار، فإنّه لا يبقى إنسانًا». وكان يمكن أن يتوسّع في الحديث عن هذه المسألة، لولا أنّنا سمعنا أصوات المجموعة الأخيرة من السّجناء وهي تهبط في السّلالم الحديديّة لتلقّي دورها في الوعظ. وهكذا أردف قائلاً «سيكون لنا حديث في الموضوع في وقت آخر، والآن يحسن أن تقوم بمهمّتك». وهكذا انتقلت إلى موضع (الاستيريو) ووضعت معزوفة

«بـاخ» الرّعويّة في الوقت الذي أقبلت فيـه صفوف أولئك المجرمين بجلبتهـم المدويّة كأنّهم أفواج من النّسـانيس، وسرعان ما بدأ القسّ يلقـي موعظته مـرّة أخرى. كانت هذه الـدّورات الدّينيّة تتكرّر أربع مرّات أيّام الآحاد، ولّما انتهت هذه الدّورة لم أجد عند الواعظ مايقوله لي مـن جديد عـن طريقـة «لودرفيكو» تلـك، مهما يكن مـن كنهها. وعندمـا فرغت من مهمّتي مع (الاسـتيريو) اختصّني ببعض كلمات الشّـكر، وبعدهـا أعـادوني إلى زنزانتـي في العنبر رقـم 6، و يا له من مـكان مكتّظـة عطنة إلى أبعد الحدود! ولم يكن الحـارس الذي تلقّاني مخلوقًا فظًّا مثل زملائه، فلم يضربني ولم يركلني عندما فتح لي الباب، وإنّما قال لي «على الرّحب يا بني في موطنك!» وهكذا عدت إلى رفقة اصحـابي الجدد. وكانوا جميعًا من عتاة المجرمين، لكنّهم والحمد لله لم يكونوا من الّشواذ، كان منهم المدعو «زوفار» وفق دكته، وهو مخلوق أسـمر نحيـل جـدًّا كثير الـكلام والثّرثرة، لهـذا لم يتكلّـف أحد عناء الاسـتماع إليه، وكان منهم «وال» الذي لم يكن له سوى عين واحدة، وكان لا يكفّ عـن قضم أظافر قدميه، ثمّ كان منهم أيضًا «اليهوديّ السّـمين»، وكان مفـرط البدانة والعرق يظلّ أكثـر الوقت ممدّدًا فوق دكتـه كالأمـوات، وإلى جانـب هـؤلاء كان هنـاك «جـوجـون» و «الطّبيـب». كان جوجـون مخلوقـًا خبيثـًا ماكـرًا وكان تخصّصـه في الاعتداء على النّساء، أمـا الطبيب فقد كان يدّعي القدرة على الشّفاء من الامراض التّناسليّة ولكنّه كان يعطي حقنًا من المياه، كما أنّه تسبّب

في قتـل امرأتيْن بعـد أن وعدهما كذبًـا بتخليصهما مـن الحمل. كانوا جميعًا عصبة مريعة حقًّا، ولم أستطب قطّ وجودي بينهم. وكان مبعث الألم والحـزن يا إخـواني فوق ذلك هـو أنّ هذه الزّنزانـة كانت معدّة لثلاثة نزلاء، ولكنّنا كنّا الآن ستّة، محتبسين بداخلها ملتصقين ببعضنا غارقـين. وكان ذلـك هو الحـال في السّـجون الأخرى كافّـة في تلك الأيّام، وهو عار ليس بعده عار، إذ لا يملك أحد أن يجد متّسعًا لكي يمدّ أطرافه. والأدهى من ذلك كلّه أنّه في يوم الأحد هذا أقحم علينا نزيـل جديـد، والأغـرب من كلّ شيء هـو أنّه كان البـادئ بالصّراخ والشّكوى حتّى قبل أن تتاح لنا الفرصة لرؤية الموقف فقد حاول أن يهزّ القضبان مستنجدًا «إنّني أطالب بحقوقي المشروعة! هذه الزّنزانة متخمـة لا موضع فيها لقدم». ولكنّ الحارس أقبل ليقول له أنّ عليه أن يـرضى بالواقع ويشـارك أيّ واحد يسـمح له بالمشـاركة في دكته، وإلّا فلن يكون أمامه سـوى الأرض يفترشها وأضاف الحارس قائلاً «وسـيكون هذا أسـوأ، كلكم عالم بأسره من الاجرام ولا تستحقّون غير هذا!»

الفصل الثّاني

لا بـأس! لقـد كان اقحام هـذا النّزيل الجديد علينا هـو في الواقع بداية خروجي من السّـجن العتيد، لأنّه كان مخلوقًا مشاكسًا إلى أبعد الحدود، منطويًا على فسـاد الطّويّة وخبث النّوايا، إلى حدّ أنّ المتاعب بدأت منذ ذلك اليوم ذاته، ثمّ إنّه كان كثير التّفاخر، ممعنًا في التّطاول علينـا والسّـخرية منّا بـكلام طنّان صخّـاب. قال لنا أنّـه هو الوحيد المحـترم دوننا جميعًـا في هذه الحديقة كلّها - يعنـي حديقة الحيوانات - زاعـمًا أنّه فعل كيت وكيت وقتل عشرة مـن رجال الشّرطة بضربة واحدة من يده، إلى آخر هذا الهراء، ثمّ بعد هذا يا إخواني ركّز اهتمامه عـلى شـخصي، باعتبـاري أصغـر الموجوديـن سـنًّا، قائلاً إنّـه لكوني أصغرهـم جميعًا فعليّ أن أكون أنا الـذي ينام على الأرض وليس هو. غـير أنّ الجميع انضمّـوا إلى جانبي صائحين «دعه وشـأنه يا حقير!» فـما لبث أن راح يشـكو حظّه قائـلاً أنّه لا أحد يحبّـه. وفي تلك الليلة نفسـها صحـوت مـن نومي لكي أجـد هذا المجـرم القبيح ممـدّدًا إلى جانبـي فـوق الدكـة، التي كانت أسـفل اثنتـين فوقها وضيّقـة جدًّا،

وهو يتفوّه بكلمات فاحشة ويتمسّح بي. عندئذ ثارت ثائرتي ولطمته لطمة شديدة وإن كنت لا أبصر في الظّلام إذ لم يكن ثمّة سوى النّور الأحمر الحسير خارج الزّنزانة، لكنّني أيقنت أنّه هو ذلك المخلوق الوضيع، وبعد أن تعالت الجلبة وأضيء النّور رأيت الدم يقطر من قمّة القبيح أثر اللّطمة العنيفة التي أصابته، من يدي ذات الأظافر الحادّة. وما حدث بعد ذلك هو أنّ رفاقي في الزّنزانة هبُّوا من نومهم وانضمُّوا إلى الاشتباك قائمين بنصيبهم من الضّرب في تلك العتمة، حتّى تعال الصّياح والضّجيج واستيقظ نزلاء العنبر كلّه وأخذوا يدقّون على الجدران بكيزانهم وكأنّهم خالوا أنّ تمرّدًا شاملاً يوشك أن يبدأ في السّجن. هكذا يا إخواني أضيئت كلّ الانوار وهرول الحرّاس بالقمصان والسّراويل ملوّحين بهراواتهم الغليظة. وفي الضّوء رأينا وجوه بعضنا البعض محمّرة وأعناقنا منتفخة وأيدينا متطاوحة متوعّدة وصراخنا مقترنًا بالشّتائم واللّعنات. وإذ ذاك تقدّمت بالشّكوى ممّا كان، فقال الحرّاس جميعًا بلا استثناء أن محدثكم المتواضع يا إخواني هو المتسبّب في نشوب المعركة إذ ليس في وجهي أيّ جروح أو خدوش في حين أنّ هذا المسجون القبيح ينزف الدّم من وجهه من حيث انهالت عليه يدي المخلبيّة باللّطمات. لقد استفزّني هذا الكلام أيّ استفزاز حتّى قلت أنّني لن أنام ليلة واحدة في تلك الزّنزانة إذا كانت سلطات السّجن سوف تسمح لهذا المجرم المنحرف الشّنيع أن يحاول الانقضاض عليّ وأنا في وضع لا يمكّنني

من الدّفـاع عن نفسي أثناء النّوم. ردّ أحد الحرّاس بقوله «انتظر حتّى الصبـاح! هـل تريد فخامتك غرفـة خاصّة بحمّام وتلفاز؟ حسـنًا إذًا كلّ هذا سوف ينظر فيه عند الصّباح. أمّا في الوقت الحالي أيّها الرّفيق الصّغـير فاقنع بالنّوم على مرتبتك المحشـوّة بأجـود القشّ ولا تدعنا نسمع أيّ ضوضاء من أي إنسان. مفهوم، مفهوم، مفهوم؟» وبعدها أقفلـوا عائدين هم ينذرون ويتوعّـدون للجميع، وعلى الأثر أطفئت الأنـوار. فقلـت أنّني سـأبقى طوال ليـلي صاحيًـا، ووجّهت كلامي إلى ذلـك المجرم القبيـح قائلاً «أدخل إلى فـراشي إذا رغبت! إنّني لن أطيقـه بعد أن لوّثته ببدنـك القذر ورائحتك النّتنـة». غير أنّ الباقين تدخّلوا، وقال اليهوديّ السّمين وكان لايزال غارقًا بعد ابتلاع قطعة مخـدّر كنّـا نتداولها في الظّـلام «لن نرضى بهذا يا إخـواني، لا تخضعوا لهـذا الحيوان!» فراح ذلك المجرم الغليظ يقول «اخرسـوا! ليبلع كلّ منكم لسانه».مكتبة .. سُر مَن قرأ

وعندئذ تحفّز اليهوديّ السّـمين لتوجيه ضربـة إليه.فقال الدّكتور «اسمعوا يا سادة! نحن لا نريد مشاكل».

لكـنّ المجـرم الوافـد كان ينـوي اثـارة المشـاكل فعـلاً، إذ كان مغرورًا، متعاليًا على قبول المشاركة مع ستّة سجناء في زنزانة واحدة واضطـراره إلى النّـوم عـلى الأرض لـولا أنّنـي أبديت اسـتعدادي للتّنـازل عـن الدكة له، وحـاول أن يتمادى في المشاكسـة..وهنا قال جوجـون «إذا كنّـا لا نسـتطيع أن نأخـذ قسـطًا من النّـوم، فلنأخذ

قسطًا من التّعليم! من الخير أن نلقّن صديقنا الجديد هذا درسًا». فردّ المجرم الغليظ قائلاً «إنّني أدوسكم تحت قدمي». وهكذا بدأت المعركة، ولكنّها بدأت بطريقة هادئة متخافتة، دون أن يرفع أحد منّا صوته عاليًا. وقد صرخ المجرم الوافد مرّة واحدة أوّل الأمر، لكنّ «وال» عاجله بلكمة على فمه، في حين شدّه اليهوديّ السّمين إلى قضبان باب الزّنزانة حتّى يمكننا أن نبصره في الضّوء الأحمر المعتم المنسوب من الخارج، وكلّ ما بدر منه كان تأوّهات خافتة. والواقع أنّه لم يكن موفور القوّة، وبدا أضعف ما يكون وهو يحاول أن يردّ الضّربات التي أخذت تتوالى عليه، ولعلّه كان يعوّض هذا بالجعجعة والمفاخرة بنفسه. وعلى أيّ حال فإنّني عندما رأيت الدّم القاني يتساقط منه في الضّوء الأحمر، سرت بين جوانحي حميّة العنف السّالف، وقلت لهم «اتركوه لي يا إخواني! دعوه لي الآن!» وقال اليهوديّ السّمين محبّذًا «نعم، نعم يا أولاد! هذا هو العدل! أعطه الدّرس يا أليكس!» وهكذا تخلو عنه، وسرعان ما هجمت عليه ألاحقه باللّكمات في كلّ مكان وأنا أتواثب من حوله، ثم عاجلته بحركة مقص هوى على أثرها إلى الأرض. وأخيرًا رفسته رفسة شديدة على رأسه حتّى انبعث أنينه محتبسًا قبلما غاب عن الوعي. وقال الدكتور «حسنًا جدًّا. أظنّ أنّ هذا الدّرس يكفيه، دعوه يحلم بأنّه سيكون ولدًا صالحًا في المستقبل». وهكذا عدنا جميعًا كلّ إلى دكته لكي ننام، لفرط ما كنّا نشعر به من

التّعب والجهد، وقد حلمت في نومي يا إخواني وكأنّني فرد في فرقة أوركسترا كبيرة تضم مئات ومئات من العازفين الاقوياء، وكان قائد الاوركسترا خليطًا من «بتهوفن» و«هاندل»، أصم وأعمى معًا، تلوح عليه أمارات الاعياء من الدّنيا كلّها. وكنت عضوًا في فريق آلات النّفخ، ولكن ما كنت أعزف عليه كان أقرب إلى بوق من اللّحم البشري ينتفخ منبثقًا من بدني في وسط البطن، وعندما كنت أنفخ كنت أضحك عاليًا لأنّ العزف كان كأنّه يدغدغني، وما لبث - بتهوفن، هاندل - أن انتابه الغيظ والضّيق، ثمّ اقترب منّي وصرخ عاليًا في أذني، وعندها صحوت من النّوم والعرق يتفصّد من جسدي. طبعًا كان الصّراخ هو جرس السّجن يتردّد أيقاظًا للنّيام، كان الوقت صباح يوم شتويّ، وشعرت بأنّني لا أكاد أفتح جفوني الملتصقة من النّوم في الضّوء الكهربائي الذي غمر «حديقة الحيوانات». ولمّا نظرت إلى أسفل وقع نظري على السّجين الجديد ممدّدًا على الأرض داميًا ومرضوضًا ولا يزال غائبًا عن الوعي، وهنا تذكّرت ما حدث في اللّيلة الماضية، ممّا جعلني أبتسم يسيرًا ولكن عندما نزلت من الفراش وحرّكت السّجين بقدمي الحافية شعرت بجسم متصلّب بارد، وهكذا اتّجهت إلى فراش الدّكتور وهززته، إذ كان يستيقظ بطيئًا في الصّباح. غير أنّه ترك دكته مسرعًا هذه المرّة، وحذا الآخرون حذوه، فيما عدا «وال» الذي كان ينام كجثّة. وقال الدّكتور «يا لسوء الحظ! لا بدّ أنّه أصيب بنوبة قلبيّة». ثمّ أردف

وهـو ينظر إلينا جميعًا «في الحقيقـة ما كان يجب أن تجابهوه بمثل هذه الكيفيّة، كانت هذه خطوة تدلّ على سوء التّفكير والتّصرّف».

فقـال جوجـون «دع هـذا يـا دكتـور! أنـت نفسـك لم تتأخّر عن توجيـه لكمة غـادرة». وعندئذ واجهنـي اليهوديّ السّـمين قائلاً «يا أليكس! أنت أيضًا كنت شـديد العنف، إنّ الرّفسة التي وجّهتها إليه كانـت قاتلة». عندهـا تملّكني الغضب ورحت أقـول «من الذي بدأ بالضّرب؟ أنا لم أتدخّل إلّا في نهاية المعركة». واستدرت إلى جوجون وقلت له «كانت الفكرة كلّها من عندك».

وقاطعني لحظتها «وال»، فقال «أيقظوا هذا الحيوان! إنّه هو الذي كان ينهال على فم القتيل باللّكمات بينما كان اليهوديّ السّمين محاصرًا له عند الباب».

قال الدكتور «لا أحد ينكر أنّ كلّ واحد منّا اشترك في توجيه ضربة خفيفة إليه، لكي نعطيه درسًا على حدّ قول القائل. لكنّ الواضح هو أنّك أنت يا عزيزي الصّغير، بما فيك من فتوّة الشّباب واستهتاره، قد هويت عليه بالضّربة القاضية».

فقلت «يا خائنين! يا خائنين ويا كاذبين!»

فقـد بـدا لي أنّه ما أشـبه الليلة بالبارحـة، عندما تخـلّى عنّي رفاقي المزعومـون منذ عامـين لكي أقع في أيدي رجـال الشّرطة. لذا لا ثقة في الدّنيـا كلّها يـا إخواني، كما تجلّى هـذا لعيني تمامًـا! واتّجه جوجون

وأيقـظ «وال»، فكان «وال» مبـادرًا إلى الحلف بأنّ محدّثكم المتواضع هو الذي أهوى بالضّربات الوحشـيّة. ولّمـا قدِم الحرّاس ثمّ كبيرهم، ثم محافظ السّـجن ذاته، راح رفاق زنزانتي هؤلاء يتسـابقون في سرد مختلـف الرّوايات عمّا فعلتـه بهذا المجرم الصّريع الـذي تمدّدت جثّته المخضّبة بالدّماء على الأرض.

كان يومًا غريبًا مشهودًا يا إخواني، فقد نقلت جثّة القتيل، وصدر الأمر باحتجاز المسـاجين كافّـة في زنزاناتهم تحت القفل حتى صدور أوامـر أخرى، ولم يوزّع شيء مـن التّموين على أحد، حتّى ولا كوب شـاي. كلّ مـا حدث هـو أنّنا قبعنا جميعًـا في أماكننـا، وكان الحرّاس يسـيرون جيئة وذهابًا، وهـم يصيحون بين وقت وآخر أن «اخرسوا» أو «أقفلوا أفواهكـم» كلّما سمعوا ولو همسًا من إحدى الزّنزانات.

وحوالي السّـاعة الحادية عشرة صباحًا حـدث هرج ومرج خارج الزّنزانة، ثم وقعت أنظارنا على محافظ السّجن ورئيس الحرّاس وعدد من الشّـخصيات الهامّة يسـيرون مسرعين يتحادثون باهتمام متّجهين إلى نهايـة الممـر، ثمّ سـمعناهم يعـودون أدراجهم بخطـى بطيئة هذه المرّة، وكان بوسـعنا أن نسمع صوت محافظ السّجن وهو رجل بدين أشـقر يردّد كلمات مثل «لكن يا سـيدي».. وبعد ذلك توقّف الجميع عند زنزانتا وفتح رئيس الحرس بابها، وكان بالامكان معرفة صاحب الشّخصية الهامّة بين القادمين، وكان طويل القامة أزرق العينين فاخر الثّياب، إذكان يرتدي أجمل زي رأيته في حياتي. كانت تمثّل قمّة الموضة.

وقد تنازل وشملنا نحن المسجونون بنظرة عامّة، قائلاً بصوت عذب ولهجة راقية «إنّ الحكومة لا يمكنها أن تحصر اهتمامها بعد الآن في نظريّات عقابيّة للاجرام عفا عليها الزّمن، كدس المجرمين جنبًا إلى جنب معًا، ثم أنظر ماذا يحدث؟ النّتيجة هي أفعال جنائيّة مركّزة، وجرائم في صميم العقوبة. ثمّ لن يمضي وقت طويل حتّى نحتاج إلى مواقع السّجون كافّة لاستيعاب المذنبين السّياسيّين». إنّني يا إخواني لم أفهم هذا الكلام بتاتًا، لكن مهما يكن فإنّه لم يكن يوجّه كلامه إليّ شخصيًّا. وما لبث أن مضى يقول «إنّ المجرمين العاديّين من أمثال هذا الجمع الكريه - المجرمون الخائنون - يمكن التّعامل معهم على أساس علاجيّ صرف، نقتل النّزعة الاجراميّة في نفوسهم، هذا كلّ شيء، انجاز شامل في ظرف عام. فالعقوبة لا تعني لهم شيئًا، لأنّهم ينعمون بالعقوبة المزعومة، فهم يقتلون بعضهم البعض. واتّجهت عيناه الزّرقاوان إليّ بنظرة صارمة وهو يقول هذا، وهكذا قلت له بجرأة «مع الاحترام يا سيّدي إنّني أعارضك بكلّ قوّة فيما قلته! أنا لست من المجرمين العاديّين يا سيّدي، ولست كريهًا، إنّ الآخرين يمكن أن يكونوا كريهين، ولكنّني لست كذلك». وهنا صعد الدّم إلى وجه رئيس الحرّاس حتّى احتقن وصاح بي قائلاً «اقفل فمك يا هذا! ألا تعرف مع من تتكلّم؟!» فقال صاحب الشّخصيّة الكبيرة «لا بأس.. لا بأس». ثمّ التفت إلى محافظ السّجن وقال «يمكنك استعماله رائدًا في التّجربة، هو فتى، وجريء، وشرير. إنّ «برودسكي» سوف

يتعامل باكرًا، ولك أن تستعدّ وتراقب برودسكي، إنّ العمليّة سوف تنفّذ بنجاح، فلا تقلق بشأنها. إنّ هذا الحدث الشّقيّ سوف يتحوّل إلى كينونة أخرى لا تكاد تعرفها».

وحقًّا يا إخواني، لقد كانت هذه الكلمات الصّارمة بداية حرّيّتي.

الفصل الثّالث

في هذا المساء نفسه قادني الحرّاس الغلاظ بكلّ رفق إلى مكتب محافظ السّجن أو قدس الأقداس، وقد نظر إليّ المحافظ في اعياء وقال لي «لا أظنّ أنّك تعرف من كان ذلك الضّيف صباح اليوم، هل تعرف يا رقم 6655321؟» وقبيل أن ينتظرني لكي أقول لا عاجلني قائلاً «لم يكن صاحب تلك الشّخصيّة أقل من وزير الداخلية - الجديد - وهو ما يسمونه «المكنسة الجديدة»، لا بأس إذًا، إنّ تلك النّظريّات الجديدة المضحكة قد جاءت أخيرًا، والاوامر ذاتها، وإن كنت أقول لك فيما بيني وبينك أنّني لا أوافق عليها وبكلّ تأكيد لا أقرّها - العين بالعين هي شريعتي - إذا لطمك أحد ترد له اللّطمة، أليس كذلك؟ فلماذا إذًا لا ترد الدّولة عندما تضربونها بوحشيّة - يا معشر المجرمين العتاة - لكم الضّربة بمثلها أو أشدّ منها؟ لكنّ النّظرية الجديدة تقول «لا» فهي أن نعمل على تحويل الفاسد إلى صالح، وكلّ هذا يبدو لي ظلمًا فاحشًا». فقلت له باحترام «سيّدي». وهنا صرخ رئيس الحرّاس الذي كان واقفًا خلف مقعد محافظ السّجن محمّرًا «اقفل فمك القذر

يـا حـشرة!» فقال المحافظ الـذي ظلّ على اعيائـه «لا بأس.. لا بأس أنــت يا رقــم 6655321، لقد تقرّر اصلاحك، غدًا سـوف تذهب إلى هـذا الرّجـل «برودسـكي» وأعتقد أنّه سـوف يمكّنـك الخروج من السّـجن رسميًّا بعد أسبوعين تقريبًا سـوف تعود من جديد طليقًا في الدّنيا الواسـعة، وفلا تبقـى مجرم». وخالجت لهجته نـبرة تهكّم قائلاً «أظـنّ أنّ الأمل المرتقب سـوف يسرّك؟» لم أقل شـيئًا. صرخ رئيس الحرّاس قائلاً «أجب، أيّها الخنزير الصّغير القذر عندما يوجّه المحافظ سـؤالاً إليك». أجبْتُ «آه، نعم يا سـيدي! أشـكرك شـكرًا جزيلاً يا سـيّدي! إنّني بذلت أفضل ما عندي هنا، حقًّا وصدقًا وإنّني شـديد الامتنان للاطراف المعنيّة كافّة. فأوشـك المحافظ أن يتنهّد وهو يقول «لا لـزوم لهـذا. ليس هذا من قبيل المكافأة، بـل إنّه أبعد ما يكون عن المكافأة. والآن، هناك اسـتمارة سـتوقّع عليها بإمضائك، وهي تنّص على رغبتك بما يسـمّى «العلاج الاصلاحي». فهل توقّع الاسـتمارة؟ فقلت «بكلّ تأكيد يا سيّدي، سأوقّع، وشكري لا حدود له!» وهكذا أعطوني قلم حبر، فوقّعت باسـمي بخـط جميل منتشر. فقال المحافظ «لا بأس. هذا كلّ شيء، فيما أظن». فقال رئيس الحرّاس «إنّ قسّـيس السّجن يودّ أن تكون له كلمة معه يا سيّدي».

وهكـذا اقتـادوني في الرّدهة إلى جناح الكنيسـة الصّغـيرة، وكانوا يتبادلـون الضّرب طوال الطّريق على ظهـري ورأسي، وعند وصولنا إلى مقصورة القسّ تركوني أدخل، فكان القسّ جالسًا إلى مكتبه تفوح

من حوله رائحة السّجائر الفاخرة و (الاسكواتش)، وقالي لي «آه يا رقم 6655321 يا صغير، اجلس!» وخاطب الحراس قائلاً «انتظروا في الخارج». فامتثلوا... ثمّ راح يقول لي بلهجة يغلب عليها الجدّ الكبير «شيء واحد أريدك أن تفهمه يا ولد، وهو أنّ هذه المسألة لا صلة لها بي شخصيًّا، ولو أنّها كانت متّصلة بالمصلحة الشّخصية لاعترضتْ، هناك اعتبار وضعي المهنيّ، وهناك اعتبار ضعف صوتي إذا قورن بعناصر أشدّ قوّة في الدولة. هل تراني، أوضحت لك الموضوع؟» إنّه لم يوضّح شيئًا يا إخواني، ولكنّني وافقته بأنّه أوضح». فاستطرد يقول «هناك اعتبارات أخلاقيّة معقّدة مرتبطة بالموضوع. لقد قُدّر أن يجعلوا منك شخصًا صالحًا يا رقم 6655321، فلن ترتكب أعمال العنف أو الاعتداء في سبيل الحفاظ على أمن الدّولة. ورجائي أن تضع هذا نصب عينيك وأن يكون واضحًا في ذهنك كلّ الوضوح».
فقلت مسرورًا «آه! إنّه لشيء جميل يا سيّدي أن يكون الإنسان صالحًا». فقال لي «قد لا يكون شيئًا محبّبًا أن يكون الإنسان صالحًا يا رقم 6655321، قد يكون شيئًا مريعًا، وأنا أدرك هنا أنّني شديد المناقضة لنفسي. سأمضي ليالي كثيرة قلقًا مسهدًا أبحث عن أجوبة عميقة لهذه الاسئلة: ماذا يريد الربّ؟ هل يريد الصّلاح أو اختيار الصّلاح؟ وهل الصلاح مفروضًا على الإنسان فرضًا؟! لكن كل ما أريد أن أقوله لك الآن: إذا تذكّرتني في المستقبل أرجو ألّا تسيء الظّن بي وتعتقد بأنّني متورط فيما سيحلّ بك. والآن، إنّني أدرك بحزن أنّه

لا جـدوى من الدّعاء مـن أجلك، وهذا شيء مريع مريع جدًّا يتدبّره الإنسـان. ومـع ذلك، وعلى نحـو ما فإنّ في اختيار المـرء الحرمان من القـدرة عـلى اختيار أخلاقي، يـدلّ في معنى من المعـاني على اختيارك الصّلاح فعلاً. هذا ما سأذهب إليه في تفكيري، وليشملنا الربّ بعونه جميعًـا يا رقم 6655321». وعندئذ أخـذ يبكي، بيد أنّني لم أحفل بهذا كثيرًا، وإن تبسّـمت في داخلي، إذ كان واضحًا أنّـه تعاطى المشروب كثيرًا، وما لبث الآن أن أخرج زجاجة من الدّولاب وبدأ يصبّ قدرًا كبـيرًا منها في كأس يعلوها كثير من الشّـحم وقد تجـرّع الشّراب كلّه ثـم عـاد يقـول «كلّ شيء قد يمضي بخـير، فمن يدري؟ الـرّبّ يدبّر الامـور مـن حيث لا نعلـم». ثمّ بـدأ يترنّـم بترنيمة بصـوت مرتفع وبعدها فتح الباب ودخل الحرّاس لكي يعيدوني إلى زنزانتي الزّنخة، بيـد أنّ القسّ المسـن مضى في ترنّمه. لا بـأس! وفي صباح اليوم التّالي كُتِب عليّ أن أودّع السّجن العتيد، وقد خامرني شيء من الاكتئاب كما يحدث للإنسـان دائمًا إذا فارق مكانًا اعتاد عليه. لكنّني لم أبتعد كثيرًا يـا إخـواني، وإنّما اقتادوني بالدّفـع إلى المبنى الأبيـض الجديد المجاور للسّـاحة التي كنّا نمارس فيها التّمرينات الرّياضيّة. كانت هذه البناية حديثة جدًّا لا تكاد تدلف إليها حتّى يتملّكك نوع من القشعريرة، إذ كانت ردهتها العارية باردة وتفوح فيها روائح كروائح المستشفيات، وكان الحارس قد سلّمني إلى شخصٍ الشّخص يرتدي معطفًا أبيض كما لو كان يعمل في مستشـفى، وقد وقّع ايصالاً باسـتلامي، وقال له

أحد الحرّاس الذين رافقوني «راقب هذا المخلوق يا سـيدي. لقد كان مخلوقًا شرسًـا لعينًا، وسـوف يظلّ هكذا على الرّغـم من أنّه كان محل عطف قسّيس السّجن ويقرأ الكتاب المقدّس». غير أنّ هذا الشّخص الذي كان أزرق العينين قابل هذا التّعريف بالابتسام، وردّ قائلاً «آه! إنّنـا لا نتوقّـع أيّ متاعب يـا أصدقائـي، أليس كذلـك؟» وفتح فمه الواسـع ذو الاسنان النّاصعة البياض عن ابتسـامة عريضة حتّى لقد أنسـت إليه. ومهما يكن فقد سلّمني بدوره إلى شخص آخر أدنى منه مرتبة ولكنّه لطيفًا مثله، فقادني إلى غرفة نوم بيضاء نظيفة جدًّا بها ستائر ومصباح بجانب الفراش، وكان سرير وحيد كلّه لمحدّثكم المتواضع، حتّى ابتسمت في داخلي لما أرى. وبدا لي أنّني إنسان محظوظ جدًّا، ثمّ قيل لي أن أخلع ملابس السّجن القبيحة، وأعطيت لي «بيجاما» جميلة خضراء اللّون يا إخواني بدت كأنّها قمّة (الموضة) بين ملابس النّوم!، بـل أعطيت فوق هـذا «روبًا» بديعًـا دافئًا و «شبشـبًا» أنيقًا أضع فيه قدمـيّ الحافيتيْن، حتّى لم أتمالك أن قلت لنفسي «لا بأس يا أليكس يا ولدي، يامن كنت رقم 6655321! لقد ابتسم لك الحظّ بلا شك ولا مراء، ولسـوف تسـتمتع حقًّا بوجودك هنا». وبعـد أن أعطوني قهوة ممتـازة وبعض الجرائد والمجلّات القديمة لكي أتصفّحها وأنا أشرب هانئًـا، جـاءني الشّـخص الأوّل وهو الـذي وقّع باسـتلامي وقال لي متطلّعًا «ها أنت ذا هنا، اسمي دكتور «برانوم»، وأنا مساعد الدّكتور «برودسكي»، وبعد إذنك سـأقوم بالفحص الطّبي المعتاد». وأخرج

مـن جيبه الأيمن السّـماعة المألوفة وتابع كلامه قائـلاً «علينا أن نتأكّد مـن تمام لياقتك البدنيّة، أليس كذلـك؟» نعم، لا بدّ من هذا، تمدّدت أمامـه رافعًا صدر «البيجامـا» حيث أخذ يقوم بفحصـه هنا وهناك، وبعـد أن فرغ من صدري قلت له «ماذا هناك بالضّبط يا سـيّدي؟ ما الذي سـتفعلونه؟» فأجاب الدّكتور برانوم وهو يجيل سمّاعته الباردة فوق ظهري من أعلاه إلى أسفله «المسألة في منتهى البساطة فعلاً، كل ماهناك أنّنا سوف نريك بعض الافلام».

ـ أفلام؟! لم أصدّق سمعي حقًّا يا إخواني كما لكم أن تدركوا هذا، ومضيت أقول «تعني أنّ المسـألة ستكون مثل الذّهاب إلى السّينما؟!» فقال الدّكتور برانوم «سـتكون أفلامًا من نـوع خاص. أفلامٌ خاصة جدًّا، وستكون الجلسة الأولى بعد ظهر اليوم». وأضاف وهو ينهض عنّـي «نعم، إنّـك تبدو صبيًّا في تمـام اللّياقة. ربّما كنت دون مسـتوى التّغذية الواجبة إلى حدٍّ ما، وهذا يعود إلى طعام السّجن». والآن ألبس قميـص «البيجاما»، وأردف وهـو يجلس على حافّة الفراش «بعد كلّ وجبة سنعطيك حقنة في الذّراع، وفي هذا ما يساعد حالتك». والحقّ أنّني شـعرت بكلّ الامتنان لذلك الدّكتور برانوم اللّطيف، وقلت له «أهي فيتامينات يا سيّدي؟» فأجاب وهو يبتسم في مودة ورقّة «شيء كهـذا. مجرّد رشـقة في الـذّراع بعـد كلّ وجبة». ثمّ خـرج على الأثر، بعدهـا تمدّدت في الفراش متأملاً كأنّني في السّـماء، ثم أخذت أقرأ في بعض المجلّات التي جاءوني بها: الرّياضة العالميّة، «سيني» وهي مجلة

سينمائيّة، «الأهداف» مجلة كوريّة، ثمّ عدت إلى الاستلقاء في الفراش وأغمضت عيني أفكّر في متعة الحياة التي سأعيشها من جديد، فأجد عملاً سهلاً أمارسه في النّهار، بعد أن كبرت الآن بالنّسبة للمدرسة، ثم أشكّل عصبة جديدة للنّشاط اللّيلي، وأوّل ما سأفعله في هذا الشّأن هو البحث عن ديم وبيتر، إن لم يكونا وقعا في قبضة الشّرطة. وفي هذه المرحلة المقبلة سألتزم الحرص لكيلا يقبض عليّ، لا شكّ أنّهم الآن يمنحونني فرصة أخرى، أنا الذي اقترفت القتل وكل ما يتّصل بهذه الافعال، ولن يكون من الصّواب أن يقبض عليّ من جديد، بعد أن يتجشّموا كلّ هذا العناء ليروني الافلام التي ستجعل منّي شخصًا صالحًا! وعدت من تأمّلاتي تلك مبتسمًا، عندما جاءوني بطعام الغداء وكان الذي جاء به هو الشّخص الذي قادني إلى غرفة النّوم هذه عندما جئت إلى المبنى الجديد، وقد قال لي «شيء لطيف أن يرى الإنسان شخصًا سعيدًا. وكان الطّعام في الواقع شهيًّا، قطع من «الروزبيف» السّاخن ممزوجة بالبطاطس والخرشوف، إلى جانب المثلّجات وقدح شاي ساخن، بالاضافة إلى سيجارة لكي أدخّنها مع علبة ثقاب بها عود واحد. هذه إذًا يا إخواني هي الحياة الممتعة. وبعد حوالي نصف ساعة أمضيتها مستلقيًا في خدر كالنّوم، أقبلت ممرّضة شابّة جميلة ذات نهدين بارزين (وأنا لم أشاهد مثلهما منذ عامين) ومعها قدر وحقنة. فقلت لها «آه! الفيتامينات المنتظرة!» حرّكت شفتي أمامها ولكنّها لم تهتم، وكل ما فعلته هو أنّها دسّت إبرة الحقنة

في ذراعي اليسرى، وسرعان ما انسابت مادّة الفيتامين. وعلى الأثر خرجت وهي تصدر صوتها بسبب حذائها العالي، ثمّ جاء الشّخص السّالف والظّاهر أنّه ممرّض وكان يقود كرسيًّا بعجلات، فأدهشني هذا حتّى قلت «ماهي الحكاية يا أخ؟ بإمكاني أن أمشي بالتّأكيد إلى أيّ مكان تريدون أن أذهب إليه!» لكنّه ردّ بقوله «الأفضل أن أدفعك إلى هناك». وفعلاً يا إخواني، ما إن نزلت من الفراش حتّى ألفيتني أشعر بضعف يسير. لا شكّ أن السّبب هو سوء التّغذية كما قال الدكتور برانوم بطعام السّجن الشّنيع! لكن من المؤكّد أنّ حقنة الفيتامينات بعد كلّ وجبة كفيلة بتصحيح كلّ شيء، ما من شكّ في هذا، كما فكّرت وقدّرت.

الفصل الرابع

إنّ ما اقتادوني إليه، يا إخواني، لم يكن شبيهًا بأيّ سينما رأيتها في حياتي! صحيح أنّ أحد الجدران كان مغطّى كلّه بستار فضّيّ، وفي مواجهته جدار به فتحات مربّعة لآلة العرض، كما كان يوجد جهاز (استيريو) له مكبّرات للصّوت موزّعة في أرجاء المكان. هذا فضلاً عن أجهزة قياس صغيرة متعدّدة وضعت فوق منصّةٍ لدى أحد الجدران الأخرى، وفي وسط الأرضيّة وبمواجهة السّتار قام ما يشبه كرسيّ طبيب الاسنان امتدّت منه كلّ أنواع الاسلاك، وقد مرّروني بصعوبة بين الاسلاك بعد انزالي من المقعد المتحرّك إلى الكرسيّ الطّبّي بمساعدة ممرّض آخر في رداء أبيض، ولاحظت وجود شبه جدار من الزّجاج المحجّر أسفل فتحات العرض، رأيت من خلاله أخيلة رجال يتحرّكون وخُيّل إليّ أنّني سمعت بعضهم يسعل مرارًا هناك. لكنّ الذي استدعى اهتمامي بعد ذلك، شعوري بضعف متزايد، وإن عزوت هذا إلى الانتقال من حالة سوء التّغذية في السّجن إلى التّغذية الصّحيّة والفيتامينات التي حقنوني بها.وقال الممرّض الذي

قادني في الكرسيّ المتحرّك «حسـنًا. الآن سأتركك، إنّ العرض سيبدأ حالما يصل الدّكتور برودسكي. أرجو أن تتمتّع به، وإن أردتم الحقّ يا إخواني قلت أنّني لم أشـعر بأنّي أريد مشاهدة أيّ عرض سينمائيّ هذا المسـاء، إذ لم يكن لي مزاج لهذا، وكنت أفضّل كثيرًا رقادًا هانئًا هادئًا في الفراش، مع خلوة لطيفة بنفسي، فقد كنت أحسّ بخدر يكاد يشلّ أطرافي. وما حدث بعد ذلك هو أن أحد لابسي المعاطف البيضاء شدّ رأسي بسيور إلى مسند للرّأس وهو يتغنّى بأغنية شائعة، فقلت له «لم هـذا؟» فقطـع أغنيته برهة وأجاب بـأنّ ذلك من أجـل تثبيت رأسي وجعـل نظـري موجّهًا إلى السّـتار الفضّيّ. فقلت لـه «لكنّني أريد أن أنظر إلى السّتار. فعلاً، إنّهم أحضروني إلى هنا لمشاهدة الافلام، ولابدّ أن أشاهد الافلام. وهنا قال واحد من لابسي المعاطف البيضاء باسمًا (كانـوا ثلاثـة، أحدهـم امرأة كانت جالسـة إلى أجهـزة القياس تدير بعـض المقابض والازرار) «لا يمكن أن تتأكّد من شيء! لا يمكن أن تتأكّـد من شيء! ثق بنا يا صديقي، هكـذا أفضل». وعندئذ وجدتّهم يربطون يدي بالسّيور إلى ذراعي الكرسي ويثبّتون قدمي في القاعدة، لقـد بـدا هذا غريبًا في نظـري، ولكنّني تركتهم يمضـون فيما يريدون بي. فـإذا كان يـراد أن أغـدو طليقًا من جديد في مدى أسـبوعين، فلا مفـرّ أن أتجاوز عن الكثـير في الوقت الحالي يا إخواني، ومع ذلك كان ثمّة شيء واحد لم أسترح إليه، وذلك عندما وضعوا ما يشبه المشابك عـلى بشرة جبينـي إلى حدّ أنّني شـعرت بجفنيَّ العلويـين يجذبان إلى

أعلى حتّى لم أعد أستطيع اغماض عيني رغم كلّ محاولاتي. فقلت وأنا أغتصب الابتسام «لا بدّ أنّه سيكون أحد أفلام الرّعب ما دمتم مهتمّين هكذا بمشاهدتي له، فردّ أحد لابسي المعاطف البيضاء باسمًا «صدقت يا صاحبي، هو عرض حقيقيّ للرّعب والفظائع». ثم ألبسوني بعد ذلك ما يشبه قبّعة مثبتة على الرّأس تتدلّى منها أسلاك كثيرة، وألصقوا ببطني شبه لبادة ماصة وأخرى فوق موضع القلب، ولمحت بعد ذلك اسلاكا ممتدّة منهما. وبعد هذا كلّه سمعت صوت باب يفتح، مقترنًا بما ينبّىء بقدوم شخصيّة هامّة جدًّا، إذ وقف لابسو المعاطف البيضاء وقفة الانتباه والاستعداد، وأخيرًا وقع نظري على الدّكتور برودسكي هذا كان رجلاً مهيبًا موفور البدانة، يكسو هامته شعر مجعّد، وتعلو أنفه نظّارة سميكة، وكان مرتديًا زيًّ بالغة الاناقة، وكان في صحبته الدّكتور برانوم الذي رأيته يفيض ابتسامًا وكأنّما يريد بثّ الثّقة في نفسي. وما لبث الدّكتور برودسكي أن قال في لهجة من أعتاد الادارة والتّوجيه «كلّ شيء على استعداد؟» فسمعت أصواتًا من بعيد ومن قريب تجيب بالإيجاب، وعلى الأثر انبعث طنين هادىء كأنّما شُغّلت أزرار ومفاتيح. ثمّ انطفأت الأنوار، وإذا محدّثكم وصديقكم المتواضع يجلس وحيدًا في الظّلام تتوزّعه المخاوف ولا يستطيع أن يحرّك أو يغمض عينيه. وبعدها يا أصدقائي بدأ العرض السّينمائيّ تسبقه موسيقى عنيفة مملوءة نشازًا من خلال مكبّرات الصّوت، ثمّ لاحت الصّورة على السّتار، لكن لم يسبقها عنوان ولا

تعليقات. كان ما أبصرته شارعًا مثل أيّ شارع في أيّ مدينة، وكان الوقت ليلاً والمصابيح مضاءة وكانت الصّورة جيّدة جدًّا وخلوا من النّقاط والبقع التي يراها المشاهد لأحد الافلام القذرة في بيت في أحد الشّوارع الخلفيّة. وكانت الموسيقى تدوّي طوال الوقت عنيفة وكأنّها تمهّد لشيء مشؤوم. ثمّ ظهر رجل يسير في الشّارع بادي الاحترام، وفجأةً هجم عليه شابّان بملابس (الموضة) في ذلك الوقت (السّروال الضّيّق ولكن بربطة عنق عاديّة)، وأخذا يناوشانه، واقترن ذلك بصرخاته وتأوّهاته التي كانت تسمع بوضوح إلى جانب لهث الشّابّين المعتدين وتحوّلت المناوشة إلى ضربات ولكمات عنيفة وتمزيق لملابسه ثم ركل جسمه العاري بالأقدام وتفصد الدّم القاني منه ممتزجًا بوحل الأرض، وعلى الأثر فرَّ المعتديان ركضًا. وفي ختام المشهد بدأ رأس المعتدى عليه والدّم ينزف منه غزيرًا، وكأنّك ترى مشهدًا في عالم الواقع. وأثناء مشاهدتي لهذا الفيلم بدأت أشعر أنّني لست على ما يرام، وعزوت هذا إلى سوء التّغذية وعدم استعداد معدتي لتقبّل الغذاء الدّسم والفيتامينات التي أُعطيت لي، بيد أنّني حاولت أن أنسى هذا وأن أركّز على الفيلم التّالي الذي عرض مباشرة دون أدنى توقّف يا إخواني. إنّ هذا الفيلم الثّاني بدأ وكأنّه وثب على السّتار وثْبًا، وكان يمثّل امرأة شابّة يعتدي عليها شبّان واحدًا بعد الآخر وهي تصرخ بصورة مؤثّرة من خلال الموسيقى الصّاخبة المنبعثة من مكبّرات الصّوت. وما إن فرغ آخرهم حتّى بدأت أشعر بالغثيان

وبآلام شـملتني تمامًا وبميل إلى القـيء وبكربٍ عظيم يا إخواني وأنا مصلـوب في هذا الكـرسي. وعندمـا انتهى عرض هـذا الفيلم الثّاني استطعت أن أسـمع صوت الدّكتور برودسـكي هذا وهو يقول من ناحيـة لوحـة الأزرار والمفاتيح «ردّ الفعل عـن درجة 5 ,12؟ مبشّر! مبـشّر!» وبعد هذا انتقلنـا مباشرة إلى فيلم ثالـث، وكان في هذه المرّة يمثل وجه إنسان، وجه ممتقع شديد الامتقاع في وضع ثابت وتتداوله عمليّات قبيحة مختلفة. لقد شـعرت بالعرق يسـيل في جسدي بسبب ألم في امعائي وعطش فظيع وضربات شـديدة في رأسي، وبدا لي أنّني لو لم أكن أستطيع اطباق عيني، وحتّى لو حاولت تحريك عيني جانبًا لما اسـتطعت أن أحيد عن خطّ نار الرّؤية لهذه الصّورة. وهكذا كنت مقسـورًا على الاستمرار في مشاهدة ما يجري وسماع أقبح الصّرخات الصّـادرة عـن ذلك الوجه، وكنت أعلم أنّ شـيئًا كهـذا لا يمكن أن يكـون حقيقيًّا، بيد أنّ هذا لم يغيّر من الأمر شـيئًا. ولقد شـعرت بأنّ جوفي يموج ولكن لم أستطع أن أتقيأ وأنا أبصر أوّل الأمر مدية تخرج عينًا من محجرها ثم تنحدر فتشـقّ الخدّ شـقًّا ثـمّ تعمـل في الوجه كلّه تمزيقـًا نحو الأعلى والأسـفل، بينما كان الدّم الأحمـر القاني يتفجّر في عدسـات الكاميرا، ثـمّ امتدّت تنزع الاسـنان بزردية واحدة واحدة، فـكان الـصّراخ والـدّم يملأ القلـب رعبًـا. وبعد ذلك كلّه سـمعت صوت الدّكتور برودسكي هذا يقول مبتهجًا «ممتاز! ممتاز! ممتاز!»

وكان الفيلـم التّـالي يمثّـل امرأة عجـوزًا في دكّان لها تـركل ركلاً

بالاقـدام عـلى أيـدي عصبة من الشّـبان ما لبثـوا أن حطّمـوا الدّكّان ثمّ أضرموا النّار فيه. وكنت تسـتطيع رؤيـة تلك المرأة المنكودة وهي تحـاول الزّحـف من براثـن اللّهب وهـي تصرخ صراخًـا مدويًّا، بيد أن سـاقيها التي كسرها الشّـبّان من كثرة الرّفـس منعتها من الحركة، وهكـذا أحاطـت بها ألسـنة اللّهـب المسـتعر، وكنت تسـتطيع رؤية وجهها الهالع وقسـماته تستعطف وتبتهل من خلال اللّهيب المضطرم ثمّ يختفي بين أطوائه، وكنت تسـتطيع سـماع أهـوال صرخات النّزاع والعذاب التي تنفطر لها القلوب ويمكن أن يعبّر عنها صوت بشريّ. وهكذا شـعرت هذه المـرّة أنّه لا بـدّ أن أتقيّأ، فصرخـت قائلاً «أريد أن أتقيّـأ، أرجوكـم أن تدعـوني أتقيّـأ! أرجوكـم احضـار شيء لكي أتقيّـأ فيه! بيد أنّ الدّكتور برودسـكي هذا ردّ قائـلاً «هذا تخيّل فقط، ليـس هناك ما يدعو إلى القلق. الفيلـم التّالي جاهز!» لعلّه كان يقصد المزاح بعبارته تلك، فقد سمعت صوت ضحكة صدرت في الظّلام، وعـلى الأثر أُجْبرت على مشـاهدة أفظع فيلم عـن التّعذيب في حرب 1939 1945. فقد وقع نظري على جنود يصلبون على جذوع الشّـجر بالمسـامير والنّار توقد من تحتهم، وخصيّاتهم تقطع قطعًا، وإذا رأس أحدهم تجتزّ بالسّـيف، فيتدحرج عـلى الارض ومازالت الحياة بادية في الفم والعينين، وجسد الجنديّ ذاته يدور على نفسه قبل أن يخرّ على الأرض والـدّم يتدفّق من عنقه مثل نافـورة وأثناء ذلك كله لم تنقطع ضحكات الجنود المنتصرين. إنّ الآلام المبرحة التي شـعرت بها الآن

في بطنـي ورأسي والعطش الشّـديد كانـت في الحق مروّعـة. وهكذا رحـت أصرخ بهـذه الكلـمات «أوقفـوا الفيلـم! أرجوكـم أرجوكم أوقفوه، لا يمكن أن أحتمل أكثر من هذا!»

وعندئذ سـمعت صوت الدّكتور برودسـكي هـذا يقول «نوقف الفيلم؟ قلت نوقف الفيلم؟ عجبا! إنّنا لم نكد نبدأ!»

وضحك والآخرون ضحكًا رنّانًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

لا أودّ أن أصف، يا إخواني، تلك الفظائع الأخرى التي أُجبرت على مشاهدتها عصر ذلك اليوم. لقد بدا لي أنّ عقل كل من الدّكتور برودسكي والدّكتور برانوم وغيرهما من لابسي المعاطف البيضاء - ولا أنسى تلك المرأة الجالسة إلى أجهزة القياس تدير الأزرار والمقابض - لا بدّ أن تكون أسوأ وأحطّ من عقول نظرائهم في السّجن العمومي ذاته، لأنّني لم يخطر ببالي أن يستطيع أحد أن يفكّر في صناعة أفلام كالتي أُكرِهت على مشاهدتها وأنا مقيّد من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي في ذلك الكرسي وعيناي مشدودتان على سعتهما. وكل ما استطعته هو أن أصرخ فيهم لوقف العرض صراخًا متواصلاً غطّى على أصوات العنف وصوت الموسيقى المصاحبة لها. ولك أن تتصوّر كم تنفّست الصّعداء عندما انتهى عرض الفيلم الأخير. وقال الدّكتور برودسكي هذا بصوت قاعس ملول «أظنّ أنّ هذا يكفي لليوم الأوّل، ألّا ترى هذا يا دكتور برانوم؟» عند ذلك أضيئت الانوار ورأسي يدقّ دقًّا عنيفًا كآلة ضخمة تولّد الألم

وحلقي شـديد الجفاف، وبي ميل كبير لكي أتقـيّء كلّ طعام احتوته معـدتي. وقال الدّكتور برودسـكي مـرّة أخرى «لا بـأس! خذوه إلى فراشـه مـن جديد». ثـمّ ذا هو يربّت عـلى كتفي قائـلاً «بديع! بديع! هذه بداية مبشّرة جداً!» ذلك ووجهه كلّه ينضح بالابتسام، ثم تمطّى خارجًـا يتبعه الدّكتور برانـوم، وإن كان الدّكتور برانوم قد اختصّني بابتسـامة ودّيـة وعطوف إلى أبعد حدّ وكأنّـه لا صلة له بكلّ هذا ولا ضلـع له فيه وإنّما هو مكره مغلوب عـلى أمره مثلي. ومهما يكن فإنّهم حرّروا جسـدي من المقعد ورفعوا المشـابك التي كانت تشـدّ جفوني حتّـى تهيّـأ لي أن أفتح وأغمض عيني من جديد، وقد أغمضتهما فعلاً يا إخواني لفرط شـعوري بالألم والـدّق في رأسي، وبعدها حملوني إلى المقعد المتحرّك وأعادوني إلى غرفة نومي الحبيبة، وراح الممرّض الذي شـغّل المقعد يردّد أغنية شـائعة حتى قلت له بحدّة «اسكت يا هذا!» لكنّه لم يلبث أن ابتسم وردّ عليّ بقوله «لا تهتم يا صاحبي»، ثم استمر في الغناء بصوت أعلى. هكذا أعادوني إلى الفراش وأنا لا أزال أشـعر بالاعيـاء، وإن كنت لم أسـتطع النّـوم، ولكن بدا لي أنّنـي لا ألبث أن أتحسّن عمّا قريب. ثمّ جيء لي بشاي دافيء منعش مع لبن كثير، وبعد أن شربـت كفايتـي بـدا لي أنّ ذلك الكابـوس الفظيع غـدا في أطواء المـاضي وانتهى وولّى. وأخـيرًا جاء الدّكتور برانوم متهلّل الاسـارير وقال باسـمًا «حسـنًا! في تقديري أنّه يتعيّن أن تشعر بأنّك على ما يرام مـن جديد. أليس كذلك؟» ثمّ جلس عـلى حافّة الفراش وهو يفيض

ابتسـامًا، وأردف قائـلاً «إنّ الدّكتور برودسـكي مـسرور منك. فقد تجاوبت بصورة ايجابيّة، وغدًا بالطّبع ستكون هناك جلستان، صباحيّة ومسائيّة. ولا بدّ أن أتصوّر أنّك سوف تشعر بالاعياء في نهاية اليوم. لكن لا بدّ لنا أن نشتدّ عليك، إذ لا بدّ من علاجك وشفائك». فقلت له «تعني أنّه لا بدّ من الاسـتمرار في ذلك؟ تعني أنّه لا بدّ أن أشـاهد تلك الافلام؟، آه! كلا! كانت شـيئا مريعًـا، وفظيعًا!» فقال الدّكتور برانـوم باسـمًا «بالطّبع فظيعـة! إنّ العنف شيء فظيع جـدًّا. وهذا هو مـا تتعلّمـه الآن. أن يتعلّمه جسـدك». فقلت «لكن أنـا لا أفهم..أنا لا أفهم كيف يكون الشّـعور بالغثيان كالذي شـعرت به. لم يسـبق لي أبدًا أن شـعرت بهذا، كنت دائمًا أشـعر بالعكـس.. أقصد أنني كنت وأنا أفعل هذا أو أراقب حدوثه لا أشـعر بذلك. وأنا لا أفهم كيف، ولماذا، وما هو». فراح الدّكتور برانوم يقول بلهجة رصينة «إنّ الحياة شيء عجيب ورائع جدًّا. أحدّثك عن عمليّات الحياة، عن تفاعلات الكيـان البشري، من يسـتطيع أن يفهـم تمام الفهم هـذه المعجزات؟ إنّ الدّكتـور برودسـكي رجل فريد. وما يحدث لـك الآن هو ما كان يجـب أن يحـدث لأيّ كيـان بـشري، طبيعي، ومعـافى يتدبّـر تفاعيل قـوى الـشّر، ومعقّبات أفعـال الدّمار. والآن فإنّه يجـري تحويلك إلى كائن سـوي،،صحيح، معافى. فقلـت «هذا ما لن يحدث معي،وما لا أفهمه بأيّ حال! إنّ ما تفعلونه معي هو جعلي أشعر باعتلال شديد، شديد!» فقال الدّكتور برانوم وما زالت الابتسامة الودود تعلو شفتيه

«وهل تشعر الآن بأنك عليل سقيم؟ إنّ شربك الشّاي، والرّاحة، وتبادلك حديثًا هادئًا مع صديق في هذا من المؤكّد أنّك لا تشعر بأيّ شيء سوى أنّك بخير؟» لقد رحت أتلمّس الاحساس بأيّ ألم أو سقم في رأسي وجسدي بحذر واستشفاف، لكن شعرت حقًّا وصدقًا يا أخواني أنّني على ما يرام، بل شعرت حتّى بأنّني أريد طعام العشاء. ثم قلت «لا أستطيع أن أفهم. لا بدّ أنّكم تفعلون بي شيئًا لكي تجعلوني أشعر بالاعتلال!» وشفعت هذا بتقطيب كمن يتأمّل ويتدبّر. فقال الدّكتور برانوم «إنّك شعرت بالاعتلال بعد ظهر اليوم لأنّك كنت تتحسّن وتتعافى إنّنا عندما نكون أصحّاء معافين فأنّنا نستجيب لما هو مكروه بالشّعور بالخوف والغثيان، كل ماهناك هو أنّك تتماثل للصّحة والسّواء. ولسوف تكون أوفر صحة وسواء في مثل هذا الوقت غدًا». قال هذا ثمّ ربّت على ساقي وانصرف وتركني أحاول أن أفهم هذا اللّغز العجيب بقدر ما يسعفني الفهم وما بدا لي هو أنّ تلك الاسلاك وغيرها ممّا ثبّتوه على جسدي ربّما كانت هي التي جعلتني أشعر بالاعتلال، وأنّ كلّ ذلك ما هو إلّا خدعة وتلاعب في الواقع. وكنت لا أزال أتدبّر هذا اللّغز وأفكّر فيما إذا كان ينبغي أن أرفض غدًا شدّي إلى ذلك المقعد وأبدأ عمليّة عنف معهم لأنّ لي حقوقي، عندها دخل شخص آخر بادي الوجاهة والابتسام وقال لي أنّه هو ما يسمّونه «بضابط الافراج» وكان يحمل معه أوراقًا كثيرة، وخاطبني قائلاً «أين تنوي أن تذهب عندما تخرج من هنا؟»

في الحقيقة، أنّني لم أفكّر في شيء من هذا بتاتًا، وبرقت أمامي الآن فكرة أنّني سأنال حرّيّتي عاجلاً، ورأيت أنّ هذا سيتحقّق فعلاً إذًا. أنا جاريتهم في كلّ ما يطلبونه ولم ألجأ إلى أيّ شيء من العنف أو الصّراخ أو الرّفض وما إلى ذلك. وهكذا قلت له ردًّا على سؤاله «آه! سأذهب إلى بيتي.. إلى أبي وأمّي. إلى ماذا؟» لم يفهم لغة (نادسات) تلك، وهكذا فسّرت له «إلى والدي في مسكننا العزيز». فقال «فهمت. ومنذ متى كانت زيارة والديك لك؟» فأجبت قائلاً «منذ شهر تقريبًا أوقفوا يوم الزّيارة لوقت محدّد لأنّ أحد المسجونين حاول تهريب مادّة ناسفة عبر الأسلاك بواسطة صديقته. وهي خدعة حقيرة لمن هم أبرياء، وكأنّما كان يراد عقابهم هم أيضًا، ولهذا مضى قرابة شهر منذ آخر زيارة. فقال الرّجل «مفهوم! وهل أبلّغ والديك بأمر نقلك إلى هنا والافراج عنك قريبًا؟» كان لكلمة «الافراج» رنين بديع مفرح، وقد أجبت قائلاً «كلا، إنّها ستكون مفاجأة لطيفة لهما، أليس كذلك؟ إذ أدخل عليهما من الباب وأقول لهما «هأنذا عدت حرًّا طليقًا مرّة أخرى. نعم، هذا شيء رائع فعلاً!» فقال ضابط الافراج «صحيح.. سنكتفي بهذا، ما دام لك مقرّ للإقامة، والآن بقيت مسألة ايجاد عمل لك، أليس كذلك؟» وأراني قائمة طويلة بالاعمال التي يمكن أن ألتحق بها، غير أنّني فكّرت، ورأيت أنّ الوقت لا يزال أمامي لهذا الغرض. المطلوب أوّلاً هو اجازة لطيفة، بإمكاني القيام بعمليّة من عمليّات الماضي حالما أخرج لكي أملأ جيوبي بمال وفير،

ولكـن يتعيّن عـليّ أن ألتزم بمنتهى الحذر، وأن أتـمّ العمليّة بمفردي تمامًـا، فلن تكون لي بعد الآن ثقة بأولئـك الرّفاق المزعومين. وهكذا قلـت لذلك الرجـل أن نؤجّل مسـألة العمل بعـض الوقت ويمكن أن نتـداول فيهـا فيـما بعـد. فلم يزد عـلى قوله «صح، صـح، صح!» ثـمّ تأهّب للانصراف، غير أنّه فعل شـيئًا يدلّ على الغرابة الشّـديدة، فقـد تضاحـك برهة ثمّ قال لي «هل تـودّ أن تلطمني على وجهي قبل أن أذهب؟» لا أظنّ أنّني سـمعت هذا جيـدًا، ولهذا قلت له «ايه؟!» فتضاحك مـرّة أخرى وقال «هل تودّ أن تلطمني على وجهي قبل أن أذهــب؟» قطّبـت وجهي لهذا الـكلام وقد زادت دهشـتي وحيرتي، وقلت «ولماذا؟ آه!» لمجرّد أن أرى كيف تتقدّم حالتك.

قال هذا وأدنى وجهه منّي وقد شاعت في وجهه ابتسامة عريضة. فضـممـت قبضتـي ووجّهت بها لطمة إلى وجهه، بيـد أنّه أبعد وجهه بسرعـة وهـو لايزال باسـمًا، وهـوت قبضتـي في الهواء. يـا للعجب العجاب، و يا للغرابة هذا الذي حدث! ولم أتمالك أن قطّبت وجهي حين انصرف والابتسامة تغمر وجهه.

وعلى الأثر شـعرت يا إخواني باعتلال حقيقي وغثيان مرّة أخرى كـما حدث لي بعـد الظّهر مدّة دقيقتـين أو نحوهما، ثـمّ زال عنّي هذا سريعًـا، وعندمـا أحـضروا لي طعام العشـاء وشـعرت بشـهيّة طيّبة وأقبلـت عـلى نهـش الدّجاجة المشـويّة. لكـن كان مـن المضحك أن يطلب ذلك الرّجل أن ألطمه على وجهه، وكان من الغريب أن أشعر

بالاعتلال كما حدث لي. لكن كان الباعث على الضّحك والغرابة هو ما حدث لي أثناء النّوم هذه اللّيلة، فقد انتابني كابوس، وكان يدور كما يمكنك أن تتوقّع، حول تلك الافلام التي شاهدتها عصرًا. إنّ الحلم أو الكابوس هو في الواقع أشبه بفيلم يدور في رأسك، تشعر وكأنّك تمشي في ثناياه وتكون جزءًا منه، وهذا ما حدث لي. كان الكابوس يمثّل لقطات من الفيلم الذي أروه لي قرب نهاية الجلسة، عن فتيان يعتدون على فتاة شابّة كانت تصرخ من خلال دمائها القانية وقد مزّقت ملابسها شرّ تمزّق، وكنت في قلب هذا المشهد الفاجر أضحك وأتزعّم هذه الزّمرة مرتديًا آخر (موضة) في زي فتيان (النادسات). وعند نهاية هذا العدوان شعرت بما يشبه الشّلل والرّغبة في القيء، بينما ذهب الباقون يضحكون منّي. وبعدها أخذت أشقّ طريقي إلى اليقظة وأنا ملوّث بدمي الذي كان ينسكب ويجري غزيرًا، ثم ألفيتني في النّهاية في فراشي في هذه الغرفة، لقد أردت أن أتقيّأ، وهكذا نزلت من الفراش وأنا أرتعد بشدّة لكي أنتقل إلى دورة المياه في الممشى، ولكن، ويا للعجب يا أخواني، كان الباب مغلقًا! وعندما عدت وجدت النّافذة مشبّكة بالقضبان. وهكذا لم يكن أمامي سبيل للهرب من كلّ هذا، وبعد فترة شعرت أنّني لا أريد أن أتقيّأ. وأخيرًا غلبني النّوم، ولم أعد أحلم مرّة أخرى.

الفصل السادس

«أوقفوا هذا! أوقفوا هذا! أوقفوا هذا! كفّوا عن العرض يا أولاد الحـرام، فلن أقوى عـلى الاحتمال أكثر من هـذا». بهذا رحت أصرخ وكان ذلـك في اليوم التّالي يـا إخواني، وقد رحت أبذل أقصى جهدي صباحًا ومسـاءًا لمجاراتهم فيما يفعلون بي وجلست مبتسّمًا متعاونًا في كرسي العذاب وهم يعرضون لقطات من أفلام العنف على الشّاشـة وعيناي مشـدودتان إلى أعلى ومفتوحتان على سعتهما لكي أشهد كل ما يدور، وقد شـدّ جسـدي ويداي وقدماي في المقعد بلا مهرب ولا فكاك. وإن ما جعلوني أشـاهده الآن لم يكن في الحقّ شـيئًا كان يمكن أن أعدّه بالغ السّـوء في الماضي، ولم يكن أكثر من ثلاثة أو أربعة فتيان يحطّمـون دكّانًا ويملأون جيوبهم بالنّقود ثـمّ يضربون صاحبته التي تحـاول الهرب والدّماء تسـيل منهـا. لكنّ الدّقّ العنيـف المتواصل في رأسي، والميـل إلى القيء، والعطش الشّـديد في فمـي، والجفاف المؤلم في حلقي كان كلّ أولئك أسـوأ مما كان بالأمس. هكذا رحت أصرخ «أوّاه! يكفـي! هـذا ليس عدلاً يـا ظَلمة!» وحاولـت أن أتملّص من

الكرسيّ، غير أنّ هذا لم يكن ممكنًا وكأنّما سمرت فيه وغدوت جزءًا منه، ثمّ هتف الدّكتور برودسكي هذا «درجة أولى، أنت تتقدّم بصورة طيّبة في الواقع! فيلم واحد فقط، ثمّ نفرغ منك!» ثمّ عرض فيلم آخر عن حرب 1939 1945 مرّة أخرى، وكان عن الالمان، وقد بدأ بشعارات النّسور الالمانيّة وعلم النّازي ذي الصّليب المعقوف الذي يشغف تلاميذ المدارس برسمه. ظهر ضبّاط ألمان يمشون متعالين متغطرسين في شوارع امتلأت بالاتربة وحفر القنابل والمباني المدمّرة ومن بعدهم ظهر أناس يُعدمون رميًا بالرّصاص أمام جدران تنفيذًا لأوامر الضّباط. ثم تبدو جثث عارية ملقاة في الاوحال وكانت أشبه بأضلاع مجرّدة وسيقان منحولة بيضاء، وأعقب ذلك مشهد أناس يُجرّون جرًّا وهم يضربون ويصرخون وإن غطّى صوت الموسيقى على أصواتهم. وقد لاحظت بين الألم والغثيان يا إخواني أنّ الموسيقى التي كان لها دويّ قاصف هي موسيقى «بتهوفن»، أو بالأحرى الحركات الأخيرة من السّيمفونيّة الخامسة، وهكذا لم أتمالك أن صرخت فيهم «توقّفوا! توقّفوا يا كلاب! هذه جريمة! جريمة قذرة لا تغتفر». إنّهم لم يتوقّفوا على الأثر، إذ بقيت دقيقة أو اثنتان حتّى نهاية الفيلم وكانت مشاهد أناس يضربون و دماؤهم تسيل، ومزيد من عمليّات الاعدام رميًا بالرّصاص، ثم راية النّازي وكلمة «النهاية» ولكن عندما أضيئت الانوار ألفيت الدّكتور برودسكي هذا وكذلك الدكتور برانوم واقفين أمامي، ثمّ قال الدّكتور برودسكي

«ما هذا الكلام الذي قلته عن جريمة؟» فقلت وأنا في شدّة الاعياء والاعتلال «أعني استخدام موسيقى بتهوفن بهذه الكيفيّة أنّه لم يفعل أذى لأيّ إنسان. بتهوفن لم يفعل غير وضع الموسيقى! ولم ألبث أن غالبني القيء، فأحضروا لي وعاء على شكل كلية، وأخيرًا قال الدّكتور برودسكي متأملاً «موسيقى؟ إذًا فأنت مشغوف بالموسيقى، أنا شخصيّا لا أعرف شيئًا عنها. كل ما أعرفه هو أنّها مفيدة في ترقية العواطف، حسنًا، حسنًا ما رأيك في هذا يا برانوم؟» فأجاب الدّكتور برانوم «هذا شيء لا حيلة فيه، كل إنسان يقتل الشّيء الذي يحبّه، كما قال أحد الشّعراء. ولعلّ هنا العنصر العقابيّ، ينبغي للحكومة أن تسرّ بهذا».

أمّا أنا فقلت «أعطوني ما أشرب، بحقّ الله!» فأصدر الدّكتور برودسكي أمره قائلاً «فكّوه، وهاتوا له دورقًا بالماء المثلج». وهكذا أسرع الممرّضون، وبعد قليل كنت أعبُّ الماء عبًّا، وشعرت كأنّني كنت في السّماء يا إخواني!

وقال الدّكتور برودسكي «يبدو أنّك فتى موفور الذّكاء وأنّك لست بغير ذوق وحسّ مرهف، وكلّ ما هناك أنّك اكتسبت ظاهرة العنف، أليس كذلك؟ العنف والسّرقة، والسرقة هي ظاهرة من ظواهر العنف». إنّني يا إخواني لم أفهم كلمة واحدة من هذا، كنت لا أزال أشعر بالاعتلال والغثيان، وإن طرأ عليّ الآن شيء من التّحسّن، لكنّه كان يومًا عصيبًا مروّعًا.

وعاد الدّكتور برودسكي يقول «والآن، ما رأيك فيما يفعل بك؟ قل لي، ماذا تظنّ أنّنا فاعلون بك؟»

فقلت «إنّكم تعملون على جعلي أشعر بالاعتلال، إنّني أشعر بالاعتلال والسّقم عندما أنظر إلى هذه الافلام القذرة المنحرفة التي تعرضونها. لكن ليست الافلام حقًّا هي التي تفعل بي هذا، بل أشعر أنّكم لو توقّفتم عن عرض هذه الافلام، فسوف يتوقّف شعوري بالاعتلال والسّقم».

فقال الدّكتور برودسكي «صح. هو التّرابط والتّداعي، أقدم أسلوب تعليمي في العالم. وما هو الذي يجعلك تشعر فعلاً بالاعتلال والسّقم؟»

فقلت «هذه الاشياء البشعة التي تتولّد في رأسي وجسدي نتيجة لما تفعلون بي».

فقال الدّكتور برودسكي بشيء من الضّجر «لا بأس! لا بأس! ليست الاسلاك هي التي تفعل هذا. ليس لما تشكو منه علاقة بقيودك هذه، إنّما هي لمجرّد قياس ردود الفعل عندك. ما هو السبب إذًا؟»

فجأةً خطر لي أنّني كنت أعمى إذ لم أفطن إلى أنّ الحقن التي كانوا يحقنون بها ذراعي هي السّبب، وهكذا صرخت قائلاً «آه! آه! إنّني أرى الآن كلّ شيء، هي خدعة حقيرة وخيانة قذرة، ولن تفعلوا هذا بي بعد الآن».

فقال الدكتور برودسكي «أنا مسرور لأنّك تبدي الآن اعتراضاتك. الآن يمكن أن نكون واضحين تمامًا في كلّ شيء، بإمكاننا أن ندخل تلك المادة، «مادة لودفيكو» في تكوينك بطرق كثيرة مختلفة: عن طريق الفم مثلاً، لكنّ طريقة الحقن تحت الجلد هي الأفضل. لا تقاوم ما يعطي لك من فضلك، لا فائدة من أيّ مقاومة، فلا يمكنك أن تغلبنا».

فقلت بتأثّر يكاد يبلغ حدّ البكاء «يا ملاعين! إنّني لا أهتمّ بما تعرضون من أفلام العنف وما إليها، بإمكاني أن أتجاوز عن هذا.. لكن في مسألة الموسيقى ليس من الانصاف والعدل أن تسمعوني الموسيقى الجميلة لـ«بتهوفن» و«هاندل» وغيرهما، كلّ هذا يبيّن أنّكم عصبة من أولاد الحرام، ولن أغفر لكم هذا بأيّ حال».

بدا لي أنّ الاثنين يفكّران ساهمين، وما لبث الدّكتور برودسكي أن قال «التّحديد والتّخطيط دائمًا صعب. الدّنيا شيء، والحياة شيء آخر. إنّ أحلى وأسمى النّشاطات تتشارك بدرجة ما في أعمال العنف، في الجنس مثلا، أو في الموسيقى مثلاً. لا بدّ أن تجرّب حظّك يا ولد، وكان الاختيار كلّه منوطًا بك لم أفهم كلّ هذا الكلام، لكنّني قلت بعد أن غيّرت لهجتي بعض الشّيء بطريقتي الماكرة «لا حاجة إلى الاستمرار في هذا أكثر من ذلك، فقد برهنتم لي أنّ كل أعمال العنف هذه من ضرب وقتل وغيرهما هي خطأ، خطأ، وخطأ فظيع! إنّني تعلّمت الدّرس يا سادة. وقد تبيّنت الآن ما لم أتبيّنه من قبل أبدًا وقد

شـفيت الآن بحمد الله». قلت هذا وأنا أرفع عيني إلى السّـماء تبجيلاً واجلالاً غير أنّ الطبيبين هزّا رأسيهما على نحو من الحزن.

وقال الدّكتور برودسكي: «أنت لم تشف بعد. وهناك الكثير ممّا لا بدّ أن نفعله فقط عندما يستجيب جسدك استجابة فوريّة وقويّة إلى العنف، كما يستجيب ازاء أفعى، ودون مساعدة أخرى من جانبنا، ودون تطبيب عند هذا فقط».

فقلت مقاطعًا «لكن سيّدي وسادتي، أرى أنّ هذا خطأ! هذا خطأ لأنّـه ضدّ المجتمع، ولأنّ كل إنسـان على وجـه الأرض له حقّه في أن يحيا ويسعد دون أن يتعرّض للضّرب أو الاعتداء بالمدى».

غـير أنّ الدّكتـور برودسـكي تلقّـى هذا الـكلام بضحكـة عالية متّصلـة حتّى بدت كلّ أسـنانه البيضاء، وقـال «كلام منمّق، أرى ما هـو صـواب وأقـرّه، لكنّني أفعـل ما هو خطـأ! كلّا، كلّا يـا ولدي، لا بـدّ أن تـترك كلّ شيء لنـا. لكن كـن منشرحًا متفائـلاً وعمّا قريب سـينتهي كل شيء، وفي أقل من أسبوعين سـوف تكون رجلاً حرًا». وشـفع هذا الكلام بأن ربّت على كتفي، في أقل من أسـبوعين؟! أوّاه يـا إخواني وأصدقائي! هـذه المدّة كأنّها دهر، كأنّها منـذ بداية الخليقة إلى نهايتهـا. إنّ اختتـام الاربع عشرة سـنة بقيّة المـدّة المحكوم بها عليّ بالعـودة إلى السّـجن كان في نظري أسـهل من هـذا، وعندما جاءت الممرّضـة المكلّفـة بالحقـن، وإن كان ذلك بعد اربعة أيّـام من حديثي ذاك مـع الدّكتور برودسـكي والدّكتـور برانوم، قلت لهـا «آه، لا لن

تفعلي هذا! وضربتها على يدها، فهوت الحقنة برنين على الأرض وإنّما فعلت هذا لكي أرى ماذا سيفعلون؟ فكان أن جاء اربعة أو خمسة من الممرّضين الأشدّاء الملاعين وألزموني الفراش وهم يضربونني ووجوهم باسمة قريبة من وجهي، وهنا قالت تلك الممرّضة «يا لك من شيطان صغير شقيّ!» وغرست حقنة أخرى في ذراعي وبها تلك المادّة الكريهة الشّيطانيّة، وبعدها نقلوني في الكرسي المتحرّك منهكًا إلى موقع تلك السّينما الجهنّميّة كما كان من قبل، وكلّ يوم يا إخواني كانت تلك الافلام كمثيلاتها، اعتداء بالضّرب والرّفس، ودماء حمراء قانية تقطر من وجوه وأجساد وتلطّخ عدسات الكاميرا عن آخرها. كانت دائمًا مشاهد فتيان يبتسمون ويضحكون وهم في قمّة (موضة النادسات)، أو مظاهر تعذيب وحشية من جنود متبربرين عملهم بقر البطون والرّمي بالرصاص. وكلّ يوم كان احساسي بالرّغبة في الموت من القيء، وأوجاع الرّأس، وآلام الاسنان، والعطش الرّهيب المشتدّ كان احساسي بهذا يزيدني سوءًا وكربًا، إلى أن جاء يوم حاولت في صباحه أن أقهر أولاد الحرام أولئك بدقّ رأسي في الجدار دقًّا متواصلاً حتّى أسقط مغشيًّا عليّ، لكن كل ما حدث هو أنّني رأيت هذا النّوع من العنف كان مماثلاً للعنف في الافلام، ولم أجنِ من هذه المحاولة سوى الاعياء والوهن، واستمرّ اعطائي الحقن، واستمرّ نقلي بالكرسي المتحرّك كما كان من قبل. ثم جاء صباح يوم استيقظت فيه وتناولت فطورًا من البيض و(التّوست)

والمربّى والشّـاي باللبن السّـاخن جدًّا، وعندها فكّرت «لا يمكن أن يطـول الوقت كثيرًا الآن.. الآن لا بدّ أنّ نهاية هذه المسـألة أصبحت قريبة جدًّا، إنّني قاسـيت إلى أبعد حدّ ولا يمكنني أن أقاسي أكثر من هـذا». وجعلت أنتظـر يا إخواني أن تـأتي الممرّضة بالحقنـة، غير أنّها لم تجـضر وبعدئذ جاءني ممـرّض وقال لي «اليوم يا صاحبي سـندعك تمشي». فقلت «أمشي! إلى أين؟ فأجاب قائلاً «إلى المكان المعتاد. نعم، نعم. لا تتعجّب هكذا، ستمشي إلى مكان الافلام، وأنا معك بالطّبع، لن تنقل بعد الآن في كرسي متحرك».

فقلـت «لكـن، مـاذا عن تلـك الحقنـة الصّباحيّة الفظيعـة؟» فقد دُهشـت حقًّـا يا أصدقائي من هـذا، بعد أن رأيتهـم مهتمّين إلى أبعد حدّ بادخال «مادة لودفيكو» تلك في جسدي كما أخبروني.

وأضفـت قائـلاً «ألن آخـذ تلك المادّة البشـعة المقـزّزة في ذراعي المعذّب بعد الآن؟»

فقال الممرّض باسمًا «قطعًا، إلى الأبد وإلى الابد، آمين! أنت الآن مسـتقلّ بنفسـك يا ولدي، تمشي بارادتـك إلى غرفـة الفظائع. لكن سوف يستمرّ ربطك في الكرسي واجبارك على المشاهدة، هيّا إذًا أيّها النّمـر الصّغير!» ولم أجد أبدًا من لبس روبي (وشبشـبي) والمشي في الرّدهـة إلى دار السّـينما تلـك. والآن في هـذه المرّة يا إخـواني لم أكن فقـط معتلاً جـدًّا بل متحـيّرًا أيضًا. لقد تكرّرت المشـاهد السّـابقة مـن جديـد، أعمال العنـف بكلّ أنواعها، و أناس تهشـم رؤوسـهم

وتسيل دماؤهم، ونساء يصرخن مسترحمات، إلى آخر هذه القائمة من الفظائع والقبائح. ثمّ جاءت مشاهد معسكرات الاعتقال وتعذيب المعتقلين والشّوارع الاجنبية المليئة بالدّبّابات والجنود والأسرى يتساقطون صرعى برصاص الاعدام. في هذه المرّة لم يكن لي أن ألوم أحدًا لشعوري بالغثيان والعطش والأوجاع فيما عدا اجباري على رؤية ما أشهد، إذ ظلّت عيناي مشدودتين عنوة للنّظر وجسدي كلّه موثّق في المقعد، وإن كانت الاسلاك لم تعد متّصلة، برأسي وجسدي. فماذا يمكن أن يكون هذا إلّا إذا كانت الافلام التي أشاهدها هي التي تفعل هذا بي؟ إلّا أنّ «مادة لودوفيكو» تلك يا أخواني كانت بمثابة مصل، وها هي تسري في جسدي ودمي، لكي أظلّ أشعر بالغثيان إلى الأبد كلّما شاهدت شيئًا من أفعال العنف تلك. هكذا اختلج فمي وانبثقت الدّموع في عيني تحجب ما كنت مكرهًا على مشاهدته. غير أنّ هؤلاء المرّضين الملاعين أسرعوا إليّ يمسحون دموعي قائلين «عيب على مثلك البكاء يا بنيّ!» ووضّحت صور المشاهد أمام عينيّ من جديد. الألمان يسوقون اليهود الباكين المستصرخين رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى غرف الغاز السّام، وإذا الدّموع تنبثق من عيني مرّة أخرى، فيسارع المرّضون إلى مسحها لئلّا يفوتني أقل شيء ممّا يعرضونه أمامي. لقد كان هذا يا إخواني واصدقائي يومًا عصيبًا مشهودًا، ثمّ كنت ممدّدًا في فراشي تلك اللّيلة بعد عشاء من حساء الضّأن الدّسم

وفطير الفاكهة والمثلّجات، وذهبت أفكّر على هذه الصورة «سحقًا لهم!» ربّما كانت الفرصة أمامي للنّجاة إذا هربتُ الآن، لكن لم يكن معي أيّ سلاح، ولم يسمحوا لي حتّى بمطواة، وكان يحلق ذقني يومًا بعد يوم شخص سمين أصلع كان يأتي إلى فراشي قبل الفطور بينما يقف عن كثب اثنان من الممرّضين للاطمئنان إلّا أنّني إنسان مسالم. وكانوا قد قلّموا أظافر يدي عن آخرها لئلّا أخدش أحدا. لكنّني ما زلت سريعًا في الهجوم، وإن كانوا قد أوهنوا قواي يا إخواني حتّى أصبحت أقرب إلى شبح ممّا كنته في أيّام الحرّيّة الخوالي.

وعندما اختمرت الفكرة في ذهني هبطت من الفراش وذهبت إلى الباب المؤصد وأخذت أضربه بعنف وأنا أصرخ قائلاً «النّجدة! النّجدة! أنا أموت! طبيب! طبيب! طبيب بسرعة!» لقد جفّ حلقي وبحّ صوتي قبلما جاء أحد، ثم سمعت وقع أقدام آتية في الممشى وصوتًا يزمجر، وعلى الأثر تعرّفت إلى الممرّض الذي كان يأتيني بالطّعام ويصحبني إلى حتفي المحتوم كلّ يوم.

قال ساخطًا «ماذا جرى؟ ما هي لعبتك القذرة هذه المرّة؟»

فقلت متأوّهًا متوجعًا «إنّني أموت! أشعر بألم مميت في جنبي! هي الزّائدة الدّوديّة! آه! آه! آواه!»

فردّ الممرّض مزمجرًا «زائدة في عينك!»

وأشدّ ما كانت فرحتي يا إخواني عندما سمعت صليل مفاتيح

وصوته يقول «إذا كنت تحاول خداعنا يا صديقي فإنّني وزملائي سنضربك ونؤذيك طوال اللّيل».

وما لبث أن فتح الباب فكان فتحه بشيرًا بقرب حرّيّتي، وكنت أسرع ما في الوقوف خلف الباب عندما فتحه، ولمحته في ضوء الممشى يتلفّت حوله بحثًا عنّي في دهشة وحيرة، وهنا رفعت قبضتي الاثنتين لكي أضربه على عنقه بعنف، وأقسم لك أنّني عندما تخيّلته ممدّدًا على الأرض سلفًا يئنّ من الضّربة ويغيب عن الوعي حتّى تملّكتني الفرحة عندها شعرت بالغثيان يرتفع في داخلي كأنّه موجة، وأحسست بخوف شديد وكأنّني أوشك أن أموت. وما لبثت أن عدت مترنّحًا إلى الفراش، وبدأ الممرّض الذي لم يكن في معطفه الأبيض بل في (روب)، يفهم ما كنت أنويه، إذ قال لي «حسنًا كلّ شيء كأنّه درس، أليس كذلك؟» الإنسان يتعلّم في كلّ وقت. هيّا يا صديقي الصّغير، قم من الفراش واضربني.. أريد أن تضربني حقيقة، ضربة قويّة على الفكّ. إنّني مشتاق لهذه الضّربة وحقّك!» لكن كل ما استطعت أن أفعله يا إخواني هو أنّني لبثت ممدّدًا في الفراش أبكي وأنتحب إلى أن قال الممرّض ساخرًا «يا حقير! يا قذر!» ثمّ جذبني من ياقة «بيجامتي» وأنا في منتهى الضّعف والاعياء، وصوّب إليّ لطمة أصابتني في وجهي، قائلاً «هذه نظير اخراجي من فراشي، أيّها الحقير الصّغير!» ومسح يديه واحدة بالأخرى ثمّ خرج، وسمعت صرير المفتاح في قفل الباب وما كان لي يا إخواني إلّا أن ألوذ بالنّوم

هربًـا من ذلك الاحسـاس الفظيع بأنّه كان خـيرًا لي أن أتلقّى اللّطمة بـدلاً من أن أعطيها، بل لو أنّ ذلـك المرّض قد بقى، فربّما أدرت له خدّي الآخر.

الفصل السابع

لم أستطع يا إخواني أن أصدّق ما قيل لي، فقد بدا لي كأنّني لبثت في هذا المكان اللّعين دهرًا، وأنّني سأبقى فيه إلى أبد الآبدين. لكنّ الوقت كلّه لم يزد عن أسبوعين، وقد أبلغوني الآن أنّ الوقت قارب النّهاية.

قالوا لي «غدًا، يا صديقنا الصّغير، إلى الخارج، إلى الخارج». وأكّدوا هذا التّصريح برفع إصبع الابهام، إيماء إلى الحرّيّة، وبعدئذ جاءني الممرّض ذو المعطف الأبيض الذي لطمني والذي ما زال يحضر لي الطّعام ويصحبني كلّ يوم إلى غرفة العذاب، وقال لي «لكن لا يزال أمامك يوم حافل، إنّه سيكون جواز مرورك إلى الخارج». وشفع هذا بابتسامة خبيثة، بينما كنت أتوقّع هذا الصّباح أنّني سأنتقل إلى دار السّينما الرّهيبة كالمعتاد بالبيجاما و «الشبشب» و«الروب». لكن كلّا، في هذا الصّباح أعطوني قميصي وملابسي الدّاخليّة والخارجيّة وحذاء الرّفس الضّخم، وكلّها مغسولة ومكواة ومصقولة، بل أعطوني مطواتي (قرن الغزال) التي كنت أستعملها

في تلـك الأيّـام الخوالي السّـعيدة للمعابثة والعـدوان. وهكذا رحت أرتـدي هـذه الملابس وأنا عابـس حيران لما أرى، غـير أنّ الممرّض لم يلبث أن ابتسم ولم يشأ أن يقول شيئًا يا إخواني، ثمّ اقتادوني برفق بالغ إلى دار السّـينما الجهنّميّة، لكنّني ألفيت تغيـيرات قد حدثت بها. فقد حجبت ستائر شاشة العرض، ولم يعد الزّجاج المحجّر أسفل فتحات العرض قائمًا مكانه، ولعلّهم رفعوه أو طووه مثل ستائر النّوافذ. وفي المـكان الذي كانت تسـمع فيـه أصوات السّـعال ولغـط الاحاديث واشـباح أشـخاص كان هناك الآن حشـد مـن النّظـارة تبيّنت بينهم وجوهًـا أعرفها، منهـا محافظ السّـجن، وواعظه، ورئيـس الحرّاس، وتلك الشّخصيّة الهامّة جدًّا التي كان صاحبها يرتدي أفخر الملابس، أعنـي وزير الدّاخليّة، أمّـا الباقون فلم أكن أعرفهـم. وكان الدّكتور برودسكي والدّكتور برانوم بين الحضور، وإن لم يكونا الآن بالمعاطف البيضـاء، بل كانا يرتديان أيضًا ملابس فخمة مثل كبار الاطبّاء. وقد اكتفـى الدّكتـور برانـوم بالوقوف، بيـد أنّ الدّكتور برودسـكي كان يخاطـب المجتمعين بأسـلوب المحاضريـن. وعندمـا رآني أدخل قال مواصلاً حديثه «آه! عند هذه المرحلة أيّها السّـادة نقدّم لكم الموضوع ذاته كما سوف ترون سليم وجيّد التّغذية. وهو قادم الآن بعد نوم ليلة وفطور طيّب، وهو غير مخدّر ولا منوّم مغناطيسيًّا، وغدًا نرسله بكلّ ثقـة إلى العـالم الخارجي من جديد، فتى مهذبًـا كأيّ فتى تلتقون به في صبـاح يوم من مايو، مبرأ من الـشّر والعنف، نزّاعًا إلى الكلمة الطّيّبة

والعمل الايثاري. ما أعظم هذا التّغيير، أيّها السادة، الذي طرأ عليه بعد أن كان منحرفًا منكودًا قضت عليه الدّولة بعقوبة غير مثمرة منذ نحو سنتين، فلم يتغير فيه شيء خلال ذلك الوقت! بل إنّ وجوده في السّجن علّمه الابتسامة الزّائفة، والنّفاق، والتّمساح السّاخر، لقد علّمه السّجن رذائل أخرى كثيرة، كما قوّى فيه تلك الرّذائل التي طالما مارسها في الماضي. لكن نكتفي الآن أيّها السّادة بالكلام فالافعال ستكون أفصح لسانًا، إلى العمل الآن، لاحظوا كل ما يجري!» في الحق يا إخواني لقد شعرت بشيء من الذّهول لهذا الكلام ورحت أحاول في ذهني أن أستوعب أنّ كل هذا كان بخصوصي، وعلى الأثر أطفئت الانوار، ثم أعقب ذلك ظهور دائرتين من الضّوء المنبعث من مربّعات العرض السّينمائي سلّط أحدهما على شخص محدّثكم المتواضع المعذّب، وظهر في الدّائرة الثّانية شخص ضخم لم أره من قبل كان له فم غليظ وشارب وخصلات من شعر قليل التصقت في شبه خطوط على رأسه شبه الاصلع. وكان يناهز الثّلاثين أو الاربعين أو الخمسين، أو سنًّا متقدّمة في هذا المدار، وما لبث أن اقترب منّي تتبعه دائرة الضّوء حتّى استحالت الدّائرتان إلى دائرة واسعة. وقد قال لي مستهزئًا «ما هذا الكم من الاوساخ؟! أف! أنت لا تغتسل كثيرًا كما تدلّ عليه رائحتك الفظيعة ثمّ بدأ بحركة شبه راقصة وداس على قدمي اليسرى ثمّ اليمنى، ثمّ خدش بأظفر اصبعه أنفي خدشة عنيفة آذتني بشدّة وأسالت الدّموع من عيني، ثمّ فرك

أذني اليسرى كما لو كان يدير مفتاح الرّاديو حتّى سمعت ضحكا عاليًا من الحضور، ومن فرط ما آلمني وجع أنفي وأذني وقدي قلت له «لأيّ شيء تفعل هذا بي؟ أنا يا أخي لم أفعل شيئًا خاطئًا في حقّك!»

فقال ذلك المخلوق «آه! أنا أفعل هذا! وخدش أنفي مرّة ثانية، وهذا! وفرك صوان أذني، وهذا! وداس بعنف على قدمي اليمنى. أفعل هذا كلّه لأنّني لا أهتمّ بشخصك الحقير، وإذا كنت تريد أن تفعل أيّ شيء في المقابل، فلتبدأ؟ ابدأ من فضلك؟ في هذه اللّحظة أدركت أنّه لا بدّ أن أسرع بالعمل وأخرج مطواتي (قرن الغزال) الفتّاكة قبلما تفارقني حماسة المعركة، لكن آه يا إخواني ما أن امتدّت يدي إلى جيبي تلتمس المطواة حتى تجلّت لخاطري صورة ذلك المخلوق المعتدي وهو يصرخ مسترحمًا والدّم الأحمر القاني يسيل من فمه، وسرعان ما اقترنت هذه الصّورة بمشاعر الغثيان والجفاف والآلام تطبق عليّ، وأدركت أنّه لا بدّ من تغيير الانطباع الذي أحسست به حيال ذلك المخلوق الكريه حتّى لا تتفاقم تلك المشاعر في نفسي، وهكذا تحسّست جيبي التماسًا لسجائر أو نقود، غير أنّي ألفيت يا إخواني جيوبي خلوا منها، فقلت له على الاثر متلعثمًا «بودّي يا أخي أن أعطيك سيجارة، لكن يظهر أنّه ليس معي شيء منها».

فردّ عليّ قائلاً «عضّ أصابعك حسرة يا طفل، وابكِ بالدّمع السّخين».

وخدّش أنفي بظفره المخلبي من جديد، حتّى سمعت ضحكات المرح تتردّد من صفوف الحضور. فقلت لا بأس محاولاً التّلطّف

والاسترضاء لكي أحول دون استفحال ما ألمّ بي من غثيان وآلام «أرجوك أن تدعني أفعل شيئًا من أجلك! أرجوك!»

وتحسّست جيبي مرّة أخرى، فلم أجد سوى مطواة قرن الغزال، فأخرجتها وقدّمتها إليه قائلاً «خذ هذه من فضلك، هديّة صغيرة، خذها من فضلك!»

غير أنّه قال «احتفظ برشوتك الحقيرة لنفسك، لا يمكنك أن تستغفلني بهذه الطريقة». ولطم يدي حتّى سقطت المطواة على الأرض.

وهكذا رحت أقول له «لا بدّ أن أفعل شيئًا من أجلك، هل أمسح حذاءك؟ لا بدّ أن أركع وألعقه». و يا إخواني صدّقوا أو لا تصدّقوا، فقد ركعت على ركبتيّ ومددت فمي لكي ألعق الحذاء القذر، لكن هذا المخلوق رفسني في فمي. وهكذا خطر لي أنّ الغثيان والألم لن يلمّا بي إذا أنا تشبّثت بساقيه وطوّحت بهذا المخلوق الحقير إلى الأرض، ففعلت وكانت مفاجأة له أن يهوى على الأرض بين الضّحك المتعالي من جمهور النّظارة. لكنّ رؤيتي له على الأرض أشعرتني بتصاعد تلك الاحاسيس الفظيعة واطباقها عليّ، وهكذا مددت له يدي لكي أنهضه، فنهض قائمًا. وفي اللّحظة التي هم فيها أن يصوّب إلى ضربة عنيفة على فمي، قال الدّكتور برودسكي «لا بأس. هذا سيثمر تمامًا، وإذ ذاك رأيت هذا المخلوق الفظيع ينحني ثم يبتعد خفيفًا في حركات تمثيليّة بينما أضيئت الانوار وأنا أطرف بعيني وفمي فاغر يوشك على

الصّراخ. وقال الدّكتور برودسكي للحضور «إنّ موضوعنا قد اضطرّ للانحياز إلى الخير نقيضًا لاندفاعه نحو الشّر، إنّ نيته لعمل عنيف قد صاحبتها مشاعر قويّة للاضطراب الجسدي ولمواجهة ذلك كان لابدّ (الموضوع) أن يتحوّل عكسيًّا إلى الحالة المضادّة. هل من أسئلة؟»

فتعالى صوت عميق عرفت فيه صوت القسّ يقول «وعامل الاختيار؟ إنّه ليس له رغبة حقيقيّة، أليس كذلك؟ إنّ المصلحة الذاتيّة والخوف من الألم البدني دفعاه إلى اذلال نفسه على تلك الصّورة الشّنيعة، وكان واضحًا عدم صدق انبعاثه. لقد توقّف عن فعل الشّر، وهو يتوقّف أيضًا عن أن يكون مخلوقًا قادرًا على الاختيار الاخلاقي الفاضل». فردّ الدّكتور برودسكي باسمًا «هذه تخريجات تقوم على الحذلقة، إنّنا غير معنيّين بالدّافع، بالاخلاقيّات السّامية. نحن معنيّون فقط بقطع دابر الجريمة ورنّ صوت وزير الدّاخليّة الأنيق اللّباس «ومعنيّون أيضًا بتخفيف التّكدّس المروّع في سجوننا». وقال صوت من الحضور «اسمعوا! اسمعوا!» وهنا ارتفعت أصوات النّقاش والمجادلة وأنا واقف مكاني يا إخواني وكأنّ هؤلاء الجهلاء التّافهين قد تجاهلوا شخصي، وهكذا صرخت فيهم قائلاً «وأنا؟ أنا؟.. أنا؟.. ماذا بشأني؟ أين مكاني في كلّ هذا؟ هل أنا مجرّد حيوان أو كلب؟» فكان كلامي هذا باعثًا على احتدام نقاشهم وقذفهم كلمات إلى شخصي. وكذلك صرخت فيهم بأعلى من أصواتهم قائلاً «هل يراد لي أن أكون فقط أشبه بـ«برتقالة بقلب

الساعة»؟ ولست أدري ما الذي جعلني أستخدم هذه الكلمات، تلك التي انبعثت في رأسي دون سؤال، ولكنّها عقدت ألسنة الجميع لسبب ما نحو دقيقتين ثم ما لبث أحدهم وكانت تبدو عليه سمات الاساتذة الفطاحـل أن نهض قائلاً وقد انتفخت أوداجه «لا حقّ لك أن تتذمّر يـا ولد، إنّـك أدّيت اختيـارك، وكلّ هذا هـو نتيجة اختيـارك، وكلّ مـا يمكن أن يترتّـب ويحدث بعد الآن هو ما اخترته أنت لنفسـك». وصاح واعظ السّـجناء بدوره «آه لو كنـت أعرف هذا!» وقد لمحت محافظ السّـجن يصوّب إليه نظرة كان معناهـا أنّه لن يرقى في مراتب الوعـظ في وظيفته كما كان يقدر، ومـا لبث النّقاش والجدل أن ارتفع مرّة أخرى، كما سـمعت كلمة «الحب» تدور على الالسـنة، وسمعت صوت واعظ السّجناء ذاته يصيح مثل غيره بعبارة أنّ «الحبّ السّامي يطرد الخوف»، وما إلى هذا.

وأخـيرًا قال الدّكتور برودسـكي والابتسـام يشـيع في كلّ وجهه «يـسرّني أيّها السّـادة أنّكـم عرضتم لموضـوع «الحب» فالآن سـوف نـرى عمليًّا لونًا من الحبّ كنّا نظنّه قد انطوى مع العصور المتوسـطة وعندئـذ انطفأت الانوار وعادت دوائـر الضّوء مرّة أخرى»، واحدة منها تشـمل محدّثكم وصديقكم المسـكين المعذّب، وسرى في الدّائرة الثّانية طيف أجمل وأحلى فتاة يمكن أن تقع نواظركم عليها يا إخواني مـدى الحياة، ورغبـة في الدّقّة أقول أنّها كانـت ذات نهدين ترنو إليها الأعـين، وكانـت ترتـدي ملابـس تنحدر وتنحـدر و تنحدر أسـفل

الكتفين وكانت ساقاها صورة لابداع الخلق وكانت تتهادى في مشيتها إلى حدّ يثير التّنهّدات، ومع ذلك كان محياها الفاتن ينضح بأحلى ابتسامة وأعذبها. وقد تقدّمت نحوي تحف بها هالة من السّناء النّوراني حتّى كان أول ما خطر ببالي هو أن أنقضّ عليها انقضاضًا، ولكن سرعان ما باغتني الغثيان وكأنّه ديدبان كان متربّصًا وما لبث أن وثب فجأة لاعتقالي، ثمّ أذكت رائحتها العطرة مشاعري وأثارت حواسي إلى حدٍّ تعيّن عليّ أن أجد أسلوبًا آخر للتّفكير فيها قبل أن تدهمني أعراض الألم والعطش والغثيان الفظيع وتطبق على اطباقًا لاشكّ فيه. وهكذا رحت أهتف بين يديها «آه يا أجمل وأبدع النّساء! إنّني لأطرح قلبي عند قدميك لكي تطئيه من كلّ جانب، لو كانت لديّ وردة لقدّمتها إليك، ولو كان المطر يهطل مدرارًا الآن على الأرض لقدّمت إليك ملابسي لكي تمشي عليها لئلّا تتلوّث قدماك الرقيقتان بالبلل والاقذار».

وكنت وأنا أقول هذا يا إخواني أشعر بالغثيان ينحسر عنّي، وقد مضيت أهتف قائلاً «إنّني لأعبدك وأكرّس نفسي لمساعدتك وحمايتك من هذه الدّنيا الشّريرة». وفكّرت لحظة في الكلمة المناسبة وقد دبّ التّحسّن إليّ، فرحت أقولها «دعيني أكن لكِ الفارس المخلص». وشفعت هذا بأنّ ركعت على ركبتيّ أمامها منحنيًا ومتحمّسًا، ثمّ ساورني الوجوم على الأثر لما بدا لي أنّه موقف تمثيليّ مرّة أخرى، إذ أنّ هذه الفاتنة انحنت أمام الحضور باسمة، وانسحبت في خفّة الطّائر

وقد أضيئت الانوار مقترنة بالتّصفيق. وقد بدا لي أن أعين طائفة من الحضور الاجلّاء تكاد تجحظ وهي ترمق تلك الغادة الحسناء بنظرات ملتائة ورغبة محرّمة يا إخواني.

وسمعت صوت الدّكتور برودسكي يدوّي قائلاً «إنّه سيكون المتديّن الصّالح، وعلى استعداد لكي يدير خدّه الآخر، وللاستشهاد بدل التّعذيب، متقزّزًا حتّى شغف قلبه للتّفكير في أن يقتل حتّى ذبابة».

وصدق الدّكتور برودسكي يا إخواني، ذلك لأنّه عندما قال هذا كنت أفكّر في قتل ذبابة، وعلى الأثر شعرت بالغثيان والألم، بيد أنّني دفعت عنّي الغثيان والألم عندما فكّرت في إطعام الذّبابة بفتات من السّكّر وعكفت على رعايتها مثل ما يرعى الإنسان حيوانًا أليفًا سال دمه وإلى آخر هذه الامثلة. وفي الختام هتف الدّكتور برودسكي بما هو مسك الختام «هذا هو سبيل الاصلاح، وأنتم على ذلك شهود، وإذا وزير الدّاخليّة الأنيق يعقّب قائلاً بجدّ كلّ الجد «المهم أنّه اسلوب ناجح، وناجع، لطف الله بنا».

القسم الثّالث

الفصل الأول

ترى ما الذي سيكون بعد؟

هذا هو السّؤال الذي سألته لنفسي يا إخواني في صباح اليوم التّالي وأنا واقف خارج ذلك المبنى الأبيض الملحق بالسّجن العموميّ، مرتديًا ملابسي التي كنت أرتديها ليلاً منذ سنتين. في بكرة النّهار الضّبابيّة، ومعي حقيبة صغيرة بها حاجاتي الشّخصيّة، إلى جانب نقود يسيرة تبرّعت بها السّلطات المجتمعة تكرُّمًا وتفضُّلاً لكي أستعين بها في استهلال حياتي الجديدة. ولقد كنت بقيّة اليوم السّابق متعبًا جدًّا، ناهيك عن المقابلات والاحاديث المسجّلة والمصوّرة للصّحافة والتّلفزيون وغير ذلك ممّا يثير الارتباك والحيرة في أمثال هذه المواقف. وبعدها ارتميت على فراشي منهكًا، فما استيقظت إلّا على أصوات تدعوني إلى الخروج والذّهاب إلى بيتي، مشفوعة بأنّهم لا يريدون رؤية محدّثكم الضّعيف إلى الأبد وهأنذا الآن يا إخواني في الصّباح الباكر ولا أملك سوى تلك النّقود النّثريّة اليسيرة في جيبي الأيسر أسمع رنينها في يدي وأفكّر فيما سيكون بعد يا ترى. فكّرت

في البحث عن فطور في مكان ما، إذ لم أتنول أيّ طعام في ذلك الصّباح لانشغال الجميع واهتمامهم بإطلاق سراحي وإخلاء سبيلي، وكل ما نلته هو قدح من الشّاي لا أكثر. كان موقع السّجن في طرف كئيب من المدينة، لكن كانت تنتشر فيه مقاهي العمّال، ولم يطل بي الوقت حتّى وجدت واحدًا منها يا إخواني، كان مقهى متواضعًا، لا يضيئه سوى مصباح وحيد في سقفه وقد جفت به نفايات الذّباب فكادت تحجب ضوءه الكليل، وكان به عمّال مبكرون يتناولون الشّاي وبعض السّجق الشّنيع المظهر وشرائح هزيلة من الخبز سرعان ما كانوا يلتهمونها طالبين المزيد. وكانت تقوم على خدمتهم فتاة خلت من معالم الحسن إلّا من نهدين بارزين، وكان بعض الآكلين يحاولون جذبها إليهم وهم يقهقهون وهي تضحك ضحكات ناعمة، غير أن مشهدهم كان يثير غثياني يا إخواني، لكنّني طلبت بعض الشّاي والمربّى والتّوست بكل أدب وبلغة المهذّبين، وجلست في ركن معتم آكل وأشرب وأثناء هذا دلف إلى المشرب قزم آدمي يبيع جرائد الصّباح، فاشتريت نسخة، وكانت فكرتي أن أستعدّ للاندماج من جديد في الحياة العاديّة بالاطّلاع على ما يجري في الدّنيا. والظّاهر أنّ هذه الجريدة كانت حكوميّة، إذ كانت الاخبار الوحيدة على الصّفحة الأماميّة عن الحاجة إلى أن يعمل كلّ فرد على عودة الحكومة إلى منصّة الحكم في الانتخابات العامّة القادمة، التي بدا أنّها ستكون بعد نحو اسبوعين أو ثلاثة. وكانت الصّفحة تتضمّن كلامًا فيه تفاخر بما

قامت به الحكومة يا إخواني في العام الماضي أو نحوه، ناهيك بزيادة الصّادرات ونجاح السّياسة الخارجيّة وتحسين الخدمات الاجتماعيّة وأشياء من هذا القبيل، لكن أشدّ ما كانت تفاخر به الحكومة فعلاً هو الكيفيّة التي أدّت في تقديرها إلى اقرار الأمن في الشّوارع لجميع المواطنين المسالمين الذين يسيرون في الشّوارع ليلاً على مدى الأشهر السّتّة الاخيرة، فضلاً عن تحسين رواتب رجال الشّرطة واتّخاذهم اجراءات مشدّدة ضدّ الشّباب المنحرف و اللّصوص والعابثين بالأمن، وهو ما أثار اهتمام محدّثكم المتواضع إلى حدٍّ ما. وقد تضمّنت الصّفحة الثّانية من الجريدة صورة شبه مطموسة لشخص بدا مألوفًا في نظري، ثمّ تبيّنت أنّ هذه الصّورة لم تكن إلّا صورتي أنا.. أنا.. أنا! كنت أبدو في الصّورة أقرب إلى الاكتئاب والوجل، ولكن هذا لم يكن إلّا بسبب اضواء كاميرات التّصوير التي لاحقتني طويلاً. وقد نشر تحت الصّورة أنّ صاحبها هو أوّل خرّيج للمؤسّسة الحكوميّة الجديدة لاصلاح الجناة، وقد أمكن شفاءه من غرائزه الاجراميّة خلال أسبوعين فقط، وأنّه الآن مواطن صالح مطيع للقانون، وهلمّ جرّا! ثمّ اطّلعت على مقال حافل بالتّفاخر عن تلك الطّريقة المعروفة باسم «طريقة لودفيكو»، وكيف كانت الحكومة آية في البراعة إلى غير ذلك من الكلام المنمّق! وكانت هناك صورة أخرى لشخص رأيت أنّني أعرفه، وكان وزير الدّاخلية ذاته. وبدا في السّطور المكتوبة أنّه يتباهى بما حقّقه، متطلّعا إلى عهد مشرق خالٍ من الجريمة، ينعدم فيه

الخوف من المهاجمات المتّسمة بالجبن التي كان يقوم بها المنحرفون الشّبّان واللّصوص ومعتادو الاجرام ومن إليهم. لم أتمالك أعصابي فألقيت الجريدة على الأرض حتّى غطّت بقع الشّاي المسكوب والبصاق الشّنيع من جانب «الحيوانات» التي كانت ترتاد هذا المشرب. ترى إذًا ما الذي سيحدث بعد الآن؟!

إنّ الذي سيحدث يا إخواني الآن هو العودة إلى داري بمفاجأة لطيفة لأبي وأمي، أنا وحيدهما ووليّ عهدهما وربيب أحضانهما الحنونة. وبعدها أستطيع أن أستلقي في فراشي بغرفتي أو ما أسميه «وكري» الخاص وأستمع إلى شيء من الموسيقى الحبيبة، وفي نفس الوقت يتهيّأ لي أن أفكّر فيما أنّ سأفعله الآن بحياتي. وكان «ضابط الافراج» قد أعطاني في اليوم السّابق قائمة طويلة بالاعمال التي يمكن أن أتقدّم إليها، كما قام بالاتّصال هاتفيًّا بعدد من الاشخاص من أجلي، لكن لم يكن في نيّتي يا إخواني أن أذهب للعمل الآن مباشرة، شيء من الرّاحة أوّلاً.. نعم! ثمّ تفكير هادئ في الفرا ش على صوت الموسيقى المحبوبة. وهكذا ركبت الاتوبيس إلى منطقة «سنتر»، ثمّ الاتوبيس إلى «كنجزلي افينو»، وكانت العمارة السّكنيّة رقم 18 قريبة وسوف تصدّقونني يا إخواني عندما أقول أنّ قلبي كان يدقّ ويدقّ بتأثير الانفعال. وكان كلّ شيء في تمام الهدوء، إذ كان الوقت لايزال في الصّباح الباكر هذا الشّتاء، وعندما دخلت إلى ردهة العمارة لم أجد أحدًا حولي، فيما عدا صور الرّجال والنّساء العارية

المحفـورة على جوانب المدخل رمزًا لكرامة العمّال والعاملين. وإنّ ما أدهشـني يا إخواني هو ما طرأ على هذا الرّمز من تنظيف، فقد خلت الصّور من العبارات البذيئة الفاحشة التي أضيفت على ألسنة العمّال، ومحيت تلك الاجزاء القذرة التي رسمها على الأجسام العارية بالقلم الرصاص أفراد ملوّثو العقول فاسدو الطّوايا! وكان ما أدهشني أيضًا هو اصلاح المصعد، فقد هبط إثر ضغطي على الزّر الكهربائيّ، وكان من بواعث دهشـتي كذلك أنّ جـدران المصعد ذاته أصبحت نظيفة. وهكـذا صعـد بي المصعد إلى الدّار العاشر، ورأيت باب مسـكني كما كان مـن قبل، وكانت يدي تهتز وترتعـش عندما أخرجت من جيبي المفتـاح الصّغـير الذي اعتـدتّ أن أفتح بـه، غير أنّي حرّكـت المفتاح بثبـات في القفل وفتحت الباب ثـم دخلت، فقابلت ثلاثة أزواج من الأعـين تنظـر إليّ بدهشـة وفيما هو أقـرب إلى الجـزع، وكانت لأبي و أمي وهما يتناولان طعام الفطور. لكن كان ثمّة شـخص ثالث لم أره من قبل في حياتي، وكان مخلوقًا بدينًا بالقميص والحمّالات، وقد تربّع كأنّه في بيته يا إخواني يحتسي الشّاي باللّبن ويقضم التّوست والبيض، وكان هـذا الدّخيـل الغريب هو الـذي تكلم أوّلا، إذ قـال «من أنت يـا صاحبي؟ ومن أين لك بالمفتاح؟ اخـرج، قبل أن أحطّم وجهك! أخرج أوّلا ثـمّ دق الباب! اشرح طلبك، بسرعة!»

جلس أبي و أمي وكأنّهما سـمّرا في مكانهـما، وقدّرت أنّهما لم يطّلعا عـلى الجريـدة بعـد، ثـمّ تذكّـرت أنّ الجريـدة لا تصل إليهـما إلا بعد

ذهابهما إلى العمل. ولكنّ أمّي لم تلبث أن قالت «أوّاه! أنت هربت؟ أنت هربت؟ ماذا سنعمل الآن؟! سيأتي البوليس إلى هنا، أوّاه،،أوّاه، أوّاه، أيّها الولد الفاسد الشّرير، الذي فضحت عائلتك على هذه الصّورة؟!» وانخرطت في البكاء وهكذا رحت أحاول الشّرح والبيان، وقلت أنّه يمكنهما الاتّصال هاتفيًّا بالسّجن إذا أرادا وأثناء ذلك كلّه كان ذلك الغريب جالسًا في مكانه عابسًا وكأنّه يفكّر في تهشيم فمي بقبضته المشعرة الحيوانيّة.

وهكذا رحت أقول له «ما رأيك أنت يا أخ في أن تجيب على بعض الاسئلة؟ ماذا تفعل هنا، وإلى متى؟ أنا لا أهضم الكلام الذي تفوّهت به الآن! حاسب! هيّا، ردا! كانت له هيئة العمّال، وكان قبيح الصّورة في الثّلاثين أو الاربعين من عمره، وقد جلس مكانه ينظر إليّ فاغر الفم لا يكاد يفقه كلمة واحدة ممّا قلت. وقال أبي «هذا كلّه شيء محيّر يا بني، كان يجب أن تدعنا نعرف أنّك ستحضر، وكنّا نظنّ أنّك ستمضي على الأقل خمس أو ست سنوات أخرى قبل أن يدعوك تخرج». وأضاف بلهجة شبه مكتئبة قائلاً «وليس معنى هذا أنّنا غير فرحين جدًّا برؤيتك من جديد ووجودك حرًّا أيضًا. فقلت «من يكون هذا؟» فردّت أمّي قائلة «هذا جو. وهو يقيم معنا الآن بصفة ساكن. يا عيني!.. يا عيني!.. يا عيني!» وقال المدعو «جو»: «يا هذا! إنّني سمعت كلّ شيء عنك يا ولد، وأعرف كل ما فعلته، وحطّمت بسببه قلب أبويك المسكينين المحزونين، إذًا فقد

عدت؟! عدت لتجعل الحياة تعاسة وشقاء لهما من جديد، أهذا ما سيكون؟ لن يكون هذا إلّا على جثتي، لأنّهما سمحا لي أن أكون مثل ابن لهما، أكثر من مجرّد ساكن!» كدت أضحك عاليًا من هذا الكلام لولا أن شعرت بالغضب في داخلي يثير فيّ الاستعداد للقيء، فإنّ هذا المخلوق كان في مثل سنّ أبي و أمي، وها هو ذا الآن يحاول أن يضع يدًا حانية كابن حول أمّي الباكية، يا إخواني. قلت وأنا اشعر بأنّني أكاد أنهار باكيًا «هذا هو الحال إذًا، لا بأس! إنّني أمهلك خمس دقائق كبيرة لاخراج حاجاتك الحقيرة من غرفتي، وأسرعت إلى هذه الغرفة قبل أن يتحرّك هذا المخلوق لكي يستوقفني لبطء حركته. وما إن فتحت الباب حتّى كاد قلبي ينخلع إذ رأيت أنّها لم تعد غرفتي بحال يا إخواني، كانت الرّايات الخاصّة بي قد رفعت كلها عن الحائط، ووضع هذا المخلوق مكانها صور ملاكمين، وأيضًا صورة فريق جلس كالأصنام مشبك الايدي، وأمامه شبه درع فضيّة، ثمّ أبصرت بعد ذلك ما طرأ من نقص. فإنّ (الاستيريو) ودولاب اسطواناتي لم يعد لهما وجود، ولا صندوق كنزي المغلق المحتوى على الزّجاجات والعقاقير وحقنتين نظيفتين جديدتين. وهكذا صرخت «هناك عمل قذر حقير تمّ هنا! ماذا فعلت بحاجاتي الشّخصيّة يا ابن الحرام الشّنيع؟» كان الخطاب موجّهًا إلى ذلك المدعو جو، غير أنّ أبي هو الذي تولّى الرّدّ قائلاً «كلّ هذه الاشياء قد أخذها البوليس يا بني تبعًا للوائح جديدة خاصة بالتّعويض للضّحايا. كان من أشقّ الامور

ألا يصيبنـي الغثيان، ولكن رأسي مسّـه صداع عنيف واشـتدّ جفاف حلقي حتّى اضطررت إلى أخذ رشـفة من زجاجـة اللبن التي كانت على المائدة، إلى حد أنّ المدعو «جو» قال «أخلاق خنزير قذرة!»

أمّـا أنـا فقلت تعقيبًـا عـلى كلام أبي «لكنّها توفّيت تلـك العجوز صاحبة القطط، توفّيت».

فقال أبي وهو أقرب إلى الأسى «المسألة كانت متعلّقة بالقطط، التي تُركت دون أن يُعنى بها أحد إلى أن فتحت وصيّة العجوز، وهكذا تعيّن عليهـم أن يخصّصوا شـخصًا لأطفالها. وهكذا بـاع البوليس حاجاتك من ملابس وغيرها للمسـاعدة في تدبير النّفقات من أجل القطط، هذا هو القانون يا بني لكنّك لم تكن أبدًا ممّن يتّبعون القانون!»

اضطررت أن أجلس، بينما قال ذلك المدعو «جو» «اسـتأذن قبل الجلـوس، أيّها الخنزيـر الصّغير المجرّد من الاخـلاق!» فرددت عليه بسرعة وعنف «سدّ فتحة فمك الواسعة القذرة يا هذا!»

ومـن ثمّ حاولـت أن أكون معقولاً ومبتسـمًا، مـن أجل صحّتي، وهكـذا قلت «لا بأس! هـذه غرفتي، ولا نكران لذلـك، وهذا بيتي أيضًـا. مـا هي الاقتراحـات التي عندكم يـا أبي و أمّـي؟» وقد تحوّل وجهها إلى تجاعيد بلّلتها الدّموع، وما لبث أبي أن قال «كلّ هذا يحتاج إلى تفكـير يـا بني، لا يمكننـا أن نطرد جو هكذا، أهـذا ممكن فعلا؟» إنّ جـو مرتبـط بعقد عمـل لمدّة سـنتين، وقـد رتّبنا الامـور بناء على

ذلـك. أعنـي يا بني أنّنا فكّرنا أنّك سـتمضي في السّـجن مدّة طويلة، وغرفتك خالية (تشـحذ) من يشـغلها!» بدا أبي خجلاً كما دلّت على ذلك قسمات وجهه، وهكذا لم أجد إلّا أن ابتسم مومئًا برأسي، وقلت «رأيـت كلّ شيء، إنّكم اعتدتم راحة البال، واسـتطبتم بعض النّقود الاضافيّة، هذا هو الموقف! ولم يكن ابنكم إلّا مصدر متاعب شديدة لكـم». وصدّقوني يـا إخـواني إذا قلت أنّنـي شـعرت إذ ذاك بالرّثاء لنفسي والرّغبة بالبكاء.

وعندئذ قال أبي «ربّما ترى يا بني أنّ جو دفع ايجار الشّـهر القادم، ومهـما يمكـن أن نفعـل مسـتقبلاً فـلا يمكننـا أن نطلب مـن جو أن يذهب. هل هذا ممكن يا جو؟» فأجاب جو «إنّ واجبي يجعلني أفكّر فيكـما أنتـما الاثنـان، يا من كنتما مثـل أب و أم لي. فهل مـن الصّواب والعدل أن أنسـحب وأترككما تحت رحمة هذا الوحش الصّغير الذي لم يكـن ابنًا بارًّا بأيّ حال، إنّه يبكي الآن. لكن هذا مكر وتصنّع منه، دعـوه يذهـب ويبحث له عـن غرفة في أيّ مكان، دعـوه يتعلّم جزاء أخطائه وتصرفاته ويعرف أنّ ولدًا فاسدًا مثله لا يستحق أن يكون له أب و أم مثلما كنتما له».

وهنا نهضت قائمًا والدّموع لاتزال في عيني، وقلت: «لا بأس! قد عرفـت حقيقة الموقـف الآن، لا أحد يريدني أو يحبّني! إنّني قاسـيت وقاسيت وقاسـيت، وكلّ واحد يريد أن أستمرّ في المعاناة والعذاب، عرفت هذا فعلاً».

فقال ذلك المدعو «جو» «إنّك جعلت الآخرين يعانون، فمن العدل أن تعاني بالمثل. إنّهم أخبروني بكلّ ما فعلته في جلوسي هنا الليالي حول مائدة الأسرة». وكان شيئًا مروّعًا أن أسمع ما سمعت، إنّه جعلني أتقزّز في الواقع يا ليتني عدت إلى السّجن، إنّه أرحم بي منكم! أنا ذاهب الآن، ولن تروني أبدًا بعد هذا، سأشقّ طريقي بنفسي. شكرًا لكم ثمّ شكرًا! لتقع التّبعة على ضمائركم!

فقال أبي «لا تنظر إلى الامور هكذا يا بني».

ذلك وقد أجهشت أمّي بالبكاء والتوت ملامح وجهها، بينما عاد ذلك المدعو جو يضع يده حولها مربّتًا عليها مواسيًا لها. وهكذا اتّجهت إلى الباب مترنّحًا وخرجت، تاركًا إيّاهم يا إخواني يتحمّلون عواقب جرحهم الفظيع.

الفصل الثاني

خرجت إلى الشّارع أسير بلا هدف وعلى غير هدى يا إخواني، وأنا بتلك الملابس اللّيليّة التي راح النّاس يحدّقون فيها وأنا أمرّ بهم في ذلك اليوم الشّتوي البارد القارس، وكلّ ما كان يساورني هو أن أباعد بيني وبين كلّ هذا وألّا أفكر في أيّ شيء على الاطلاق. وهكذا ركبت الاتوبيس إلى منطقة سنتر، ومنها عدت سيرًا الى «تيلور بليس» حيث يوجد محل بيع الاسطوانات «ميلوديا» الذي اعتدت أن أتحفه بطلباتي المتواضعة. وقد بدا لي يا إخواني كالعهد به في الماضي، ولمّا دخلت إليه توقّعت أن أرى صاحبه «آندي» الأصلع النّحيل الذي كان يسرع إلى تلبية رغباتي لكن لم يكن هناك آندي يا إخواني، وإنّما سمعت صياحًا وضوضاء من «النّادسات» المراهقين فتيانًا وفتيات يستمعون إلى أغنيات «البوب» الشّنيعة الشّائعة ويرقصون على نغماتها أيضًا، وكان الجالس خلف «الكاونتر» هو أحد فتيان «النادسات» ذاته، ينقر بأصابعه باسمًا متهللاً. وهكذا تقدّمت إليه وانتظرت إلى أن يتنازل لملاحظة وجودي، وعندئذ قلت له «أودّ أن

أستمع إلى اسطوانة «موتسارت» رقم 40، ولا أدري لماذا خطرت هذه الاسطوانة في ذهني؟ ولكن هذا ما كان». فقال لي «40 ايه يا صاحبي».

فاجبت قائلاً «السّيمفونيّة 40».

فتدخّل واحد من فتيان «النادسات» الرّاقصين وكان فتى مسدل الشّعر على العينين، قائلاً «أوه! سيمفونا؟ ألا يبدو هذا مضحكًا؟ إنّه يريد سيمفونا!» شعرت بالغضب يثور في دخيلتي، لكن كان لا بّد أن أحذر هذا، وهكذا ابتسمت للشّاب الذي حلّ محل آندي وللفتيان والفتيات الرّاقصين والرّاقصات.

فقال لي صاحب المحل: «أدخل إلى الاستماع هناك، وسأوصلك بما تريد سماعه، وهكذا يممت شطر الكشك الذي يمكنك أن تستمع فيه إلى الاسطوانات التي تريد شراءها، ووضع الشّاب اسطوانة لي، غير أنّها لم تكن اسطوانة «موتسارت 40»، وإنّما اسطوانة «موتسارت براج»، والظّاهر أنّه وضع أيّ اسطوانة لـ«موتسارت» وجدها على الرّف، ممّا كان لا بدّ أن يثير غضبي، وتعين على أن أحذر هذا خوفا من شعوري بالغثيان والألم، ولكنّني نسيت شيئًا ما كان يجب أن أنساه، وهو أن هؤلاء الاطبّاء الماكرين قد رتّبوا الأمر بحيث تؤدي أيّ موسيقى عاطفيّة إلى أن تبعث عندي الغثيان كلّما شاهدت أو أردت ارتكاب أيّ عنف، والسّبب هو أنّ افلام العنف التي شاهدتها كانت تقترن بالموسيقى، وقد تذكّرت بصفة خاصّة

ذلك الفيلم الفظيع عن النازيّة وما اقترن به من موسـيقى «بتهوفن». والآن ها هي موسيقى «موتسارت» تبدو فظيعة في سمعي فاندفعت خارجًا من الكشـك للتّخلّص من أعراض الغثيان والألم التي كانت توشـك أن تلـمَّ بي، واندفعت إلى خارج المحل ذاتـه وأولئك الفتيان «النادسـات» يضحكـون في أثـري وصاحب المحل يقـول لي «ماذا؟ مـاذا؟ مـاذا؟ » غير أنّني لم أعبـأ بأحد وابتعـدت مترنّحًا كأعمى عبر الشّارع واستدرت عند الناصية لكي أقصد إلى مشرب «لبن كوروفا» فقـد عرفت ما أريـد. كان المشرب شـبه خـال إذ كان الوقت لايزال صبحًـا، وقـد بـدا غريبًا في نظري، بعـد أن طلوه برسـوم أبقار حمراء تخـور، ومن خلـف «الكاونتر» قام شـخص لا أعرفـه، ولكن عندما طلبـت لبنًا مقـوّى كبيرًا عرف ذلك الشّـخص النّحيل الحليق الوجه مطلبـي، فأخذت كأس اللّبـن المقوّى الكبير إلى إحـدى المقصورات الصّغـيرة الممتدّة بدوران المحل والمحجوبة بالسّـتائر حيث جلسـت على أحد المقاعد المحشـوة ورحـت أحتسي وأحتسي. وبعد أن أنهيت الشّراب كله بدأت أشعر بأنّ كلّ شيء يتغيّر. ألفيتني قد سمرت عيني في قطعة ورق مفضض متخلّفة من علبة سـجائر ملقاة على الأرض، إذ كانـوا لا يعنـون بالنّظافـة في هـذا المحـل، وقد أخـذت القصاصة المفضّضة تكبر في نظري وتكبر، يا إخواني، حتّى تحوّلت إلى كتلة ناريّة متوهّجة جعلتني أطرف بعيني. واسـتمرّت تكبر وتكبر حتّى ملأت ليـس فقـط المقصورة التي جلسـت فيها بل مشرب كوروفـا كلّه، ثم

امتدّت فشملت الشّارع، ثمّ المدينة بأسرها، ثمّ الدّنيا جمعاء. ورأيتني أتفـوّه بكلام غير مفهـوم لا أدري كنهه، ثم تحوّل اللّون المفضّض إلى ألـوان شتّى لا حصر لهـا ولم تكتحل بها عين بشر من قبـل، ثمّ بدا لي أنّني أبصر مجموعة من التّماثيل تتراءى عن بعد سحيق ولكنّها تقترب من مكاني وآنيّة دائبة ولها ضوء باهر يشيع فيها من أعلى وأسفل وعن يمين وشـمال يا إخـواني. كانت تبدو كأطياف سماويّة نورانيّة ولكن لهـا لحـى وأجنحة تخفق مـن حولها فيما هـو فضاء علـويّ، ولها أعين تتحـرّك وتدبّ فيهـا الحياة، وقـدح زاد اقتراب الاطيـاف منّي حتّى شـعرت كأنّهـا تطبـق عليّ وتـكاد تصهرني، ثـمّ أحسسـت أنّني أنزع عنّـي كلّ شيء الملابس، والجسـد، والعقل، والاسـم. كلّ أولئك قد تجـرّدت منه وانسـلخت عنـه، حتّى لقد أحسسـت كأنّني في السّـماء وبعدها خلت بكلّ شيء كأنّه يتصدّع ويتهاوى. وفي النّهاية تلاشـت الاضـواء والاطياف وتحوّلـت إلى برودة، وإذا أنا كـما كنت من قبل، أمامـي كأس فارغة عـلى المائدة، وبي رغبة جامحة للبكاء، واحسـاس بـأنّ الموت هو الجـواب الوحيد لكلّ شيء، وهذا هـو المطلوب. هذا مـا رأيتـه بجلاء إنّه الشّيء الـذي يتعيّن أن أفعله، لكـن على أيّ وجه أفعلـه؟ ذلك مـا لم أعرفه تمامًـا، إذ لم أفكّر فيه من قبـل يا إخواني. في حقيبتـي الصّغيرة التي بها حاجاتي كانت مطـواتي قرن الغزال ثاوية، غير أنّني شـعرت في الحال بغثيان شديد عندما فكّرت في طعن نفسي بهـا فيتدفّق دمـي القاني غزيـرًا. إنّ ماكنت أريده لم يكن شـيئًا عنيفًا،

ولكنّ شيئًا يجعلني أنتهي بنوم رقيق ليكون في هذا خاتمة حياة محدّثكم المتواضع، فلا تحدث بعد ذلك متاعب لأيّ إنسان. وقد خطر لي أنّني إذا عرجت على المكتبة العموميّة القريبة فقد أجد فيها كتابًا يرشدني إلى أفضل طريقة لاختتام حياتي بغير ألم، وتصوّرت نفسي ميّتًا وكيف يحزن كلّ أحد لنهايتي: أبي و أمّي وذلك المدعو جو الحقير المغتصب، وكذلك الدّكتور برودسكي والدّكتور برانوم ووزير الدّاخلية ذاك، ومن إليهم من النّاس، ومن بعدهم الحكومة المتفاخرة بما حقّقت من أعمال. وهكذا خرجت إلى الشّارع في برد الشّتاء القارس، وكان الوقت الآن يناهز الثّانية بعد الظّهر كما رأيت بنظرة إلى ساعة الميدان، ومعنى هذا أنّني كنت في عالم «اللبن المقوّى» وقتًا أطول كثيرًا ممّا كنت أظنّ. فقد رحت أقطع «مارجانيتا بوليفار» سيرًا على القدمين ثم دلفت منه إلى «بولبي آفينو» وانعطفت أخيرًا حول النّاصية، وإذا أنا أمام المكتبة العامّة. كان المبنى متينًا ذا رواء ولم أتذكّر أنّني زرته منذ أن كنت صغيرًا في سنّ السّادسة، كان منقسمًا إلى قسمين: قسم لاستعادة الكتب وقسم للمطالعة، وهذا القسم مليء بالجرائد والمجلّات وقرّاء كثيرين من أناس مسنّين تنضح أجسادهم بالشّيخوخة والفاقة وكانوا واقفين أمام حاملي الصّحف الممتدّة حول القاعة يعطسون ويَتَجَشِئون ويهمهمون لأنفسهم ويقلّبون الصّفحات لقراءة الأخبار في كآبة، ومنهم من جلسوا إلى المناضد يتصفّحون المجلات أو يتظاهرون بالاطّلاع عليها، وبعضهم نائم

ومنهم من يغطّ في النّوم. وأوّل الأمر لم أستطع أن أتذكّر ما جئت أطلبه، ثمّ تذكّرت مصدومًا أنّني جئت إلى هنا لكي أهتدي إلى وسيلة أختتم بها حياتي دون ألم. وهكذا اتّجهت إلى رفّ المراجع، فوجدته مليئًا بالكتب، ولكن ليس بينها يا إخواني ما فيه عنوان يرشدني إلى ضالّتي المنشودة. تناولت كتابًا في الطّب وأخذت أتصفّحه، غير أنّه كان حافلاً بالرّسوم والصّور الفوتوغرافيّة لجروح وأمراض قبيحة مما تقزّزت به نفسي ثمّ جلست في مقعد أستريح وأنا منقبض النّفس أكاد أبكي، وإذا رجل مسنّ على المقعد المواجه يقول لي «ما بك يا بني؟ ما مشكلتك؟»

فقلت «أريد أن أنتهي، لقد شبعت من الحياة حتّى أصبحت لا تحتمل!»

فقال قارىء يجلس إلى جانبي كان يقرأ مجلّة مليئة برسوم هندسيّة دون أن يرفع رأسه «صمتًا». إنّ المجلّة والقارئ دقّا جرسًا في ذهني لم أنتبه له أوّل الأمر، بينما قال محدّثي تعقيبًا على كلامي «أنت صغيرٌ جدًّا لمثل ما تقول يا بني، يا للعجب، الحياة أمامك ممتدّة عريضة بها كل شيء!»

فقلت بمرارة «نعم، مثل جسم أملس الظّاهر مُتقيّح الباطن!» فقال قارىء المجلّة مرّة أخرى وهو يرفع رأسه هذه المرّة «صمتًا». وتلاقت نظراتنا، فعرفته على الفور. أمّا هو فقد قال بلهجة مستطيرة «أنا لا أنسى أبدًا شكل أيّ إنسان، والله أيّها الخنزير الصّغير لقد

وقعت في يدي الآن «علم البلوريات». نعم، كانت الكتب المصنّفة في هذا العلم هي التي حملها ذلك الرّجل المسنّ في تلك اللّيلة بعد استعارتها من المكتبة، فحطّمت اسنانه ومزّقت ملابسه وكتبه عن «علم البلوريات».

رأيت أنّه لا بدّ لي من الانسحاب من هنا بأسرع ما يمكن يا إخواني، غير أنّ هذا العجوز نهض قائمًا وراح يصرخ في أرجاء القاعة مستنجدًا بروّادها جميعًا من قارئي الصّحف والمجلّات والمصطفّين حول المنضدة والنّائمين أيضًا قائلاً «وقع في أيدينا، الخنزير الصّغير السّام الذي أتلف كتب «علم البلوريات»، تلك الكتب النّادرة التي لن يجود الزّمان بمثلها، هو الآن هنا بيننا وتحت رحمتنا. هو وعصابة ضربوني وداسوني بالاقدام وجرّدوني من ملابسي وانتزعوا اسناني، إنّهم هزأوا من دمي المسفوح وتأوّهاتي الحزينة وجعلوني أهرب إلى بيتي مشوّهًا عاريًا.

لم يكن هذا كلّه صحيحًا يا إخواني كما تعرفون ما سلف إذ كانت تستره بعض ملابسه، ولم يكن عاريًا تمامًا، لم أتمالك نفسي فأخذت أصرخ مثله قائلاً «كان هذا منذ سنين، وبعدها نلت عقابي، تعلّمت درسًا. انظروا في الجرائد، صورتي فيها!» وقال واحد منهم عليه طوالع جندي سابق «عقاب؟!» أمثالكم يجب استئصالهم مثل كثير من الحشرات الضّارة. (عقاب قال)!»

فقلت «لا بأس! لا بأس! كلّ واحد حر في رأيه، سامحوني كلّكم!»

لا بـدّ أن أذهـب الآن، وتحفّزت للخروج من عشّ المسّـنين هذا وقد سطع في ذهني اسم فجأة، الاسبرين! نعم هذا هو المطلوب! بإمكاني أن أنهي حياتي بمائة قرص أسـبرين - أسبرين من مخزن الادوية - بيد أنّ صاحـب علـم البلوريات عاد يصرخ «لا تتركوه يذهب! سـنعلّمه مـا العقـاب، هذا الخنزيـر الصّغير القاتـل، أمسـكوه!» وصدّقوني يا إخواني إنّ اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الطّاعنين في السّن، حوالي تسعين سـنة من عمرهم، أمسـكوني بأيديهم المرتعشـة، حتّى قزّزتني روائح المرض والشّـيخوخة التي كانت تفوح منهم، وكان أسبقهم صاحب علـم البلوريـات الذي راح ينهال باللّطمات عـلى وجهي وأنا أحاول الابتعاد والخروج عبثًا، لكنّ هذه الايدي العتيقة التي كانت ممسكة بي كانت أقوى ممّا كنت أظنّ، ومن بعدهـم أقبل قرّاء الجرائد يتطاوحون لكـي يأخذوا نصيبهم من تأديب محدّثكم المتواضع يا إخواني. راحوا جميعًـا يصرخون بهذه النّـداءات «اقتلوه! دوسـوه بالاقـدام! انزعوا اسنانه!»

لقد فهمت السّـبب، كانت هي الشّـيخوخة تحـاول أن تنتقم من الشّـباب. هكـذا أطبقوا عليّ مـن كلّ جانب يا إخـواني وفي طليعتهم صاحـب علـم البلوريات يكيل لي اللّطـمات تباعًا دون أن أجسر على أنّ أكيـل لهـم بنفس الكيـل، وإلّا تعرّضـت للشّـعور بالغثيان والألم القبيـح لكنّنـي على الرّغـم من ذلك كنت أشـعر والعنـف يدور من حـولي ويحف بي أنّ الغثيان آتٍ لا محالـة. وعندئذ أقبل أحد المشرفين

وكان شابًا فصاح قائلاً «ماذا يجري هنا؟ كفّوا عن هذا في الحال، هذه قاعة للمطالعة!»

لكنّ أحدًا منهم لم يعبأ به، فقال على الأثر «لا بأس! سأتّصل بالشّرطة هاتفيًّا، صرخت بدوري وكنت أظنّ أنّني لن افعل مثل هذا في حياتي «نعم.. نعم.. نعم افعل هذا! احمني من هؤلاء العجائز المجانين!» ولاحظت أنّ ذلك المشرف لم يكن متحمّسًا للمشاركة في المعمعة وانقاذي من غضب وجنون أولئك المسنّين ومن مخالبهم، كلّ ما فعله هو أنّه انسحب إلى مكتبه أو إلى مكان الهاتف. والآن كان هؤلاء العجائز يلهثون كثيرًا، وشعرت أنّ بوسعي أن أتملّص منهم فيتساقطون على الأرض، غير أنّني تركت نفسي مقيّدًا بينهم، صابرًا إلى أقصى حد، مغمض العينين، شاعرًا بضرباتهم الواهنة على وجهي، مستمعًا إلى صرخاتهم اللّاهثة وأنفاسهم المتقطّعة وهم يقولون «يا للخنزير الصّغير.. يا للقاتل الوغد! يا للمجرم قاطع الطّريق! اقتلوه قتلاً!»

وعندئذ تلقّيت لطمةً سليمة على أنفي حتّى لم أتمالك نفسي فقلت لنفسي «ليذهبوا إلى جهنّم!» وفتحت عينيّ وأخذت أصارع لاسترداد حرّيّتي ممّا لم يكن بالأمر العسير يا إخواني، وتملّصت مبتعدًا عنهم إلى الرّدهة خارج قاعة المطالعة. لكنّ هؤلاء المنتقمين العتاة جدوا في أثري وهم يلهثون ويشهقون كمن هو على وشك الموت، مشرّعين مخالب أيديهم المرتعشة للاطباق من جديد على صديقكم ومحدّثكم

المتواضع، ثمّ لم ألبث أن تعثّرت بسـببهم وسقطت على الأرض لكي يرفسوني بالاقدام، وبعدها سمعت أصواتًا شابّة تصيح بهذه الكلمات «لا بأس! لا بأس! توقّفوا الان!»

فعرفت أنّ رجال الشّرطة قد حضروا.

الفصل الثّالث

كنت في غاية الدّهشــة يا إخواني، ولم أســتطع أن أبصر جيّدًا، غير أنّنــي كنت متأكّدًا أنّني قــد التقيت برجال الشّرطة هؤلاء في مكان ما قبــل الآن. إنّ الشّرطي الذي أمســك بي عند باب الخروج من المكتبة وهــو يقول: «كفى.. كفى.. كفى». لم يكــن معروفًا لي تمامًا، لكن بدا لي أنّه صغير السّن ليكون من الشّرطة، لكن الاثنين الآخرين تأكّدت من ظهريهما أنّني قد رأيتهما من قبل. كانا يلوّحان بكرباجين صغيرين تهديـدًا وتخويفًا لأولئك العجائز في شــبه مرح وشــماتة، قائلين «كفى أيّهــا الأولاد الاشــقياء. لا بدّ أن يعلّمكم هذا أن تكفّوا عن الشّــغب ومخالفة القانون، يا أشرار ومعتدون!»

وهكذا ردّوا أولئك المنتقمين اللّاهثين الشّــاهقين الموشــكين على المــوت إلى قاعــة المطالعة، ثــمّ انثنوا وهــم يبتســمون سرورًا وتفكّهًا للنّظــر إليّ. وقــال أكبرهم «جميل! جميــل! لم نرك منذ مــدّة طويلة أيّها الزّميــل، كيــف الحــال؟» كنت كالمدهــوش، فإنّ الكســوة الرســميّة وخــوذة الــرّأس من الصّعــب أن أبصر من هو هــذا، وإن كان الوجه

والصّـوت معهوديـن لي تمامًا، ثمّ نظرت إلى زميله الـذي كان متهلّل الوجـه، فلم يبق في نفسي أيّ شـك. قلّبت النّظر مرّة أخرى إلى أوّلهما الـذي قال(جميل وبديع) فإذا هو بيليبـوي غريمي القديم، أمّا الآخر فـكان بالطّبع ديم، ذلـك الذي كان رفيقي السّـالف والعدو أيضًا لـ «بيليبوي»، ولكنّه الآن شرطي بكسـوة وخوذة وكرباج صغير لحفظ الأمـن والنّظام. قلت «آه! كلا!» فهتـف ديم وهو يقهقه قهقهته التي أتذكّرها تمامًا «هل دُهشت؟ ها.. ها.. ها!»

فقلت «هذا مستحيل! لا يمكن أن يكون هذا، أنا لا أصدّقه».

فقـال بيليبوي مبتسـمًا كمـن يكشّرعـن أنيابـه: «كلّ شيء واضح للعيـان، لا خـداع ولا غش ولا سـحر أيّها الزّميل. هـو عمل لاثنين بلغا سنّ العمل في الشّرطة».

فقلت «أنتما صغيران جدًّا، أصغر كثيرًا. إنّ الشّرطة لا تقبل فتيانًا من سنّكم!»

فـراح ديـم الشّرطي يقول «كنّا صغارًا». لم أسـتطع يـا إخواني أن أهضم هذا أو أصدّقه، بينما مضى يقول «كنّا صغارًا يا زميلي الصّغير، وكنت أنت أصغرنا جميعًا، وها نحن أولاء هكذا الآن».

فقلـت «ما زلت لا أصدّق». وما لبـث بيليبوي - الشّرطي الذي لم أسـتطع أن أتقبّلـه - أن قـال للشّرطـي الثّالث الممسـك بي والذي لم أكـن أعرفـه «أظنّ أنّنا نحسـن صنعًا باركـس إذا خرجنا قليلاً عن

الاجراءات المعتادة. الأولاد سيبقون دائمًا أولادًا، ولا لزوم لكي نتّبع اللوائح المعروفة هذه المرّة. هذا الشّخص قد عاد إلى عاداته القديمة كما نتذكّر نحن، وإن كنت أنت لا تتذكّر طبعًا. ها قد رأيناه يعتدي على المسنّين العزّل، وكانوا محقّين في الاقتصاص منه، لكن لا بدّ لنا أن نتّبع أسلوبنا نيابة عن الحكومة».

فقلت وأنا لا أكاد أصدّق أذني: «ماهذاكلّه؟ إنّهم هم الذين اعتدوا عليّ يا إخواني، أنتم لستم في صفّهم ولا يمكن أن تكونوا! لا يمكنك هذا يا ديم. إنّه كان شخصًا تلاعبنا به في الأيّام السّالفة وحاول الآن أن ينتقم لنفسه بعد كلّ تلك المدّة الطّويلة».

فقال ديم «مدّة طويلة فعلاً. إنّني لا أتذكّر تلك الأيّام، ولا تقل لي ديم أيضًا. قل يا حضرة الضّابط!»

وقال بيليبوي مضيفًا على ذلك الكلام، وكان الآن أقل سمنة «مع ذلك نتذكر ما فيه الكفاية. إنّ الفتيان الاشقياء الذين يتداولون المطاوي الحادّة يجب قمعهم». وأطبقوا عليّ بشدّة وأخرجوني عنوة من المكتبة، وكان ثمّة سيّارة شرطة للدّورية منتظرة في الخارج، كان سائقها ذلك المدعو باركس، فدفعوا بي إلى جانب السّيّارة الخلفي وأنا لا أكاد أصدّق إلّا أنّهم يمزحون، وأنّ ديم لا يلبث أن ينزع خوذته عن رأسه ويضحك مقهقهًا كعادته، لكنّه لم يفعل. فقلت محاولاً مغالبة القلق الذي انتابني «وصاحبنا بيتر؟ ماذا جرى له؟ إنّ ماحدث لجورجي كان شيئًا محزنًا إنّني سمعت عن هذا».

فقال ديم «بيتر؟ آه. نعم، بيتر. يخيّل إليّ أنّني أتذكّر هذا الاسم».

ولمّا رأيتهم يخرجون من المدينة قلت «إلى أين نحن ذاهبون؟»

فاستدار بيليبوي من المقعد الأمامي قائلاً «الوقت لا يزال نهارًا، مجرّد مسيرة إلى الرّيف! هناك الاشجار مجرّدة في الشّتاء ولكنّها جميلة وجميلة، ليس من المستحسن لأهل المدينة أن يشاهدوا عقابنا الخاص، والشّوارع لا بدّ أن يحفظ فيها الأمن بأكثر من طريقة».

والتفت أمامه مرّة ثانية، قلت له: «اسمع! إنّني لا أفهم هذا أبدًا. إنّ الأيّام السّالفة قد انطوت وذهبت وكلّ ما فعلته في الماضي قد نلت عقابي وأصبحت سليمًا معافى».

فقال ديم «إن الرّئيس قرأ لنا كلّ هذا، وقال أنّها طريقة علاج ناجحة».

فقلت باشمئزاز «قرأ لكم؟ أما زلت يا أخ على جهلك ولا تعرف القراءة لنفسك؟»

فردّ ديم بلهجة أقرب إلى الدّعة والأسف: «آه، لا.. لا تتكلّم هكذا». وشفع هذا بلطمة عنيفة سدّدها إلى أنفي، حتّى بدأ ينزف منه الدّم». فقلت بمرارة وأنا أمسح الدّم بيدي «لم تكن بيننا ثقة أبدًا، كنت دائمًا أنفرد بنفسي».

وقال بيليبوي «يكفي إلى هنا».

كنّا الآن في الرّيف حيث بدت الاشجار مجرّدة ولا يسمع سوى اصوات طيور متباعدة، وعلى البعد كان ما يشبه ماكينة زراعيّة يتردّد

صدى دورانها. وقد أقبل المساء إذ كنّا في صميم الشّتاء، وبدت المنطقة خالية من النّاس والحيوان، فلم يوجد سوانا نحن الاربعة.

وقال ديم: «انزل يا أليكس، مجرّد نزهة قصيرة».

وأثناء هذا كلّه كان السّائق المدعو باركس جالسًا إلى عجلة القيادة يدخن سيجارة ويقرأ كتابًا بين يديه في ضوء مصباح السّيّارة دون أن يهتمّ بما فعله بيليبوي وديم بمحدّثكم المتواضع. ولن أسهب في بيان ما فعلاه بي، ولكنّه كان ضربات صامتة وأنفاسًا لاهثة بين جلبة الماكينة الزراعيّة التي تعمل واصوات الطّيور المتباعدة. ذلك والسّائق جالس في مكانه يقلّب صفحات الكتاب في أتمّ هدوء وسكينة. وظلّ الاثنان لا يكفّان عن كيل الضّربات لي وقتًا ليس بقليل. وأخيرًا قال بيليبوي أو ديم إذ كنت لا أتذكّر من منهما المتكلّم «أظنّ أنّ هذا يكفي أيّها الزّميل، ألا ترى هذا؟»

ثمّ صوّب كلّ منهما ضربة على وجهي حتّى وقعت ولبثت منطرحًا فوق الحشائش، وكان البرد شديدًا ولكنّني لم أشعر به. وما لبث الاثنان أن مسحا أيديهما في الاتربة ثمّ لبس كلّ منهما كسوته ووضع خوذته على رأسه وكانا قد نزعاهما، وأخيرًا عادا إلى السّيّارة وبيليبوي يقول «سوف نراك مرّة أخرى في مكان ما يا أليكس».

أمّا ديم فقد أرسل قهقهته الحيوانيّة المعهودة وأتمّ السّائق قراءة الصّفحة التي كان يقرأها ووضع الكتاب جانبًا، ثم شغّل محرّك

السّيّارة وقادها باتّجاه المدينة ورفيقي السّابق وغريمي السّابق يلوحان لي بأيديهما. بيد أنّني لبثت منطرحًا في مكاني منهكًا تائهًا.

وبعد مدّة شعرت بأوجاع شديدة، ثمّ نزل المطر لاذعًا كالثلج، ولم أستطع أن أبصر إنسانًا أمامي، ولا أنوار تنبعث من بيوت، فإلى أين أذهب، أنا الذي لا بيت له ولا نقود كثيرة في جيبه؟

لقد أجهشت بالبكاء، ثمّ لم ألبث أن استويت قائمًا ومضيت أمشي».

الفصل الرابع

البيـت! البيـت! البيـت! كان كل ما أريده هو البيـت، وهو الذي وصلت إليه يا إخواني.

لقـد رحـت أمشي في الظّـلام، متّجهًا إلى أطراف المدينـة بل باتّجاه الجلبـة التـي كانـت تصدر مـن الماكينـة الزراعيّة، وقد أفـضى هذا بي إلى إحـدى القـرى التي شـعرت أنّنـي رأيتها من قبل، لكـن ربّما كان ذلك لأنّ القرى كلّها تتشـابه خاصّة في الظّلام. هنا كانت بيوت وما يشبه المشرب، وعند طرف القرية قام بيت صغير منعزل، واستطعت أن أتبيّن اسـمه بخطّ أبيض فـوق البوابة:(البيـت). وكنت أقطر من البلل بسـبب المطـر الغزير، إلى حـد أن ملابسي كانـت في حالة يرثى لهـا، وكان شـعري الكثيـف الـذي كان موضـع فخري، غابـة مبلّلة مشـعثه فـوق هامتي، وكنـت واثقًا مـن وجود جـروح وكدمات في وجهـي كلّـه، وشـعرت باثنتين مـن أسـناني مخلخلتين كلـمّا حرّكت لسـاني. وكانـت الاوجاع تشـيع في أنحاء جسـدي، هـذا إلى ما ألمّ بي من عطش شـديد جعلني أفتح فمي لكي أتلقّى المطر البارد، وكانت

معدتي تتلوّى بصوت مسموع طيلة الوقت إذ لم أذق طعامًا منذ الصّباح، وما تناولته كان أقل من القليل يا إخواني. في هذا البيت قد أجد إنسانًا يسعفني، فتحت البوّابة وتقدّمت خطوات في الممشى والمطر يتحوّل إلى زمهرير، ثمّ طرقت الباب برفق. ولمّا لم يظهر أحد كرّرت الطّرق بصوت أعلى، وعندئذ سمعت وقع أقدام تقترب من الباب وبعدها فتح الباب، وقال صوت رجل من الدّاخل «نعم؟ ماذا هناك؟» فقلت «أسعفني بالله. إنّ البوليس ضربني وتركني أموت في الطّريق! أناشدك أن تعطيني أيّ شراب يا سيدي وركنًا قرب النار». وعندئذ فتح الباب عن آخره، واستطعت أن أرى في الضّوء والدّفء نارًا موقدة تتلظّى، وقال ربّ الدّار «ادخل، مهما تكن! لطف بك الله يا ضحيّة، يا مسكين، ادخل ودعنا ننظر إليك!» وهكذا دخلت أتطوّح، ولم أكن أفتعل هذا تمامًا يا إخواني فقد كنت أشعر بأنّني في أسوأ حال. وقد وضع هذا الرّجل الطّيّب يديه على كتفي وجذبني إلى داخل هذه الغرفة التي كانت بها النّار المستوية، وفي الحال تعرّفت إلى مكان تلك المدفأة ولماذا كانت كلمة «البيت» المكتوبة على البوّابة معهودة لدي. ونظرت إلى هذا الرّجل ونظر هو إليّ متعاطفًا، والآن تذكّرته تمامًا. وطبعًا ما كان يمكنه أن يتذكّرني، ففي تلك الأيّام الخوالي التي كنت ورفاقي متحررين فيها من كلّ شيء وكنّا نقوم بالعدوان والانتهاك والعبث، كنّا ليلتها متنكّرين تحت الاقنعة. كان الرّجل أدنى إلى قصر القامة وفي منتصف العمر، كان يضع نظّارة

على عينيه، وما لبث أن قال لي «اجلس بجانب المدفأة، وسأحضر لك شيئًا من الويسكي والماء السّاخن. مسكين، مسكين، مسكين! إنّهم ضربوك ضربًا شديدًا!»

فقلت له «الشّرطة! كانوا قساة معي بصورة شنيعة».

فقال وهو يتنهّد «ضحيّة أخرى! ضحيّة العصر الحديث! سأذهب لإحضار الويسكي ثمّ أنظّف جروحك بقدر ما يمكن». ذهب ورحت أقلّب نظري في أرجاء تلك الغرفة الوثيرة. كانت شبه ممتلئة بالكتب، إلى جانب المدفأة وبعض المقاعد، وكان يمكن أن أقدّر أنّه لا توجد امرأة مقيمة في البيت، ورأيت آلة كاتبة فوق منضدة، وكميّة من الاوراق غير مرتّبة، فتذكّرت أنّ هذا الرّجل مؤلّف كتابه بعنوان «برتقالة بقلب ساعة» كما تذكّرت الآن، وكان من المضحك المبكي أن يعلق هذا العنوان بذهني، لكن لا بدّ إلّا يبدو هذا مني، إذ كنت الآن في أمسّ الحاجة إلى الاسعاف والرّحمة. إنّ أولئك الملاعين أصحاب المبنى الأبيض القائم بجوار السّجن قد فعلوا بي هذا، فجعلوني بحاجة إلى من يسعفني ويمدّ إليّ يدًا رحيمة، بل أجبروني على بذل المساعدة والرّحمة من جانبي إذا تقبّلها منّي أحد. وعاد الرّجل قائلاً «ها نحن على استعداد». وأعطاني كأسًا من ذلك الشّراب احتسيته على الفور وشعرت بتحسّن، ثمّ عكف على تنظيف جروح وجهي. وأخيرًا قال «لك أن تأخذ حمّامًا دافئًا لطيفًا سأعدّه لك، وبعدها يمكنك أن تحكي لي حكايتك أثناء عشاء ساخن

لذيذ سأجّهزه ريثما تأخذ الحمّام. أوّاه يا إخواني! كدت أبكي ازاء هذه الشّفقة، وأظنّ أنّه لا بدّ قد رأى الدّموع في عينيّ، إذ أنّه قال وهو ويضع يده على كتفي «كفى! كفى! كفى! ومهما يكن فإنّي صعدت إلى الدّور العلويّ وأخذت ذلك الحمّام السّاخن، وقد أحضر لي بيجاما وروبا مدفأين قرب النّار فضلاً عن شبشب مستعمل. والآن يا إخواني، فإنّني على الرّغم من الآلام الشّديدة التي شملتني في كل موضع من جسدي، شعرت بأنّني سأتحسّن عمّا قريب، رأيته أعدّ في المبطخ المائدة وعليها السكاكين والشوك ورغيف كبير من الخبز وزجاجة من الصّلصة، وما لبث أن صنع طبقًا من البيض المقلي وأعدّ إلى جانبه قطعًا من اللّحم المقدّد والسّجق المليء وأقداحًا من الشّاي السّاخن باللبن. وكم كان بديعًا أن أجلس هكذا في هذا المكان الدافىء أتناول الطّعام، ولمّا كنت أشعر بالجوع الشّديد فقد أقبلت على الطعام بينهم، واختتمت بقطع عريضة من الخبز كسوتها بالزّبدة والمربّى من إناءين كبيرين. وقلت في النّهاية «أنا أحسن كثيرًا، كيف يمكن أن أوفيك هذا الصنيع؟»

فقال لي «أظنّ أنّني أعرف من أنت، فإن كنت من أظنّه أنت، فقد جئت إذًا يا صديقي إلى المكان الصحيح. ألم تكن صورتك تلك التي كانت في الجرائد صباح اليوم؟ هل أنت الضّحية المسكينة لذلك النّظام الجديد الشّنيع؟ إن صحّ هذا، فالعناية الالهيّة التي أرسلتك إلى هنا، لقد عذّبوك في السّجن، ثم ألقوا بك خارجه لكي تعذّب

علـى أيدي الشّرطـة. إنّ قلبي لينفطـر من أجلك، يا ولدي المسـكين المنكود!»

لم أسـتطع يا إخـواني أن أقاطعه بكلمة واحـدة، وإن فتحت فمي علـى سـعته لكـي أردّ على أسـئلته، بينما استرسـل قائـلاً «إنّ الشّرطة مغرمة بالمجيء بضحاياها إلى أطراف هذه القرية، لكنها العناية الالهيّة التي شـاءت وأنت ضحيّة أخرى أن تجيء إلى هنـا. ربما تكون إذًا قد سمعت عنّي؟» كان لابدّ أن ألتزم الحذر يا إخواني، ولهذا أجبت «إنّني سـمعت عن «برتقالة بقلب سـاعة» لكنّني لم أقرأ الكتاب. فقال وقد أشرق وجهه كما تشرق الشّـمس في سـناء بزوغها «آه.. الآن حدّثني عن نفسـك». فرحت أقول بكلّ تواضع «ليس عندي ما أخبرك به يا سيّدي إلا القليل. هناك فتى أبله صبياني حرّضه أصدقاؤه المزعومون أو بالأحرى أرغموه على اقتحام بيت سـيّدة عجوز، ولم يكن في النّيّة عمل ما يضرّ ضررًا حقيقيًّا. لكن من سـوء الحظ أنّ السّيّدة أجهدت قلبهـا الضّعيف بمحاولتهـا طردي إلى الخارج، ذلـك وإن كنت على اسـتعداد للخروج من تلقاء نفسي، وبعدها توفّيت وقد اتّهمت بأنّني المتسبّب في وفاتها، وهكذا أدخلوني السّجن يا سيدي».

ـ نعم، نعم، نعم.. استمر.

وبعد ذلك اختارني وزير الدّاخلية لاجراء «تجربة لودوفيكو» على شـخصي». فقال وقد مال إلى الأمام اهتمامًا حتّى تلوّث مرفقا ذراعيْه بالمربّى من الطّبق الذي كنت أزحته جانبًا: «حدّثني عن كلّ هذا».

وهكذا أخبرته بكلّ شيء يا إخواني، وقد أبدى اهتمامًا بالغًا بسماع ما قلته وهو لامع العينين منفرج الشّفتين فيما كان الشّحم في الاطباق يتجمّد ويزيد تجمّدً. ولّما فرغت نهض عن المائدة مومئًا برأسه مرارًا وهو يهمهم، وأخذ يجمع الاطباق والأشياء الأخرى من المائدة وحملها إلى الحوض لغسلها.

فقلت له «سأفعل هذا يا سيّدي بسرور. فقال وهو يفتح الصّنبور حتّى خرج البخّار في نشيش: «استرح.. استرح أيّها الفتى المسكين! إنّك أذنبت فيما أظنّ، لكنّ عقابك قد جاوز كلّ الحدود. إنّهم أحالوك إلى شيء آخر غير كائن بشري، وجرّدوك من كلّ قوّة الاختيار، فقضوا عليك بأن تكون آلة صغيرة لا قدرة لها إلا على أداء ما تواضعوا على أنّه صلاح. إنّني أرى عواقب اعمالهم بوضوح في مجال ما يسمّونه «التّكيّف الهامشي»، والنّتيجة أنّ أشياء مثل الموسيقى والحبّ والأدب والفنّ، قد أصبحت عندك الآن مصدرًا لا للمسرّة بل للألم!»

فقلت وأنا أدخّن إحدى سجائره ذات الفلتر «هذا صحيح يا سيدي؟»

فقال وهو يجفّف أحد الاطباق شارد الذّهن «إنّهم يقتطعون دائمًا أكثر من اللازم، لكنّ المقصد الاساسي هو الخطيئة الفعليّة. إنّ الرّجل الذي لا يستطيع الاختيار يبطل كيانه كرجل».

فقلت: «هذا هو ما قاله واعظ السّجناء يا سيدي».

فقال: «هل قال ذلك حقًّا؟ طبعًا قاله، وكان لا بدّ أن يقوله، كرجل دين، أليس كذلك؟» قال هذا وهو لا يزال يجفّف الطّبق نفسه الذي ظلّ يجفّفه مدّة عشر دقائق، ثم استطرد يقول «سوف يزورنا بعض الاشخاص لرؤيتك غدًا، في ظنّي أنّه يمكن استخدامك أيّها الولد المسكين، أرى أنّه يمكنك أن تساعد في زعزعة هذه الحكومة التي لا تطاق. إنّ تحويل شاب سليم إلى (ترس) في آليّة السّاعة ينبغي ألّا ينظر إليه بالتّأكيد على أنّه نصر لأيّ حكومة، إلّا الحكومة التي تتباهى بسياستها القمعيّة، قال هذا وهو لا يزال يجفّف الطّبق نفسه، فقلت «سيّدي، إنّك لاتزال تجفّف الطّبق نفسه. إنّني أتّفق معك يا سيّدي بصدد التّباهي، يبدو أنّ هذه الحكومة شديدة التّباهي والمفاخرة».

«آه!» قالها وكأنّه رأى ذلك الطّبق لأوّل مرّة ثم وضعه جانبًا، ومضى يقول «أنا مازلت غير مدرّب تمامًا على الاعمال المنزليّة، كانت زوجتي تقوم بكلّ هذه الاعمال وتتركني لمباشرة كتابتي».

فقلت «زوجتك يا سيدي؟ هل ذهبت وتركتك؟» كنت حقًّا أريد أن أعرف مصير زوجته، وأنا أتذكّر جيّدًا. فقال بصوت عالٍ ومرير «نعم، تركتني. إنّها توفّيت، لقد اغتصبوها وضربوها بوحشيّة، وكانت صدمة شديدة جدًا وقد حدث هذا هنا في البيت!» كانت يداه ترتعدان وهو ممسك بالمنشفة، ثم أضاف «في الغرفة المجاورة، إنّني استمددت عزمًا من فولاذ لكي أستمرّ في المعيشة هنا. لكنّها كانت

تـودّ لي البقاء حيث لا تـزال ذكراها العطرة باقية. نعم، نعم، نعم.. يا للمخلوقـة المسـكينة!» إنّني يا إخواني قد اسـترجعت في ذاكرتي بأتمّ وضـوح كل مـا حدث في تلـك الليلة البعيدة، وعندمـا رأيت دوري فيها، بدأت أشعر بميل إلى الغثيان وسرى الألم إلى رأسي. وقد شاهد الرّجـل مـا اعتراني، إذ بدا وجهي ممتقعًا، شـديد الامتقـاع يكاد الدّم ينضـب منـه حتّـى كان من السّـهل أن يرى هـذا. فما لبـث أن قال لي برقّة «مسـكين، مسـكين يا ولـدي! لا بدّ أنّك مـررت بوقت مروّع! كنـت ضحيّة من ضحايا العـصر الحديث، مثلما كانت هي المسـكينة النّاعسة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

نمـت هـذه الليلة نومًا عميقًا يـا إخواني دون أحـلام بتاتًا، وطلع النّهار صحوًا باردًا كالصّقيع، ونفذت إلى أنفي رائحة فوّاحة سـائغة هـي رائحة اعداد طعام الفطور تحت. وقد اسـتغرقت وقت في تذكّر أين أنا، ما يحدث دائمًا، لكن سرعان ما تذكّرت، وسـاورني احساس بالـدّفء والطّمأنينـة. لكن سـطع في ذهنـي وأنا ممـدّد في الفراش إنّه يجدر بي أن أعرف اسـم هذا الإنسـان الطّيّب القلـب الحامي والحاني كأم، وهكـذا قمت أبحث عن كتاب «برتقالة بقلب سـاعة» الذي لا بـدّ أن يحمل اسـمه كمؤلّـف. ولمّا لم يكن في غرفة نومي سـوى سرير وكـرسي ومصبـاح، فقد دلفـت إلى غرفته المجاورة، وفيها شـاهدت صـورة زوجته فـوق الحائط في إطار كبير، فما تمالكت نفسي شـعرت بالغثيـان يلابسـني بتأثـير الذّكـرى، لكـن كان في الغرفـة رفّـان أو ثلاثـة صُفّت عليها الكتـب، ووجدت من بينها، كما قدرت، نسـخة مـن كتـاب «برتقالة بقلب سـاعة» وعـلى ظهر الغلاف اسـم المؤلّف «ف.الكسـندر. يا إلهـي! إنّه أليكس آخر!» وعندئـذ أخذت أتصفّح

الكتاب وأنا واقف بـ«البيجاما» حافي القدمين ولكن غير شاعر بالبرد بسبب الدفء السّاري في كلّ ما حولي، ولم أستطع أن أدرك ماهيّة الكتاب، إذ بدا لي أنّه مكتوب بأسلوب غريب، مليئًا بالآهات وما إليها، ولكن ما ظهر لي منه أن كلّ النّاس هذه الأيّام قد تحوّلوا إلى آلات، وإنّنا أنت و أنا وهو الخ أشبه بنبات طبيعي مثل فاكهة وقد بدا للمؤلف «ف.ألكسندر» أنّنا جميعًا ننبت على شجرة سمّاها شجرة الدّنيا، في حديقة الدنيا التي أنبتها الخالق، وإننا خلقنا لتحقيق مشيئته في قيام المحبة، أو شيء من هذا القبيل. في الحق يا إخواني إنّني لم أسترح إلى هذا الكلام، وعجبت كيف يفكر «ف.ألكسندر» هكذا إلا أن يكون متأثرا بموت زوجته، لكنّه لم يلبث أن نادى عليّ لكي أنزل، بصوت طبيعي مليء بالبهجة والمحبة وكل ما يتفرع عليهما، وهكذا هبط محدّثكم المتواضع إلى الدّور الأرضي. وقال لي وهو يقلّب بيضًا مسلوقًا ويخرج التوست من الفرن «إنّك نمت طويلاً، السّاعة الآن بلغت العاشرة، أمّا أنا فقد استيقظت أعمل منذ ساعات. فقلت له «هل تؤلف كتابًا جديدًا؟»

فأجاب «لا، لا. ليس هذا الآن». ولمّا جلسنا نتناول الفطور الشّهي وأقداح الشّاي الكبيرة عن كثب منّا أردف قائلاً «كلا، إنّني كنت أتكلم هاتفيًا مع أشخاص عدّة. فقلت وانا أغترف البيض بالملعقة الصغيرة دون أن أتحسّب في كلامي «كنت أظنّ أنّك لا تملك هاتفًا». فقال وقد بدا منتبهًا جدًّا مثل حيوان حذر والملعقة في يده

«ولماذا لا تظنّ أن يكون عندي هاتف؟» فقلت «لا شيء، لا شيء، لا شيء!» وتساءلت في نفسي يا إخواني إلى أيّ مدى كان يتذكّر المراحل الأولى من تلك الليلة البعيدة وأنا واقف لدى الباب أردّد الحكاية القديمة وأطلب من زوجته الاتصال هاتفيًّا لاستدعاء طبيب وردها بعدم وجود هاتف. لقد رمقني بنظرة مستخبرة، بيد أنّه لم يلبث أن عاد إلى ورقته وبهجته ومضى يأكل البيض ويقضم، قائلاً «نعم، إنّني اتّصلت هاتفيًّا بأشخاص عدّة سوف يهتمون بقضيتك، بإمكانك أن تكون سلاحًا فعالاً قويًّا جدًّا في ضمان أنّ هذه الحكومة الحاليّة الشّريرة القاسية لن تعود إلى الحكم في الانتخابات الوشيكة. إنّ أشدّ ما تتباهى به الحكومة هو الكيفيّة التي عالجت بها الجريمة في هذه الأشهر الأخيرة ورمقني بعينيه عن كثب مرّة أخرى من فوق بيضته السّاخنة حتّى تساءلت في نفسي من جديد أكان يستشفّ الجانب الذي لعبته حتّى الآن في حياته. غير أنّه عاد يقول «هذه الحكومة التي تجنّد فتيانًا أشدّاء قساة للعمل في الشّرطة والتي تدعوإلى تطبيق اساليب في التّكيّف الاجتماعي هي غاية في اضعاف النّفوس واستنزاف الارادة».

كلّ هذه الكلمات المطوّلة الطّنّانة كان يقولها يا إخواني وقد لاحت في عينيه نظرات أقرب إلى الجنون، ثمّ استطرد قائلا «إنّنا شهدنا مثل هذا من قبل، في البلاد الأخرى وقبل أن نعرف ما نحن متّجهون إليه سوف تحلّ بنا الدّكتاتوريّة الشّموليّة بكامل أجهزتها». فقلت له وأنا

أقضم وأبتلع «وأين مكاني في هذا كلّه يا سيّدي؟»

فأجاب وما زالت تلوح عليه تلك المسحة الغريبة «أنت ضحيّة حيّة لهذه الخطط الشّيطانيّة. لا بدّ للنّاس، لسواد الشّعب، أن يعرفوا، وأن يروا!»

ونهض عن فطوره وراح يمشي في المطبخ جيئة وذهابًا، وفيما بين حوض غسل الاطباق ودولاب المؤونة، وهو يقول بلهجة مستطيرة «هل يحبّون لابنائهم أن يصيروا إلى ما حدث إليك أنت الآن. أيّتها الضّحيّة المسكينة؟ ألا تنوي الحكومة الآن أن تفرز ما هو جريمة وما ليس بجريمة، وتعتصر الحياة والارادة من كلّ من يستصوب مناهضتها؟» ثمّ انحاز إلى بعض الهدوء وإن لم يعد لاستكمال بيضته، وأضاف قائلاً: «إنّني كتبت مقالاً هذا الصّباح بينما كنت أنت نائمًا، وسوف ينشر بعد يوم أو نحوه، مع صورتك الفوتوغرافيّة المنكودة، وسوف توقّع بإمضائك هذا المقال يا ولدي المسكين، إذ سيكون تسجيلاً لما فعلوه بك».

فقلت له «وما الذي ستناله من هذا يا سيّدي؟ أقصد، عن المبلغ الجزيل الذي ستحصل عليه عن المقال؟ أعني لماذا أنت غاضب وعنيف هكذا ضدّ هذه الحكومة إذا جاز لأن أتجاسر على هذا السؤال؟» فشدّ بيديه على حافّة المائدة وهو يضغط على اسنانه التي كانت مصفّرة بتأثير دخّان السّجائر لا بدّ لبعضنا أن يناضل، هناك تقاليد عظمى للحرّيّة لا بدّ من الدّفاع عنها. أنا لست مشايعًا

للحكومـة، وحيثـما أرى عملاً شـائنًا فإنّني أسـعى لإزالتـه. إنّ ابناء الاحزاب لا يعنون شـيئًا في نظري، فـإنّ تقاليد الحرّيّة هي كلّ شيء، وإنّ سـواد ابناء الشّـعب سـوف يتغاضون عن هذا. أجل وا أسـفاه! إنّهم سوف يبيعون الحرّيّة لقاء حياة أدنى إلى الهدوء! وهذا هو السّبب في أنّه لا بدّ من نخسـهم، ووخزهم! وشـفع هذا يا إخواني بأن تناول الشّـوكة وضربها في الحائط ثلاث مرّات حتّى انثنت، ثمّ طوّح بها إلى الأرض. وأخـيرًا عاد يقول بكلّ رقّة «كل جيّدًا أيّها الولد المسـكين! أيّها الضّحيّة المنكودة للعالم الحديث!»

وبـدا لي أنّـه يكاد يفقد صوابـه وهو يقـول «كل، كل، كل بيضتي أيضًـا». غـير أنّني قلت له «وما الذي سـأناله من هذا؟ هل سأشـفى من الحالة التي أنا عليها الآن؟ هل سـأجد نفسي قادرًا على الاسـتماع إلى السّـيمفونيّة الرّعويّـة لـ«بتهوفـن» دون أن أغثى مرّة أخرى؟ هل يمكننـي أن أحيـا حيـاة طبيعيّة من جديـد؟ ما الذي سـيحدث لي يا سيّدي؟»

لقد نظر إليّ يا إخواني وكأنّه لم يفكّر في هذا قبل الآن، وعلى أيّ حال فلم يكن هذا بذي بال إذا قورن بالحرّيّة وما يماثل هذا الكلام، وبدت عليه علامات الاستغراب إذ قلت له هذا، وكأنّني شخص أناني حين أريد شيئًا لنفسي، ثمّ ما لبث أن قال «آه، كما قلت لك، ثمّ تعال وانظر مـا كتبته، لأنّه سـوف ينشر في صحيفـة «ذي ويكلي ترامبـت» مذيّلاً باسـمك، أيّها الضّحيّـة المنكودة!» لا بأس يا إخـواني إنّ ما كتبه كان

موضوعًا مطوّلاً جداً، وباكيًا جدًّا، ومن قراءتي له شعرت بالأسى للإنسان المسكين الذي أفاض في سرد عذاباته ومعاناته، وكيف أنّ الحكومة قد استنزفت ارادته، وكيف أنّه يتعيّن على النّاس كافّة ألا يدعوا لمثل هذه الحكومة الفاسدة والشّريرة أن تتبوّأ الحكم مرّة أخرى. وطبعًا قد أدركت أنّ ذلك الانسان المسكين المعذّب لم يكن سوى محدّثكم المتواضع. وفي النّهاية قلت «عظيم جدًّا، لقد أبدعت الكتابة والتّصوير يا سيّدي. أنت (مجدع) يا سيدي!»

فقال وكأنّه لم يسمعني من قبل «ماذا؟»

فقلت «آه! هي كلمة نتداولها فيما نسميه «كلام العدسات»! جميع المراهقين يستعملون هذه اللغة يا سيدي!» وأخيرًا ذهب إلى المطبخ لغسل الاطباق، وبقيت بالملابس الليلية المستعارة، انتظر ما سوف يفعلون بي ما هم فاعلوه، إذ تكن لدي خطط لنفسي، أوّاه يا أخواني! وفيما كان «ف.ألكسندر» الكبير في المطبخ سمعنا دقًّا لجرس على الباب، فهتف وهو يخرج من المطبخ مجفّفًا يديه: «آه! هم هؤلاء النّاس، سأذهب إليهم». وذهب وأدخلهم، وسمعت حديثًا وقهقهة وكلامًا عن الطّقس الشّنيع في الرّدهة، وبعدها دخلوا إلى الغرفة ذات المدفأة والكتب والمقال المدبلج عن تفاصيل معاناتي، ولمّا وقع نظرهم عليّ تفوّهوا كلهم «لا» وكانوا ثلاثة، وذكر لي «ف. أليكس الكبير أسماءهم «ز. دونين المدخّن المصاب بعسر التّنفّس الذي يسعل باستمرار وهو يعضّ على طرف السّيجارة في

فمـه مريقًا رمادها على ملابسـه ويداه تنفضانه بتـبرم، وهو إلى هذا سـمين مسـتدير يلبس نظّارة كبيرة ذات إطار سـميك، وروبنشتين الفـارع الطّول والمهـذّب لغة وايماءات والمدبّـب اللّحية، وأخيرًا د. ب. داسـيلفا الكثير الحركات والذي تفوح منه رائحة عطرة قويّة». إنّ ثلاثتهـم رمقـوني بنظراتهم طويلاً وبدا عليهم الابتهاج الشّـديد لرؤيتي». وقال ز.دولن «لا بأس! لا بأس! يا له من أداة رائعة يمكن أن يكونها هذا الصّبي! وإذا لزم الأمر، فيمكن بالطّبع أن يظهر أكثر اعتلالاً مما يبدو أيّ شيء ممكن في سـبيل القضيّة. لا شكّ أنّه يمكننا التّفكـير في ذلـك». إنّني لم أسـترح إلى هذا الكلام يا إخـواني لما فيه من مسـاس بشخصي الضّعيف، وهكذا قلت «ما هذا يا حضرات؟ ماذا تدبّرون (لمحسوبكم) الصّغي؟» وعندئذ سارع «ف.ألكسندر» قائـلاً «غريب! غريب! إنّ هذه اللّهجة تثيرني، إنّنا اتّصلنا مع بعض من قبل، أنا متأكّد من ذلك». وراح يتأمّل مقطّبًا... فكان هذا نذيرًا لي بأن ألتزم الحذر في كلامي.

وقـال «د. ب. داسـيلفا»: «اجتماعـات عامّـة بصفـة أساسـيّة، وعرضك على أنظار الجمهور سـيكون عونًا هائلاً، كما أنّ الاسـتعانة بالصّحافـة مسـألة مفروغ منها، وسـتكون البداية هـي كيف ضيّعوا حياتك! لا بدّ أن تلهب القلوب والمشاعر». قال هذا وقد كشف عن اسـنان ناصعة البياض تباينت مع وجهه الأسمر، وبدت عليه مسحة شخص أجنبي.

قلت «لا أحد يقول لي ما الذي أجنيه من كلّ هذا، لقد عذّبت في السّجن، وطردت من بيتي من قبل والدي والسّاكن عندهما القذر الثّقيل، وضربت على أيدي رجال عجائز، وكدت أقتل على أيدي الشّرطة. ما الذي سأصير إليه؟»

وهنا تدخّل المسّمى روبنشتين قائلاً «سوف ترى يا ولد أنّ الحزب لن يكون ناكرًا للجميل. لا! عند نهاية هذا كلّه، سوف تعدّ لك مفاجأة مرضية وما عليك إلا أن تنتظر وترى».

فهتفت قائلاً «هناك شيء واحد أطلبه، وهو أن أكون إنسانًا طبيعيًّا سليمًا معافى كما كنت في الأيّام الحلوة، مستمتعًا بالمرح مع رفاق حقيقيّين ليسوا مثل من يدّعون أنّهم كذلك وما هم في الحقيقة إلّا خونة غادرين؟ فهل يستطيع أيّ شخص أن يعيدني إلى ما كنت عليه؟ هذا هو ما أريده، وهذا هو ما أريد أن أعرفه».

أخذ ز.دولين يسعل، ثم قال «أنت شهيد في سبيل الحرّيّة عليك دور تؤدّيه، ولا تنس هذا. وفي أثناء ذلك سوف نعنى بك».

وأخذ يمسح على يدي اليسرى كما لو كنت أبله معتوهًا وهو يبتسم ابتسامة سخيفة. فهتفت قائلاً «كفّ عن معاملتي كأنّني أداة لاستخدامها فقط! أنا لست أبله يمكنكم أن تفرضوا عليه ما تريدون أيّها الخبثاء، إنّ السُّذّج هم الاغبياء، وأنا لست واحدًا منهم ولن أكونه؟ هل فهمتهم؟»

فقال ف.ألكسندر متأملاً «عجبت لهذه اللّهجة! يُخيّل إليّ أنّني سمعت مثلها في مكان ما». لم أسترح في الحقّ لهذه الظّاهرة من جانب ف. الكسندر ولا لهيئته إذ ذاك ولهذا اتّجهت إلى الباب للصّعود وارتداء ملابسي ثمّ الاسراع بالخروج، بينما راح ف.ألكسندر يقول وقد انفرجت اسنانه وبرقت عيناه جنونًا «أكاد أصدّق الآن! لكن مثل هذه الاشياء مستحيلة، وحق القديسين لو أنّه كان هو لمزّقته إربًا وحطّمته تحطيمًا».

وهنا انبرى له د. ب. داسيلفا يربّت على صدره وكأنّه كلب يريد تهدئته، قائلاً «لقد حدث كلّ هذا في الماضي، وكان الفاعلون أناسًا آخرين. لا بدّ أن نساعد هذه الضّحيّة المسكينة. هذا هو ما يجب أن نفعله الآن، متذكّرين المستقبل و قضيتنا».

فقلت وأنا عند قاعدة السّلالم «سأصعد لارتداء ملابسي، ثمّ أخرج لما يعنيني. أقصد أنّني أنني ممتن لكم جميعًا، وأمامي حياتي الخاصّة لكي أعيشها». والحق يا إخواني أنّني أردت أن أخرج من هنا بأسرع ما يمكن. غير أنّ، ز. دولين قال «آه، لا! أنت عندنا يا صديقي، وسنحتفظ بك، وسوف ترى أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام».

واقترب منّي كأنّه يريد أن يمسك بيدي مرّة أخرى. وعندئذ فكّرت، يا إخواني في المقاومة والقتال، ولكن التّفكير في العنف جعلني أريد أن أتهاوى وأغثى، وهكذا لزمت مكاني، ولمّا انثنيت ولمحت تلك

النّظـرة الجنونيّة في عيني ف. ألكسـندر أخذت أقـول «مهما تقولوا فأنا بـين أيديكم، لكن هلمّـوا بنا نبدأ لكي ننهي يا إخـواني!» ذلك لأنّ ما كنت أريده هو الخروج من هذا البيت، إذ بدأت أشعر أنّني غير مرتاح لنظرات ف. ألكسـندر بأيّ حال. فقال المدعو روبنشتين «بديع، البس ملابسك ودعنا نبدأ». أسرعت إلى الغرفة العليا ولبست في ثانيتين، ثمّ خرجت مع هؤلاء الثّلاثة وركبنا سيّارة جلست فيها بين «دولين» وهو يسـعل عن يميني، و «روبنشـتين» عن شـمالي، وتولّى «د.ب. داسيلفا» القيـادة، واتّجهت بنا السّـيّارة إلى المدينة حيث توقّفنا بعد مسـافة قليلة نسـبيًّا أمـام إحدى العـمارات السّـكنيّة العمّاليّـة، وقـال ز. دولين «هنا سـيكون مقـرّك، انـزل». كانت العـمارة شـبيهة بمثيلاتها من مسـاكن العـمّال ذات لوحات محفـورة في المدخل ترمز إلى كرامة العمل، وركبنا المصعـد إلى شـقّة علويّة مؤثّثـة تأثيثًا طيّبًـا، بها غرفتا نـوم وغرفة ثالثة للمعيشة والعمل والطّعام معًا، توسّطتها منضدة كانت مغطّاة بالكتب والاوراق والحـبر والزّجاجات وما إلى ذلك. وقال «د.ب. داسـيلفا»: «هذا هـو بيتك الجديد، عندك الطّعام في دولاب المؤونة، والبيجامات في أحد الادراج. فاسترح، استرح أيّتها الرّوح المعذّبة!

فقلت وأنا لا أكاد أفهم «ايه؟»

فقال «روبنشـتين» بلهجته المهذّبة «لا بأس! إنّنا سـنتركك الآن. فهنـاك عمل أمامنا، وسـنعود إليك فيما بعد. اشـغل نفسـك بقدر ما يمكنك».

فقال «ز.دولين» بعد أن سعل مرّات «هناك مسألة هامّة، إنّك رأيت ما الذي حرّك الذّكريات في نفس صديقك «ف.ألكسندر» المعذبة. فهل، بمحض الصّدفة؟ بعبارة أخرى، هل أنت...؟ أظنّ أنّك فهمت قصدي، إنّنا لن ندع المسألة تتطوّر إلى أكثر من هذا!» فقلت «إنّني كفّرت! الله يعلم أنّني كفّرت عمّا فعلت، لقد كفّرت ليس فقط عن نفسي بل أيضًا أولئك الانذال الذين كانوا يقولون أنّهم أصحابي». واشتدّ بي الانفعال حتّى شعرت بغثيان يسير، فقلت «سأتمدّد قليلاً، إنّني مررت بأوقات رهيبة، رهيبة!»

فقال د.ب.داسيلفا «فعلاً، هو كما تقول». وهكذا تركوني يا إخواني، وانصرفوا لشأنهم، الذي فهمت أنّه يتّصل بالمسائل السّياسيّة وما إليها، فاستلقيت في الفراش وحيدًا وسرى الهدوء من حولي. لقد تمدّدت مكاني بعد أن ألقيت حذائي وفككت ربطة عنقي وأنا في أتمّ الحيرة ولا أدري أيّ حياة يمكن أن أحياها الآن، وراحت كلّ أنواع الصّور تتوارد على ذهني لمختلف الاشخاص الذين التقيت بهم في المدرسة، وفي السّجن، ولشتّى الاحداث التي مرّت بي، وكيف أنّه لم يكن ثمّة شخص واحد يمكن الثّقة به والرّكون إليه في هذا العالم الواسع. وفي النّهاية غالبني النّوم يا إخواني.

عندما استيقظت سمعت صوت موسيقى عالية تتسرّب من خلال الحائط، وكانت هي التي جذبتني من نومي. كانت سمفونيّة أعرفها تمام المعرفة ولكنّني لم أسمعها منذ سنوات عديدة، وهي السّمفونيّة

رقم 3 للموسيقار الدنماركي «اوتوسكا دلينج»، وهي معزوفة رائعة وعنيفة خصوصًا في المقطع الأوّل، وهو ما سرى الآن إلى سمعي، ولقد أخذت استمع إليها مدى ثوان باهتمام وبهجة، لكن سرعان ما اعترتني بوادر الألم والغثيان، حتّى رحت أتوجّع من أعماقي، ثم إذا بي أنا الذي طالما أحببت الموسيقى وشغفت بها أزحف خارج الفراش وأدق الحائط صارخًا «أوقفوها! أوقفوها!» بيد أنّها استمرّت، وبدا كأنّها ازدادت علوًّا. وهكذا مضيت أدقّ الحائط حتّى احمرّت عقد اصابعي وتسلّخ جلدي وأنا لا أكفّ عن الصّياح، غير أنّ الموسيقى لم تتوقّف. ثمّ بدا لي أن أهرب منها، فاندفعت من غرفة النّوم إلى باب الشّقة، غير أنّني وجدته مؤصدًا من الخارج ولا سبيل إلى الخروج منها. وطوال هذا كلّه كانت الموسيقى تزداد دويًّا حتّى لكأنها تعذيب مستمر دائب يا إخواني. وهكذا غرست اصابعي الصّغيرة عميقًا في أذني، بيد أنّ قرع الطّبول ما فتىء يدوّي في سمعي فرحت أقول وقد غلبني البكاء «رحماك يا إله السّماوات! ماذا أعمل؟ أغثني يارب!»

ولبثت أهيم في أرجاء الشّقّة في كرب من الألم والغثيان وأنا أصرخ حتّى تكاد أحشائي تتمزّق وقلبي ينفطر، ثمّ لاحت منّي التفاتة إلى الكتب المكوّمة فوق المنضدة في غرفة الجلوس، فرأيت فيها ما يتعيّن عليّ أن أفعله وما كنت أريد فعله إلى أن اعترض سبيلي عجائز المكتبة العامّة ثمّ ديم وبيليبوي في زيّ رجال الشّرطة. وذلك أن أنهي حياتي وأنسفها نسفًا من هذه الدّنيا الشّريرة القاسية! كان ما رأيته هو كلمة

«الموت» مطبوعة عـلى غلاف إحدى النّشرات، وإن كان العنوان هو «المـوت للحكومـة» وكأنّ القدر أراد تيسـير مهمّتـي، إذ لمحت كتيّبًا آخر كان على غلافه رسـم نافذة مفتوحة وتحتها هذه العبارة «افتحوا النّافـذة للهواء المجـدّد، للافكار الجديدة، لاسـلوب آخـر للحياة». وهكـذا عرفت أنّ في هذا ايماءة لي بأن أختم حياتي بالقفز من النّافذة، ربّـما كانت لحظة ألم واحدة، وبعدها نومة أبديّـة، أبديّة، أبديّة. كانت الموسـيقى لا تزال تنبعـث مدوّية وكانت نافذة غرفـة النّوم مفتوحة، فاقتربـت منها ورأيت بنظرة مسـقطًا لا بأس به إلى حيث السّـيّارات والاتوبيسـات والمـارّة من تحتي. وعندئذ هتفـت بأعلى صوت للدّنيا كلّهـا «الـوداع! الـوداع! الـوداع! أدعـو الله أن يغفـر لي القضاء على حياتي بيـدي! ثـمّ ارتقيت إلى حافّة النّافذة وصوت الموسـيقى يتباعد عن شـمالي، فأغمضت عيني، وشـعرت بالهدوء البارد يلذع وجهي، ثمّ قفزت.

الفصل السّادس

قفزت يا إخواني، وهويت على الرّصيف الصّلد، غير أنّني لم أقض نحبي! هذا حق، وإلّا لما كنت بين أيديكم الآن أسرد قصّتي!

يبدو أنّ القفزة لم تكن من ارتفاع كبير يؤدّي إلى ازهاق الرّوح ولكنّني أصبت في ظهري وشعرت فيه وفي رسغي وساقي بألم شديد قبلما غبت عن الوعي، مع لمحة خاطفة لوجوه أناس يطلّون عليّ بدهشة واستغراب! وفي تلك اللّحظات الخاطفة بين الحياة والموت تجلي لي أنّه لا أحد في هذه الدّنيا القبيحة بأسرها كان مواليًا لي، وأنّ تلك الموسيقى التي سرت إلى مسمعي من خلال الحائط إنّما كانت مدبّرة من جانب أولئك الذين كنت أظنّ أن يكونوا رفاقي الجدد، وإنّ شيئًا كهذا الذي حدث لي كانوا يريدونه أن يحدث طبقًا لأنانيّتهم القبيحة وسياساتهم التي يتباهون بها! كلّ هذا تجلّى لي في وقت واحد من المليون من الدّقيقة قبلما غبت عن الدّنيا وعن السّماء وعن الوجوه التي راحت تحملق فيّ مصعوقة.

أمّا أين كنت عندما عدت إلى الحياة بعد فجوة مديدة سوداء من الغيبوبة ربّما كانت مثل مليون سنة، فذلك في المستشفى ولا شكّ، فهو ناصع البياض بالغ النّظافة تشيع فيه رائحة المطهّرات النفاذة. وقد عدت ببطء إلى الوعي الذي درّبت فيه من أنا وأنّني مشدود في الاربطة والضّمادات وأنّني لا أستطيع أن أشعر بأيّ ألم أو شيء آخر في جسدي بتاتًا. كان رأسي كلّه ملفوفًا بالضّمادات، وألصقت قطع من الاشرطة حول وجهي، وكانت يداي في الضّمادات، وشدت عصوات صغيرة إلى اصابعي وكأنّما كانت أزهارًا يراد أن تنمو مستقيمة. وكانت قدماي ممدودتين أيضًا وتحف بهما الضّمادات وأقفاص صغيرة من السّلك، وفي يدي اليمنى قرب الكتف، كان سائل أحمر يسقط قطرات من قدر زجاجيّة مقلوبة رأسًا على عقب، لكنّني لم أكن أستطيع أن اشعر بأيّ شيء يا إخواني. وكان ثمّة ممرّضة جالسة بجانب فراشي تقرأ في كتاب بدا مطموس الطّباعة، وكان لك أن تقدّر أنّه قصّة، بسبب كثرة الاقواس بين سطوره، وكانت تتنفّس بعسر ولهث وهي تقرأ، فلا بدّ أنّها قصّة غراميّة عنيفة. وكانت هذه الممرّضة بادية الملاحة ذات ثغر أحمر وأهداب طويلة فوق عينيها، وكان يبدو لك من تحت ردائها المتيبّس نهدان بديعان. وهكذا قلت لها: «يا أختي الصّغيرة، هلا جئت وقاسمت أخاك المسكين مضجعه؟» غير أنّ كلماتي لم تخرج من فمي بتاتًا، وكأنّ فمي قد تصلّب وانطبق وشعرت بلمس لساني أن بعض أسناني لم تعد موجودة.

بيد أنّ الممرّضة ما لبثت أن وثبت قائمة وألقت كتابها على الأرض قائلـةً: «آه! هل عدت إلى وعيـك؟» حاولت أن أردّ، بيد أنّ الكلمات لم تـزد مخـارج أحرف. فأسرعـت خارجة وتركتني وحـدي، ورأيت الآن أنّني في غرفة خاصة بي، لا في عنبر من تلك العنابر الطّويلة التي رأيت مثلها وأنا طفل صغير مصاب بالدفتيريا.

وبـدا كأنّنـي لا أقـوى عـلى تمالك الوعـي طويـلاً، إذ يبـدو أنّني نمـت على الأثر، لكنّني بعـد دقيقتين كنت متأكّدًا أنّ الممرّضة عادت وصحبت معها أشخاصًا في معاطف بيضاء وراحوا ينظرون مقطّبين ومهمهمـين إلى محدّثكم المتواضـع، وكان معهم وأنا أؤكّد هذا واعظ السّـجناء العتيد الذي ذهب يقول ورائحة الويسـكي تفوح منه «أوّاه يـا ولـدي! أوّاه يا ولدي! لكنّني لم أقبل أن أسـتمرّ معهم! لم أسـتطع أن أسـاهم معهـم أولئك الملاعـين في فعل ما هم فاعلـوه لغيرك من المسـجونين التّعساء، وهكذا انسـحبت من بينهم وانتقلت للوعظ في مكان آخر أفضح فيه نواياهم، أوّاه يا ولدي المحبوب!»

فيما بعد استيقظت مرّة أخرى، فمن تحسبوني أنّني شاهدت سوى أولئك الثّلاثة الذين قفزت من شقّتهم إلى الشّارع؟»

أعني «و. ب داسـيلفا»، و«روبنشتين»، و«ز. دولين» وكان واحد منهم يقول «أيّها الصّغير، النّاس على نار من الغضب! إنّك قد قضيت على فرص أولئك الاوغاد المتفاخرين في اعادة انتخابهم، إنّهم ذاهبون راحلون إلى الأبد وإلى الأبد. لقد خدمت الحرّيّة خدمة جليلة».

فحاولـت أن أقول «لو أنّني كنت متّ لكان ذلك أفضل لتحقيق أغراضكـم السّياسـيّة اللّعينـة، أيّها المنافقـون الغـادرون!» لكن كل مـا خـرج من فمـي كان مجرّد حروف مبتـورة ثمّ لمحـت أحد أولئك الثّلاثة ممسكًا بقصاصات جرائد، وكلّ ما استطعت رؤيته هو صورة شـنيعة لي وأنـا مخضّب بالدّمـاء فوق محفـة منقولة، وعـن كثب منها ما يشـبه ومضات كاميرات المصوّرين. واسـتطعت بعـين واحدة أن أقـرأ عناويـن بدت مهتـزّة في يد الممسـك بالقصاصـات، مثل صبي ضحيّة خطّة للإصلاح الجنائيّ والحكومة هي القاتل ثمّ لمحت صورة لشـخص آخـر كتب تحتهـا بالخطّ الغليـظ: **اخرج! اخـرج! اخرج!**، وكانت صورة وزير الدّاخلية.

ولم تلبـث الممرّضـة أن قالـت «يجب ألا تسـبّبوا لـه الانفعال على هذه الصّورة، يجب ألّا تفعلوا له شـيئًا يسبّب تعكيره، والآن لا بدّ أن تخرجـوا». حاولت أن أقول بدوري «اخرجـوا! اخرجوا! اخرجوا! لكن لم تصدر منّي سـوى مخارج حروف مرّة أخرى، ومهما يكن فقد خرج أولئك السّياسـيّون الثّلاثة. أمّا أنـا فقد عدت إلى عالم الظّلمات مـن جديد، تتخلّله أشـياء كالاحلام، منها يا إخـواني ما بدا لي من أنّ جسـدي قد أفرغ ممّا هو أقرب إلى مياه قـذرة ثم ملىء مرّة أخرى مياه نظيفـة، ثمّ تراءى لي كأنّني ركبت سـيّارة اقتنصتها عنوة من صاحبها وأخـذت أقودهـا بنفسي عـبر الدّنيا ذهابًـا وإيّابًا والنّـاس في طريقي يتراكضون مذعورين صارخين وليس بي ألم ولا غثيان ورؤى أخرى

لفتيات حسـان كانت لي معهـن مطارحات غراميّة والنّاس من حولي يصفّقون مهلّلين. ثمّ استيقظت مرّة أخـرى، فكان القادمون هما أبي و أمّي جـاءا لرؤية ابنهما الطّريح وأمّي تبكي بكاءً مرًّا. لقد أصبحت الآن أقدر على الكلام، ورحت أقول «حسنًا! حسنًا! حسنًا! ما الذي يجعلكم تظنّون أنّكم محل ترحاب؟»

فقـال أبي خجـلاً مخزيًـا «رأينـا في الجرائد يـا بني، قالـت الجرائد أنّهم أسـاءوا إليك كثيرًا، وأنّ الحكومة دفعتك لمحاولة التّخلّص من حياتـك، وقالت أنّ الذّنب ذنبنـا أيضًا على نحوٍ ما يا بني». ذلك وما فتئت أمّي مسـتغرقة في البكاء والنّحيـب، فقلت «وكيف حال ابنكم الجديـد جو؟ لعلّه بخير وعافية وسـعادة؟!» فلم تعـد أمّي أن قالت منتحبة «أوّاه يا أليكس! يا أليكس!»

وقـال أبي «حـدث شيء غريـب يـا بنـي، إنّـه وقـع في ورطـة مع الشّرطـة، وقد قبضوا عليه. فقلت «أحقًّـا؟! أحقًّا؟! يحدث هذا لمثل ذلك الشّخص الطّيّب المحبوب؟ أنا مدهوهش بصراحة!»

فقال أبي «إنّ الشّرطة ضبطوه مع فتاة لدى النّاصية، وعندما نهروه قال لهم أنّ له حقوقه كأيّ فرد من النّاس، فما كان منهم إلا أن انقضّوا عليه واعتقلوه». فقلت «فظيع! فظيع! وأين الفتى المسكين الآن؟»

فقالـت أمي بين العبرات والزّفرات «ذهـب من حيث أتى. أوّاه! أوّاه!»

وقـال أبي «نعـم، عـاد إلى بلدته لكي يتـداوى بعد الـذي أصابه، خصوصًا بعد أن أعطوا عمله هنا لشخص آخر».

فقلـت «والآن أنتم راغبون في عودتي إليكم من جديد لكي تعود الامور إلى مجراها الطّبيعي كما كانت من قبل».

فقال أبي «نعم يا بني، هذا رجاء منّا!»

فقلت «سـأفكر في الأمر، سأفكّر في الأمر بعناية». فكان مزيد من البـكاء والنّحيب مـن جانب أمّي. فقلت لهـا «آه.. كفى، وإلا فعلت شيئًا يجعلك تصرخين بحق! سأقفل فمك بالقوّة».

والواقع يا إخواني أنّني شعرت بتحسّن، وكأنّني لكي أتحسن كان لا بدّ أن يحدث ما يسوء. وقال أبي «ما هكذا يجب أن تخاطب أمك يا بني، مهما يكن فهي التي جاءت بك إلى هذه الدّنيا».

فقلـت «نعـم، ويا لها من دنيا سـعيدة!» ثمّ أغمضت عيني بشـدّة في شيء مـن الألم، وقلت أخيرًا «اذهبا الآن! سـوف أفكّر في العودة إليكما، لكن لا بدّ من أن يختلف الموقف تمامًا». فقال أبي «نعم يا بني، أيّ شيء تريده».

فقلـت «لا بـدّ أن تحزما أمركما فيمن يكـون ربّ البيت». فراحت أمّـي تبكي قائلةً «أوّاه!» وقال أبي «حسـنًا جدًّا يا بني. سـوف تكون الامـور كما تحب. فقط اسـترد صحتّك». وبعـد انصرافهما تمدّدت في الفراش وأخلدت إلى التّفكير في أمور شتّى. وتعاقبت في ذهني صور

وأشـياء كثـيرة، وعندما عادت الممرّضة الحسـناء ترتّـب الملاءات في فراشي قلت لها «كم لبثت هنا؟»

فقالت «حوالي اسبوع».

ثم سألت: «وما الذي كانوا يفعلونه بي؟»

فـردّت قائلةً «لا بـأس، إنّك كنت مهشـمًا ومجروحًا ونزفت منك دماء كثيرة. فاضطرّوا أن يعالجوا لك كل هذا، أليس كذلك؟»

فقلـت لها «لكن، هـل فعل أحد أي شيء بـرأسي؟ ما أقصده هو هل عبثوا بمخي على أيّ صورة من الصّور؟»

فقالت «مهما يكن ممّا فعلوه، فإنّه كان لمصلحتك». ولكن بعد أيام عدّة زارني اثنان من الاطباء الشّبّان تعلو الابتسـامة وجهيهما، وكان معهـما ما عرفت أنّـه كتاب مصـوّر. وقال لي أحدهمـا «نريد منك أن تلقي نظرة على هذه الصّور وأن تقول لنا ما رأيك فيها، واضح؟»

فقلـت «مـاذا وراءكما؟ وأيّ مكـر تخفونه في جعبتكما؟» فابتسـما بـشيء من الحـيرة لهذا الكلام، ثمّ جلسـا على جانبـي الفراش وفتحا الكتاب، في الصّفحة الأولى كانت صورة عشّ طيور مليئًا بالبيض».

فقال أحد الطّبيبين «نعم؟»

فقلت «عش طيور، مليء بالبيض، هو لطيف جدًّا».

فقال الطّبيب الآخر: «وماذا تحب أن تفعل بشأنه؟»

فقلـت «آه، أحطّمـه. آخـذ العـش كلّـه وأطوّحـه عـلى حائط أو صخرة أو أيّ شيء، ثمّ أنظر على الحطام».

فقـال الاثنان معًا «جميـل، جميل، ثمّ قلبا الصّفحـة، فبدت صورة طاووس نشر ذيله الكبير بكلّ الالوان متباهيًا تباهيًا».

فقـال أحد الطّبيبين «نعم؟» فقلـت «أودّ أن أنزع كلّ هذا الرّيش في الذّيل وأسمع صراخه الجنونيّ، نظير هذا التّفاخر والتّباهي». فقال الطبيبان معًا «جميل، جميل، جميل!» واسـتمرّا يقلّبان بقية الصّحائف، فرأيت صور فتيات جميلات، وقلت أنّني أودّ أن أطارحهنّ الهوى مع ما يلزم من أعمال العنف. وكان ثمّة صور أخرى لاشخاص يركلون في وجوههـم بالاحذية ودماؤهم تسـيل مدرارًا، وقلـت أنّني أودّ أن أكـون في مثـل هذه الصّور (عـلى الطبيعة). فقالا «هـذا جميل، جميل، جميل!»

فقلت «ما معنى هذا كلّه!»

فقـال أحد الطّبيبـين «حالة «هيبنو بيديا» عميقـة، أو أيّ شيء من هذا الكلام الغامض». ثـمّ أضافا «يبدو أنك شفيت».

فقلت «شفيت؟ أنا مقيّد في السّرير هكذا، وتقولون أنّني شفيت؟! كلام لطيف لا أكثر، هذا ردّي عليّ!»

فقال الآخر «انتظـر، لن يطول الوقت بعد الآن». وهكذا جعلت أنتظر يا إخواني. وقد تحسّـنت حالتي كثـيرًا وأنا آكل البيض وأقضم

(التوست) وأشرب أقداحًا كبيرة من الشّاي واللّبن، إلى أن جاء يوم أبلغوني فيه أنّه سيحضر عندي زائر كبير المقام.

- «من هو؟» قلت هذا بينما كانوا يرتّبون الفراش ويسرّحون شعري الغزير نيابة عنّي بعد أن رفعت الضّمادات عن رأسي ونما الشّعر من جديد.

فقالوا «سوف ترى، سوف ترى». وقد رأيت فعلاً، ففي السّاعة الثّانية والنّصف من بعد الظّهر أقبل المصوّرون ومندوبو الصّحف مشرّعين مفكّراتهم وأقلامهم إلى آخر هذه الظّواهر. ولو استطاعوا يا إخواني أن ينفخوا في الابواق لفعلوا اجلالاً لصاحب المقام الرّفيع القادم لرؤية محدّثكم المتواضع. ثمّ جاء فعلاً وطبعًا لم يكن سوى وزير الدّاخلية الأفخم، شرف في أوج أناقته متشدّقًا بلهجته السّامية المنمّقة، تبرق من حوله كاميرا التّصوير خصوصًا حين مدّ يده الكريمة إليّ يصافحني.

فقلت «حسنًا! حسنًا! حسنًا! ماهي الحكاية أيّها الرّفيق الكريم؟» ولكنّ واحدًا من القادمين انتهرني بصوت خشن «الزم الأدب والاحترام يا ولد عندما تخاطب الوزير!»

فقلت مزمجرًا مثل كلب «تبًّا لكم جميعًا!» فسارع وزير الدّاخلية يقول «لا بأس! لا بأس إنّه يكلمني كصديق، أليس هذا يا بنيّ؟» فقلت «أنا صديق كلّ إنسان، إلا أعدائي!»

فقال الوزير ومندوبو الصّحف منهمكين في الكتابة والتّدوين «ومن هم أعداؤك؟»قل لنا هذا يا ولدي.

فقلت «إنّ كلّ الذين يسيئون إليّ هم أعدائي». فقال وزير الدّاخلية وهو يجلس قرب فراشي «لا بأس! إنّني والحكومة التي أنا عضو فيها نريد منك أن تعدّنا كأصدقاء، نعم أصدقاء. إنّنا قوّمناك، صح؟ وأنت تنال أفضل علاج، ولم نرد لك أي ضرر أبدًا».

لكن هناك البعض ممّن فعلوا هذا ويفعلونه، وأظنّ أنّك تعرف من هم هؤلاء. فقلت «إنّ كل الذين يسيئون إليّ هم اعدائي».

فقال الوزير «نعم، نعم، نعم. هناك افراد معيّنون أرادوا أن يستخدموك لأغراض سياسيّة. وكان يسرّهم - نعم - يسرّهم أن تلقى حتفك، فإنّهم ظنّوا أنّه يمكنهم بهذا أن يلقوا اللّوم كلّه على الحكومة. وأظنّ أنّك تعرف من يكون هؤلاء الافراد».

فقلت: «إنّني لم أسترح إليهم».

فقال الوزير «هناك رجل يدعى «ف.ألكسندر»، محرّر مطبوعات هدّامة، ذهب يملأ الدّنيا صراخًا مطالبًا بدمك. لقد جنّ جنونًا رغبة منه في غرس مدية في شخصك، لكنّك الآن في أمان منه، لقد أبعدناه عنك».

فقلت «كنت أظنُّ أنّه يكنّ لي الصّداقة، كان يرعاني رعاية الأم للابن».

فعاجلني الوزير قائلاً «لقد اكتشف أنّك أسأت إليه، أو على الأقل ساوره الاعتقاد بأنّك كنت المسيء. لقد نبتت في ذهنه فكرة أنّك كنت المسؤول عن وفاة شخص قريب له وعزيز عليه». فقلت «إنّ ما تعنيه هو أنّ أحدًا أبلغه بهذا».

فقال الوزير «كانت عنده هذه الفكرة، وقد أصبح خطرًا عليك. فأبعدناه لحمايته شخصيًّا، ولحمايتك أنت أيضًا».

فقلت «طيبة وإنسانيّة. منتهى الطّيبة من جانبكم».

فقال الوزير «عندما نغادر هذا المكان، لن تبقى أمامك أيّ متاعب ولا اكدار، إنّنا سندبّر لك كل شيء. عملٌ طيّبٌ، ومرتّب طيّب لأنّك تساعدنا». فقلت: «هل أفعل هذا حقًّا؟»

إنّنا دائمًا نساعد الأصدقاء، أليس كذلك؟ ثمّ أمسك الوزير بيدي، وعندها صاح أحدهم: «ابتسم!» فابتسمت دون تفكير، وسرعان ما لمعت كاميرات التّصوير تأخذ صورتي وصورة الوزير ونحن على أتمّ الودّ والصّفاء.

وقال ذلك الرّجل الخطير «جميل، جميل يا ولدي! والآن انظر، هذه هديّة لك».

إنّ ماجاءوا به الآن يا إخواني كان صندوقًا كبيرًا لامعًا، فعرفت بوضوح ما هو؟ كان جهاز (استيريو)، وقد وضعوه بجانب السّرير وفتحوه، وتولّى شخص وضع (الفيشة) في (بربزة) الحائط. وقال

آخر يضع نظّارة على أنفه، وكان يحمل في يديه أغلفة جميلة لامعة مليئة بالاسطوانات «أيّ موسيقى تريد؟ موتسارت؟ بتهوفن؟ شورينبرج؟ كارل اورف؟» فقلت له: «السّيمفونيّة رقم 9 السّيمفونيّة المجيدة، وسمعت السّيمفونيّة الرّائعة يا إخواني. وأخذ كلّ واحد ينسحب في هدوء ولطف فيما تمدّدت في مكاني مغمض العينين أستمع إلى أعذب الالحان.

وقال الوزير وهو يربّت على كتفي «بديع، بديع يا ولدي!» ثمّ خرج على الأثر، ولم يبقَ سوى شخص واحد قال لي «وقّع هنا من فضلك». ففتحت عينيّ لكي أوقّع دون أن أدري ما الذي أوقّع عليه، وما كان يهمّني يا إخواني أن أدري...

وفي النّهاية بقيت وحدي مع سمفونيّة بتهوفن الخالدة. آه! كانت هي الرّوعة والجلال والجمال معًا! وفي مسراها في وجداني بدا لي وكأنّني أركض وأركض فوق ساقين خفيفتين خفيفتين، أشقّ وجه الدّنيا كلّها الصّارخة بمديتي الحادّة البتّارة، ثمّ كان ختامها بالحركة الوانية ثمّ الحركة الغنائيّة البديعة العذبة، فشعرت أنّني قد شفيت حقًّا وصدقًا.

الفصل السابع

ماذا سيكون إذًا، ياترى؟

هأنذا، محدّثكم المتواضع، مع رفاقي الثلاثة: لين، وريك، وبوللي، لقد سمّى بوللي بهذا الاسم (الثور) بسبب عنقه الضّخم الغليظ وصوته الذي يشبه خوار الثّور حقًّا. كنّا جلوسًا في مشرب اللّبن «كوروفا» نتشاور فيما نفعله هذه الامسية الشّتويّة القارسة البرد الحالكة الظّلام وإن كانت خالية من المطر. وكلّ ما حولنا كان أناسًا يشربون اللّبن المقوّى بالأخلاط الملهبة التي تطير العقل وتطوّح بالشّاربين في الفضاء، أمّا تأثير هذا الشّراب عندنا نحن الفتيان فكان يلهب حواسّنا ويستفزّنا للقيام بأعمال العنف، ولكنّني حدّثتكم عن هذا يا إخواني فيما سلف من قبل. وكنّا الآن نلبَس قمّة (الموضة) في هذه الأيّام، وهي البنطال الواسع الفضفاض وسترة الجلد السّوداء اللامعة فوق القميص مفتوح الرّقبة مع منديل كبير مشدود إلى الصّدر، وكان من مقتضيات (الموضة) أيضًا في هذا الوقت هو استعمال المطواة الحادّة على الرّأس، وهكذا كان أكثر الرّأس شبه

أصلع، ولا يبقى الشّـعر إلّا على الجانبـين. أمّا الاقدام فقد بقيت على حالها، مدسوسة في الحذاء الثّقيل لركل الوجوه ركلاً. وكنت أنا أكبر هذه الزّمرة سنًّا، وكانوا جميعًا ينظرون إليّ كزعيم لهم. غير أنّ الفكرة كانـت تراوحنـي أحيانًا بأن بوللي ربّما يفكّـر في أن يتولّى هو الزّعامة، وذلك بسبب ضخامته وهدير صوته عندما يكون مشتبكًا في المعمعة. ولكـن الافـكار والخطط كافّـة كانت تنبع مـن محدّثكـم المتواضع يا إخواني، وكذلك لمّا اتّسـقت لي من شهرة بعد تلك المقالات والصّور الفوتوغرافيّـة التي نشرت عنّي في الجرائد. يضاف إلى هذا أنّني كنت أتقلّد أحسن عمل دون كل الفريق، في شركة «الاسطوانات الموسيقيّة الوطنيّة» بمرتّب كان يجعل جيبي مملوءًا بالنّقود في نهاية الاسبوع، إلى جانب مجموعة من الاسطوانات المجّانيّة أفوز بها من الشّركة. في هذا المسـاء كان في مـشرب «كوروفا» جمع طيّب من افراد الجنسـين كبارًا وصغارًا جلسـوا يتسامرون ويحتسون الشّراب بين عزف (الاستريو) لاغاني (البوب) الشّـائعة. وكانت تجلس إلى المقصف مجموعة نسائيّة في زي (النّادسـات) العصري، وهو الشّعر الطّويل المشعث المصبوغ باللّـون الأبيض، مع النّهود الصّناعيّة البارزة بقدر متر!، و (الجونلة) المحبوكـة شـديدة الضّيق والقصيرة ومـن تحتها أطـراف (الدانتللا) بادية. وكان بوللي لا يفتأ يكرّر لهنّ هذه الكلمات «بالإمكان أن ننتقل إلى جانبكنّ نحن الثّلاثة، أمّا لين فهو غير مهتم. اتركن لين وحده مع أطيافـه الحوريات». فكان لين يـردّ عليه بقوله «تخريف، تخريف. أين

مبـدأ الكل مع الواحد والواحد مع الـكل، يا ولد؟!» وفجأة ألفيتني أشعر بالتّعب الشّديد والنّشاط المتجدّد في آن واحد.

فقلت لهم «إلى الخارج! إلى الخارج! إلى الخارج!»

فقال ريك الذي له وجه كالضّفدعة «إلى أين؟» فقلت «لكي نرى مـاذا يجـري في الدّنيا الواسـعة في الخارج». بيد أنّني كنت أشـعر على نحو ما يا إخواني بالضّجر الشّديد وقلّة الحيلة، وكان هذا الاحساس يلازمنـي أكثـر الوقت في هـذه الأيّام. وهكـذا انثنيت إلى الشّـخص القريـب مـن مجلسي عـلى الاريكة الوثـيرة الممتدّة باسـتدارة المشرب مسـتغرقًا في هذيانـه، فصوّبت إليه لكمات عدّة فـوق بطنه، غير أنّه لم يشـعر بها يا إخواني، ومضى يهذي بأبيات من الشّعر الغنائيّ لا معنى لهـا. سرنا في طريـق «مارجانيتا بوليفار» دون أن نصادف في مسـيرنا شرطـة من قـوّة الدّوريّة. مـا إن التقينا برجـل آت إلى ناحيتنا خارجًا لتـوّه من كشـك بيـع الجرائـد حتّى قلت لبولـلي «لا بأس يـا بوللي يا ولـدي، تقدم إذا كانت لديك الرّغبة. فقـد كنت هذه الأيام أميل إلى إصدار الاوامـر واقف بمعزل لرؤية هذه الاوامر تنفّذ. وهكذا تقدّم بوللي إلى الرّجل واصطدم بـه، بينما أوقعه الاثنان الآخران (بمقص) وانهالا عليه رفسًا وهو ممدّد على الأرض، ثم تركاه يزحف مبتعدًا إلى حيث يقيم وهو ينتحب. وقال بوللي «ما رأيك يا أليكس في كأس من أيّ نـوع لدفـع البرد عنّا؟» ذلك لأنّنا كنّا وقتهـا غير بعيدين عن «بار دوق نيويـورك» فأومـأ الآخران بنعـم نعم، ولكنّ الثلاثـة نظروا إليّ

لـيروا إن كنت أوافق، فأومأت أيضًا ايجابًا، ومضينا إلى المشرب. وفي الدّاخل وجدنا أولئك النسـوة العجائز اللـوتي تتذكّرونهنّ منذ بداية هـذه القصّـة، وما إن وقعت أنظارهـنّ علينا حتّى بدأن بالاسـطوانة المعروفة «مسـاء الخير يا فتيان، بارك الله بكم! أنتم أحسـن الفتيان في الدّنيا!»

وقد انتظرن أن نردّ عليهنّ بعبارة «ماذا تطلبن يا بنات؟» فاستدعى بوللي (الجرسـون) الذي جاء يمسـح يديه في (المريلة) الزّنخة، وقال بولـلي وهـو يخـرج النّقـود مـن جيبـه ويفرغهـا عـلى المائـدة في رنين «نقودكم على المائدة يا رفاق، ويسكي لنا، ولسيّداتنا أيضًا!» وعندئذ قلت «آه! إلى الجحيم! دعهنّ يشـترين المشروب لأنفسـهنّ». ولست أدري ما الذي دهاني، غير أنّني شـعرت في المدّة الاخيرة بأنّني أقرب إلى البخل والتّقتير. ودارت بخاطري رغبة في الاحتفاظ بكلّ نقودي لنفسي وادّخارها كلّها لسبب ما. وقال بوللي «ماذا جرى يابطل؟ ماذا دها أليكس العتيد؟»

فقلت «آه! إلى جهنّم، لسـت أعرف، لسـت أعرف. إنّ ما أعرفه هو أنّني لا أحبّ أن أبعثر نقودي التي كسـبتها بشـقّ النّفس. هذا هو ما بي».

فقـال ريـك «تقـول كسـبتها؟ كسـبتها؟ لا لـزوم لكـي تتعب في الكسب، كما تعرف أيّها الزّميل العزيز، النّقود نأخذها أخذًا». وشفع هذا بابتسامة كشفت عن اختفاء سنّ أو اثنتين من فمه.

فقلت «آه! لا بدّ لي من التّفكير. ولكن بعد أن لمحت أولئك العجائز أقرب إلى التّلهّف لطلب شراب مجانيّ، هززت كتفي وأخرجت نقودي من جيب بنطالي وكانت معدنًا وورقًا، فنثرتها على المائدة.

فقال (الجرسون): «ويسكي للجميع!» لكن لسبب ما قلت «لا يا ولد، اطلب لي أنا كأس بيرة. فقال لين «أنا لا أستحب هذا!» وهمّ أن يضع يده على رأسي مداعبًا، كأنّني أصبت بحمى، غير أنّني زجرت في وجهه لكي يكفّ...

فقال «لا بأس! لا بأس يا صاحبي! كما تحب». لكن بوللي كان ينظر فاغر الفم إلى شيء خرج من جيبي مع النّقود التي وضعتها على المائدة، وقال: «شيء جميل! وكنّا لا نعرف أبدًا!» فقلت مزمجرًا وأنا أختطف ما رآه «اعطني هذه!» كانت يا إخواني صورة فوتوغرافيّة قصصتها من جريدة، وكانت لطفل رضيع ضاحك واللّبن يتساقط من فمه، شاخصًا بوجهه الضّحوك لكلّ إنسان، وكان عاريًا تمامًا وطيّات لحمه بادية لفرط سمنته، وقد نشبت بيننا شبه مشادّة لمحاولتهم انتزاع الصّورة منّي. وهكذا زجرت في وجوههم مرّة أخرى واختطفت الصّورة ومزقتها كلّ ممزق وتركتها تتناثر على الأرض تناثر حبيبات الثّلج. ثمّ جيء بالويسكي على الأثر، وقالت العجائز «في صحتكم يا فتيان! بارك الله بكم، يا أحسن فتيان في الوجود! هذا هو انتم»، إلى امثال هذا الكلام ثمّ قالت إحداهنّ

وهـي أكثرهنّ تجاعيد وقد ذهبت الاسـنان من فمهـا الغائر «لا تمزّق النّقـود يا بني! إن كنت لا تريدها فامنحها لمـن يحتاج إليها». وكانت في هـذا القـول جريئة وصريحـة، ولكن ريك ردّ عليهـا قائلاً «لم تكن هـذه نقودًا يا جـدّتي، كانت صورة لطفل صغـير». فرحت أقول لهم «إنّنـي بدأت أتضايق منكـم، الاطفال هم أنتم. تهزلـون وتتغامزون وكلّ ما تقدرون عليه هو الاعتداء بالضّرب على النّاس بجبن حين لا يقدرون على ردّ العدوان بمثله». فقال بوللي «لا بأس! كنّا نظنّ حتّى الآن إنّك الملك والمعلم. إنّك لسـت على مايرام، هذه هي المشـكلة يا زميـلي العزيـز». وحانت مني التفاتة إلى كأس البيرة التي جيء بها إليّ على المائدة، فشعرت بأنّني على وشك القيء، وهكذا قمت وسكبتها عـلى الأرض، حتّـى قالـت إحـدى النسـاء «لا تبـدّد مـا لا تريده!» ولكنّنـي وجّهت كلامـي إلى الرّفاق الثلاثة قائلاً «اسـمعوا يا رفاق، انصتوا. إنّ مزاجي معكّر هذه الليلة، ولسـت أعرف لماذا ولا كيف، ولكـن هذا هـو الحال. اذهبـوا أنتم الثلاثـة في طريقكم هـذه الليلة، بـدوني. وغدًا سـنلتقي في الزّمان نفسـه والمكان نفسـه، عـلى أمل أن أتحسّـن وقتذاك». فقال بوللي «آه! أنا آسف لهذا!» لكن كان بوسعك أن تـرى ذلـك البريق في عينيه، إذ أنّه سـيتزعّم المجموعة هذه الليلة، هـي القـوّة والسّـلطان، يريدهما كل إنسـان. فقال بولـلي «يمكننا أن نؤجّـل إلى الغدّ مشروعنا لهذه الليلة، أعني الغارة على ذلك المحل في شارع «جاجارين» الغنيمة هناك مغرية وجزيلة أيّها الرّفاق، لمن يقدم عليها. فقلت «لا.. لا تأجيل لشيء فقط افعلوا ما تريدون بأنفسـكم

وبطريقتكم. والآن أنا خـارج». وقفت عن مقعدي. فقال ريك «إلى أيـن إذًا؟ » فقلت «هذا ما لا أعرفـه، أريد أن أكون وحدي وأفكّر في أحوالي». بدت الدّهشة على وجوه النّسوة العجائز وقد رأيتني أخرج على هذه الصّورة وأنا متبرّم سـاخط ولست الفتى المتوثّب الضّحوك الـذي تذكرونه يا إخواني. ولكنّني قلت «آه! إلى جهنّم.. إلى جهنّم». وانطلقت وحدي في الشّارع. كان الظّلام سائدًا والرّيح قارسة البرد، ولم يكن ثمّة سوى قلّة من النّاس في الطّريق، ولكن دوريّات الشّرطة بالسّيّارات كانت لا تكف عن الطّواف وبداخلها أفراد قساة أشدّاء، وحول النّواصي كنت ترى اثنين من رجال الشّرطة الشّبّان يضربون الأرض باقدامهم لمقاومة البرد اللاذع وانفاسهم تنعقد أبخرة في هواء الشّـتاء. وأظنّ يا إخـواني أنّ كثيرًا من اعمال العنـف واقتحام المحال للسّلب والنّهب قد تلاشى الآن، بعد أن بدأ رجال الشّرطة يتعاملون بالشّـدّة والقسـوة مع من يعتقلونهم، على الرّغم من أنّ الاشـتباكات بين اشـقياء (النادسـات) والشّرطة كانت تتحـوّل إلى معارك طاحنة أسـلحتها المدى والمطاوي والعصي، وحتّى الاسلحة النّاريّة، لكن ما اعـتراني هذه الأيّام هو أنّني لم أكد أبالي بشيء. فكأنّما سرت إلى نفسي طراوة لم أفهم لها سببًا ولا علّة. ولم أستطع أن أعرف ماذا أريد وأبتغي وحتّى الموسيقى التي كنت مشغوفًا بسماعها في (وكري) بالبيت لم أعد أسـتطيبها يا إخواني. كنت أستمع الآن إلى الاغاني الرّومانسية الهادئة المشـجية، مجرّد كلمات وبيانو، مختلفة تمامًا عن موسـيقى الاوركسترا التي كنت أسـتمع إليها وأنا ممدّد في فراشي منتشيًا سابحًا في الفضاء.

هناك شيء بدأ يحدث لي في داخلي، حتّى رحت أتساءل إن كان مرضًا أو هو شيء فعلوه بي في تلك المدّة الماضية، فقلبوا الموازين في دماغي، ولعلّهم يوشكون أن يفضوا بي إلى الهوس والاختلال. على هذه الصورة من التّفكير يا إخواني رحت أمشي في المدينة مطرق الرّأس ويداي في جيوبي حتّى أدركني التّعب الشّديد وشعرت في الوقت نفسه بحاجة ملحّة إلى قدح كبير من الشّاي واللّبن. وقد أفضى بي التّفكير في الشّاي إلى تخيّل صورة فجائيّة لنفسي جالسًا أمام مدفأة في مقعد وثير أحتسي هذا الشّاي، وإنّما كان المضحك والمستغرب أنّني تخيّلت نفسي وقد تحوّلت إلى شخصيّة محترمة في نحو السبعين من العمر وقد خط المشيب شعر صاحبها!.. هكذا تخيلت نفسي رجلا كهلا جالسا بجانب المدفأة، لكن هذه الصورة لم تلبث أن تلاشت، وان تلبث في نفسي التّفكير في غرابتها. ووصلت إلى واحد من تلك المقاهي التي تقدّم القهوة والشّاي، واستطعت أن أتبيّن من خلال نافذتها الطّويلة أناسًا متبلدين عاديين لهم وجوه صابرة لا تعبّر عن شيء ولا يبادر اصحابها أحدًا بأذى، وكلهم جلوس يتسامرون في هدوء ويحتسون الشّاي والقهوة بما لا يضر شيئًا، فدخلت واتّجهت إلى (الكاونتر) واشتريت قدحًا من الشّاي الحار وبه قدر كبير من اللبن، ثمّ جلست إلى إحدى الموائد لكي أشربه. وكان يجلس إلى هذه المائدة الكبيرة شاب وفتاة يشربان ويدخّنان سجائر ذات (فلتر) وهما يتجاذبان اطراف الحديث ويتبادلان الابتسام هادئين وادعين، بيد أنّني لم القِ إليهما بالا ورحت أحتسي وأنا فيما يشبه الحلم والعجب ممّا

اعتراني وغيّرني وممّا قد يحدث لي، لكنّني رأيت أنّ تلك الفتاة الجالسة مع الشّاب إلى المائدة كانت حسناء بمعنى الكلمة ولكنّها أبعد ما يكون عن صورة الفتاة المبتذلة الرّخيصة التي تثير الغرائز الجامحة. كانت متناسقة القوام مليحة الوجه باسمة الثّغر رخيمة الصّوت، وما لبث جليسها الشّاب الذي كان وجهه مائلاً عنّي في النّاحية المقابلة أن انثنى لينظر إلى السّاعة الكبيرة المعلقة على الحائط، وسرعان ما عرفته، وسرعان ما عرفني. كان بيتر، أحد الرّفاق الثّلاثة من عهد الأيّام السّالفة عندما كنا اربعة: جورجي، وديم، وبيتر، وأنا. وقد بدا بيتر الآن أكبر سنًّا وإن لم يجاوز التّاسعة عشرة، وكان له شارب خفيفة، وكان مرتديًا بدلة عاديَّة وقبّعة فوق رأسه. قلت له «حسنًا، حسنًا، حسنًا يا صاحبي! منذ وقت طويل لم نرك».

فقال «أليكس الصّغير؟ أليس كذلك؟» فقلت: لا سواه! مضت مدّة طويلة طويلة منذ تلك الأيّام الحلوة الماضية. والآن فإنّ جورجي تحت التّراب كما أخبروني، وديم شرطي وحشيّ، وهأنذا وأنت. ماهي اخبارك أيّها الزّميل القديم؟» فقالت له فتاته متضاحكة «إنّ كلامه عجيب، أليس كذلك؟ » فقال لها «هو صديق قديم، اسمه أليكس». والتفت إليّ قائلاً «اسمح لي أن أقدّم لك زوجتي». انفرج فمي عن آخره، وقلت «زوجة؟ زوجة؟ زوجة؟ آه، لا! هذا لا يمكن. أنت أصغر كثيرًا من أن تتزوج، يا صاحبي، مستحيل.. مستحيل!» فضحكت الفتاة التي قال أنّها زوجته وقالت له «هل تعوّدتما أن تتكلّما هكذا أيضًا؟» فقال بيتر

باسمًا «حسنًا، إن سنّي تقارب العشرين، وهي سنّ تكفي للقيد، وقد تمّ ذلك منذ شهرين. أما أنت فكنت صغيرًا جدًّا، ومقدامًا». فقلت ومازلت في دهشتي «لا بأس. هذا شيء لا يمكن ابتلاعه بسهولة! بيتر متزوّج؟ حسنًا! حسنًا! حسنًا» فقال بيتر «لنا الآن شقّة صغيرة. وأنا أنال مرتّبًا صغيرًا في شركة للتّأمين البحري، لكنّ الاحوال سوف تتحسّن، هذا مؤكّد وجورجينا هنا». فقلت له ومازلت فاغر الفم «ما هذا الاسم؟ فأجاب بين ضحك زوجته «جورجينا زوجتي تعمل أيضًا على الآلة الكاتبة، ونحن نتعاون لتدبير امورنا». لم أستطع يا إخواني أن أرفع بصري عنه حقيقة، هكذا كبر بسرعة، وتماشى صوته مع تقدّمه في السّن! بينما مضى يقول «يجب أن تحضر لرؤيتنا في وقت ما. أمّا أنت فإنّك مازلت تبدو أقرب إلى صغر السّن، على الرّغم من التّجارب الرّهيبة التي مررت بها. نعم، نعم، نعم. إنّنا قرأنا كل ما كتب عنها، لكنّك مازلت مع ذلك صغير السّن». فقلت «ثمانية عشر عامًا أو تزيد قليلاً». فقال بيتر «ثمانية عشر عامًا؟ هل كبرت إلى هذا الحد؟ لا بأس، الآن لا بدّ لنا من الانصراف». ورمق جورجينا هذه بنظرة محبّة وضغط بإحدى يديه على يدها وبادلته نظرته بمثلها يا إخواني. وقال بيتر وهو ينثني نحوي «نعم، نحن ذاهبان إلى حفلة صغيرة عند جرجيز». فقلت «جرجيز؟!» فقال بيتر «آه.. طبعًا أنت لا يمكن أن تعرف جرجيز، إنّه ظهر بعدك في وقت غيابك - وهو يقيم حفلات صغيرة، معظمها تقوم على العاب اللّكمات وبعض

الـشّراب الخفيف، لكنّهـا لطيفة جـدًّا، ومبهجة جدًّا. ثـمّ إنّها غير ضـارّة، إذا فهمت قصـدي». فقلت «مفهوم، غير ضـارّة، مفهوم، مفهـوم تمامًا». وانصرف الاثنـان إلى حفلهما الصّغـير عند جرجيز هذا، وبقيت وحدي مع الشّاي الذي بدأ يبرد الآن، متفكّرًا متعجّبًا. ربّـما كان هـذا هو الواقع «أعني أنّني كبرت بالنّسـبة إلى تلك الحياة التي كنت أعيشـها والاسـلوب الذي كنت أنتهجه يا إخواني. لقد كنـت الآن في الثّامنة عشرة، أو جاوزتهـا بقليل. إن الثّامنة عشرة لم تكن سنًّا صغيرة. ففي الثّامنة عشرة كتب «فولف جانج أماندوس» سـيمفونيّات وكونشرتات واوبرات وموشّـحات وغيرها كثير من تلك الموسـيقى السّـماويّة. ثمّ هناك «فليكس م». برائعته «افتتاحية حلم منتصف ليلـة صيف». وهناك غيرهما كثيرون، ثمّ هناك ذلك الشّاعر الفرنسي الذي دبج أروع شعره وهو بعد في الخامسة عشرة، واسـمه «أرثر» على مـا أذكر، آه يا إخواني. إنّ سـنّ الثّامنة عشرة لم تعـد تلك السّـن الصّغيرة، لكن ما الذي يتعيّن علـيّ أن أفعله؟ لقد راحت تتراءى لي بعد خروجي من مقهى الشّاي والقهوة إلى الظّلام الشّتوي القارس رؤى كالتي تتعاقب في رسوم (الكرتون) المصوّرة في الصّحـف، فها هوذا محدّثكم المتواضع أليكس عائدًا إلى بيته بعد العمل ليجد عشـاءً سـاخنًا طيّبًا. وها هي ذي فتاته ترحّب بعودته وتمنحه مودّة الزوجة الحانية، لكنّني لم أستطع أن أتبيّنها يا إخواني. لم أستطع أن أفكّر من ستكون يا ترى؟ غير أنّني تملّكتني تلك الفكرة القويّة المفاجئة بأنّني إذا دلفت إلى الغرفة المجاورة لهذه الغرفة التي

يتّقد فيها لهب المدفأة والعشـاء السّاخن معد فيها على المائدة، فإنني واجـد فيها من أريـد حقًّا، ثمّ تلـك الصّـورة الفوتوغرافيّة للطّفل الرّضيـع المقصوصة من الجريدة هناك. ولاشـك سيكون في غرفة أخـرى ذلك المهـد الصّغير الذي يرقـد فيه الطّفـل الضّحوك هانئًا وادعًا طفلي، وابني. لم اتمالك أن صحوت من تأمّلاتي شاعرًا بفراغ سـحيق في داخلي، مدهوشًـا ممّا اعتراني، لقد لمسـت مـا هو حادث لي يـا إخـواني. إنّني كبرت حقًّـا، أجل! هذه هي الحقيقـة. لا بدّ أن يذهب الشّباب ويولّي.. إنّما الشّباب لا يعدو أن يكون مثل حيوان، لا إنّه مثل تلك اللعب التي تراها تباعًا في الشّـوارع، تمثّل أشخاصًا صنعـوا من الصّفيح وزوّدوا بزنبرك ومفتـاح خارجي تملأه بيدك، فينطلـق في خطّ مستقيم ويصطدم بالاشـياء وهو لايملك لنفسـه وقفًا ولا حيلة له فيما يفعل. إنّ صغر السّـن هو أقرب شـبهًا بتلك الآلات الصّغـيرة، ابني.. ابني! عندما يكون لي ابن فإنّني سـأشرح لـه كلّ هذا حينما يكبر إلى الحد الذي يجعلـه يفهم. غير أنّني أعرف أنّه لن يفهم، أو لن يريد أن يفهم بتاتًا، ويقبل على فعل كلّ الاشياء التـي فعلتهـا. نعـم، وربّـما حتّى عـلى قتل عجـوز مسـكينة ترعى القطط، وقد لا أسـتطيع وقفه عند حدّه، وربّما لا يسـتطيع أيضًا أن يوقـف ابنه هو عند حدّه يا إخـواني. وهكذا تمضي الامور على هذه الوتـيرة إلى نهاية الدّنيـا، دورانًا و دورانًا لا ينقطع، وكأنّما هو القدر الغـلاب يدير برتقالة دورًانا مسـتمرًا دائبًا، دون أن يكون لها حول ولا قوّة في يديه الهائلتين!

لكـن قبـل هذا كلّه يـا إخواني، لا بـدّ من البحث عـن تلك الفتاة التي تكون أمًّا لهذا الابن، لا بدّ أن أبدأ هذه المهمّة من غدٍ لكي تكون بمثابة فصل جديد أسـتهلّ به ما أريد. وهذا هو ما سيكون يا إخواني وأنا أقترب من نهاية هذه القصّة، لقد كنتم في كلّ مكان مع صديقكم الصّغير أليكس، تعانون معه، وقد شـهدتم بعض نماذج الاشـخاص الملتويـة التـي كانت حربًا عـلى صديقكم أليكس العتيـد، وكلّ ذلك لأنّنـي كنت حدثًا غريرًا. أمّا الآن وأنـا أختتم هذه القصّة يا إخواني، فإنّنـي لم أعـد صغيرًا بعد، ولـن أكونه قط، فإنّ أليكـس قد انتقل إلى مرحلة الكبر.

إنّنـي مقبـل الآن يا إخـواني على عهـد جديد مسـتقلا بكياني، إلى حيث لا يمكنكم صحبتي بعد.. وغدًا سيكون مثل الزّهور المتفتّحة، والثّـمار اليانعـة في التّربة الخصبـة، والأنجم اللامعـة، والقمر العتيد السّـاري في عليائـه، وفيه يضطلع صديقكـم أليكس بالتماس شريكة لحياته، في دنيا غير دنيا المعاناة الرّهيبة التي أستهدف لها وأمتحن بها. وهكذا أودّعكم يا إخواني وداعًا قوامه الشّكر والامتنان، راجيًا منكم حسن الذّكر والدّعاء بالتوفيق لصاحبكم أليكس صديقكم القديم.

تمت..

مكتبة
t.me/soramnqraa

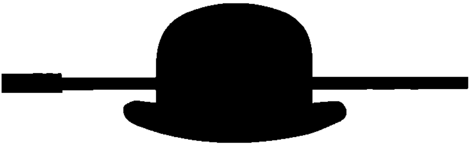

اقتباساتكم من الرواية

كل قراءة تثمرُ عن اقتباسٍ مختلف...
شاركه معنا عبر
اقتباسات_قراء_منشورات_نصوص

يحاول أنتوني بيرجس تجسيد الواقع السياسي الذي كان سائدًا آنذاك وطريقته في العقاب للافراد المذنبين بما يرتكبون مم جرائم السرقة والقتل والاغتصاب دون أي اهتمام للقيم والاخلاق، فتتشكّل عصابات في وجه المجمتع. من هنا يظهر صراع بين حرية الفرد من جهة وحرية المجتمع من جهة أخرى.

تظهر حرية الافراد المتجسدة بشخصية أليكس اللااخلاقية المتحرّرة من القيود مقابل مجتمع يُظلم على يديه بارتكاب جميع أنواع الجرائم. وهنا يكون المجتمع رهين تفاهات أليكس وعصابته فيعيش في افراده في حالة خوف ورعب جرّاء افعال هذه العصابة التي لا رادع لها.

أما الدولة فتتدخل للحد من آثام أليكس بالسجن ويكون مكانًا للوعظ دينيًا ثم بابتكار طريقة عقاب جديدة ليكون هو ميدان التجربة وهذا ما جعل منه إنسانًا مبرمجًا كالساعة بعد سلسلة خطوات قامت بها الدولة معه مقابل أن يخرج من السجن بمدة أقل دون أن يعرف النتيجة فيتحول إلى إنسان آخر، مشتت غير قادر على اختيار حتى نوع الموسيقى التي يريد أن يسمع.

ISBN: 978-9953-592-42-8
9 789953 592428
منشورات